رَسَائِلُ البُلَغَاء

ـ المُنْتَخَبُ مِن كِتَاب:

النَّظَرَات (١)[٧]

مُصْطَفَى لُطْفِى المَنْفَلُوطِيُّ

﴿ ١٢٨٩ ـ ١٣٤٣ هـ = ١٨٧٢ - ١٩٢٤ م ﴾

ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ـ

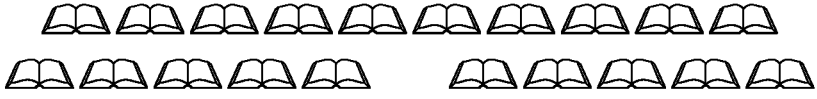

[٧](١) ـ نُسخة دار الآفاق الجديدة؛ الطبعة الأولى: ١٤٠٢هـ= ١٩٨٢م .

- التَّعْرِيفُ بِالكَاتِب:

*- مُصْطَفَى لُطْفِى المَنْفَلُوطِيُّ

قَالَ خير الدِّين بن الزِّرِكْلِيُّ الدِّمشقيُّ ((ت ١٣٩٦هـ)) فى ((الأعلام)) (١)[٨]:

((المَنْفَلُوطيُّ

﴿١٢٨٩ ـ ١٣٤٣ هـ = ١٨٧٢ - ١٩٢٤ م﴾

مصطفى لطفى بن محمد لطفى بن محمد حسن لطفى المنفلوطيُّ:

نابغةٌ فى الإنشاء والأدب؛ انفرد بأسلوبٍ نقىٍّ فى مقالاته وكُتبه. له شعرٌ جيِّدٌ؛ فيه رِقَّةٌ وعُذُوبةٌ. وُلِدَ فى منفلوط ـ من مُدُنِ الوجه القبلىِّ بمصر ـ؛ من أُسرةٍ حُسينيَّة النَّسَب مشهورة بالتقوى والعلم؛ نبغ فيها من نحو مئتى سنة قضاة شرعيون ونُقباء أشراف.

وتعلَّم فى الأزهر؛ واتصل بالشيخ محمد عبده اتصالاً وثيقاً؛ وَسُجِنَ بسببه ستَّة أشهُرٍ لقصيدةٍ قالها تعريضاً بالخديوى عباس حلمى وقد عاد من سفر

وكان على خلافٍ مع محمد عبده؛ مطلعها:

قُدُومٌ وَلَكِن لا أَقُولُ سَعِيدُ !!

وَعَوْدٌ وَلَكِن لا أَقُولُ حَمِيدُ !!

---

[٨] (١) ـ (جـ ٧/ ٢٣٩ ـ ٢٤٠)؛ دار العلم للملايين؛ الطبعة: الخامسة عشر: أيار / مايو ٢٠٠٢ م

وابتدأت شهرته تعلو منذ سنة ١٩٠٧ بما كان ينشره فى جريدة ﴿ المُؤيَّد ﴾ من المقالات الأُسبوعيَّة تحت عُنوان ﴿ النَّظرات ﴾ ؛ وولىَ أعمالاً كتابيَّةً فى وزارة المعارف سنة ١٩٠٩ ؛ ووزارة الحقانيَّة (١٩١ ؛ وسكرتارية الجمعية التشريعيَّة ١٩١٣ ؛ وأخيراً فى سكرتارية مجلس النُّوَّاب ؛ واستمر إلى أن توفى.

ـ له من الكُتُب : ﴿ النظرات﴾ ؛ و﴿ فى سبيل التاج﴾ ؛ و﴿ العبرات﴾ ؛ و﴿ الشاعر أو سيرانو دى برجراك﴾ ؛ و﴿ مجدولين﴾ ؛ و﴿ مختارات المنفلوطى﴾.

وبين كُتبه ما هو مترجم عن الفرنسيَّة ؛ ولم يكن يحسنها ؛ وإنما كان بعض العارفين بها يترجم له القصة إلى العربيَّة ؛ فيتولى هو وضعها بقالبه الإنشائىِّ وينشرها باسمه.

ولمحمد زكىِّ الدِّين : ﴿ المنفلوطىُّ : حياته ؛ وأقوال الكُتَّاب والشُّعراء فيه ؛ والمختار من نثره وشعره﴾.

ولأحمد عُبَيْد ﴿كلمات المنفلوطىِّ﴾ ؛ مُذيَّلٌ بخلاصة ما قيل فى وصفه وتأبينه .))

.أهـ ما قَيَّدَهُ الزِّركلىُّ .

....

وقالَ الأُستاذ محمد كامل الفقى فى كتابهِ ((الأزهر وأثره فى النهضة الأدبيَّة الحديثة)) (١)[٩] ـ باختصار ـ :

السيد مصطفى لطفى المنفلوطى

المتوفى سنة ﴿ ١٣٤٢ هـ=١٩٢٤م ﴾

---

[٩] (١) ـ (جـ ٢/١٦٤ ـ ١٨١) ؛ المطبعة المُنيرية بالأزهر الشريف .

ـ نشأته وحياته:

﴿ السيد مصطفى المنفلوطى ﴾ بن ﴿ محمد المنفلوطى ﴾ ؛ وُلِدَ فى سنة ١٨٧٦م بمدينة منفلوط ؛ وإليها ينتسب ؛ وقد انحدر من أُسرةٍ عريقةٍ ؛ عُرِفَت بالوجاهة والحسب ؛ وتوارثت القضاء الشرعى ونقابة الصُّوفيَّة زُهاء مائتى عام ؛ وأما أبوه فعربىٌّ واضح النَّسب ؛ يمتد إلى الحُسَيْنِ بْنِ عَلِىٍّ ـ رَضِىَ اللهُ عَنْهُمَا ـ ؛ وأما أُمُّهُ فهى وثيقة القرابة بأُسرة ﴿ الجوربجى ﴾ التُّركيَّة الضاربة فى الشرف والمجد.

حفظ القرآن بالمكتب ؛ ثم اتجه إلى الأزهر فتلقى عُلُومه به ؛ وكان معروفاً بين أقرانه بحِدَّة الذكاء ؛ وسلامة الذوق ؛ وصفاء الفكر ؛ وقد نزع إلى طريقةٍ ارتضاها لنفسه غير الطريقة التى دَرَجَ عليها أبناء الأزهر ؛ فكان يُطالع الدُّروس على طريقةٍ يخلُص منها إلى تحرير الفكرة وتحديد الجوهر ؛ غير مُبالٍ بما يعترضه من جدلٍ ونزاعٍ لفظىٍّ ؛ وَأَكَبَّ فى صباه على كُتُب الأدب يُغَذِّى هواه ويروى فطرته ؛ فقد نشأ شغوفاً بالأدب مفطوراً على التقليب فى آثاره ؛ والتروى من روائعه ومحاسنه ؛ ودرس فيما درس طائفةً من كُتُبِ الطبيعة والحكمة والأخلاق ؛ وأقبل على الأشعار يحفظها ؛ والشوارد يتصيَّدها ؛ ونظم الشِّعر ؛ وحرَّر الرسائل ؛ وذاع صيته بين الناس وبين الأزهريين خاصة ؛ فقرَّبه الإمام المرحوم الشيخ محمد عبده ؛ ووجد فى ظلال الإمام التوجيه النافع والهدى الموفق ؛ وما لبث المنفلوطى أن اتسع له صدر الإمام ؛ فلازمه وصاحبه وتردَّد على درسه ؛ وتمشَّى إلى

منزله ؛ ودامت هذه الصلة الوثيقة عشر سنين ؛ كانت للمنفلوطيِّ غذاءً لروحه وتوجيهاً لفكره وتعبيداً لطريق حياته ؛ وأثمرت صلته بالإمام معرفته بالمرحوم سعد باشا زغلول ؛ فَهَشَّ له وقدَّر مواهبه ؛ وتفطَّن لما شَبَّ عليه من صفاء القريحة وسلاسة الأسلوب ؛ فقرَّبه ورعاه.

وقد بلغ من حُبِّ المنفلوطيِّ للإمام وتعلُّقه به أنه انتبذ مكاناً قصيًّاً إلى أهله بمنفلوط حين استأثر الله بالإمام ؛ وأظلمت الدُّنيا فى محيَّاه ؛ وابتأس حين أوحشت حياته من لقائه!! .

ثم بَدَّدَ عُزلته النائية التى بكى فيها أُستاذه وموجهه الشيخ محمد عبده ؛ فراسل ﴿المؤيد﴾ برسائله المُمتعة التى طالما أطلع الناس إليها أعناقهم واستشرفوا للقائها وتزاحموا على ورُودها.

وقد كانت ترد إليه رسائل من أقاصى البُلدان تسأله أن يُعالج موضوعاً ؛ أو يجُلِّى حادثاً ؛ أو يُعلِّق على أمرٍ ذى بال ؛ والناس لمطلعها مشوقون.

وقد تأثر المنفلوطيُّ بالشيخ محمد عبده ؛ فَطُبِعَ بطابعه ؛ ونهل من شعوره ؛ وانصرف مُنصرفه فى مُعالجة الشُّئون ؛ وتناول الإصلاح الوطنيِّ والخُلُقيِّ والاجتماعيِّ.

ويتجلَّى تأثُّره به فى الحملة التى شَنَّ غارتها على المفاسد التى دخلت على الإسلام ؛ وفى دعوته إلى الإصلاح ؛ تلك الدعوة التى اصطبغت بالصبغة التى نجدها فى كثيرٍ من كتابات الشيخ محمد عبده.

وقد نُسِبَ إليه فى أثناء طلبه العلم بالأزهر أنه هجا الخديو السابق بقصيدةٍ نشرتها إحدى الصُّحف الأُسبوعيَّة ؛ فَحُكِمَ عليه بالسَّجْن ؛ وقضى به مُدَّة عُقوبته ؛ ثم شفع له بعض المُقَرَّبين لدى الخديو ؛ فعفا عنه.

ويرى بعض الأُدباء أن القصيدة من عمل غيره ؛ وَنُسِبَت له !! .

ولَّما ولى سعد زغلول باشا نظارة المعارف ؛ عَيَّنَهُ مُحرِّراً عربيَّاً لها ؛ فأصلح من أُسلُوب الكتابة بها ؛ وأشرف على لُغة الكتبة ؛ وتعهَّدهم بالرِّعاية والإرشاد ؛ حتى إذا ما حُوِّلَ سعد إلى نظارة الحقانيَّة استصحبه معه لمثل هذا العمل ؛ فكان له فضلٌ عظيمٌ فى ترقية الكتابة وتقدُّم لُغتها وتخلُّصها من الرَّكَّة والعُجْمَة والضعف بقدر ما وسعته الجهود ؛ وبعد عامين فُصِلَ من هذا العمل!! .

ولَّما انعقد البرلمان ؛ عُيِّنَ كاتم سِرِّهِ.

وكان القدر قد أراد أن تنطفئ شُعلته ؛ فمضى إلى رَبِّهِ فى العقد الخامس من عُمُرِهِ عام ١٩٢٤م.

وكان ـ رَحِمَهُ الله ـ عالى النَّفْس عزيزاً مُتوقِّراً ؛ يجُافى صغائر الأُمُور ولا يتعلَّق إلا بجلائل الأعمال ؛ نَـزَّاعاً إلى الحُريـَّة ؛ عَيُوفاً من كل ما يُدَنِّس صفحته ؛ كريم الخُلُق ؛ طَيِّب السَّرِيرَة فى تواضُعٍ جَمٍّ وكرمٍ نَفَّاح.

وقد عاش طوُل حياته لم يُلوِّث يده بأجرٍ على ما كان يكتبه على جلالة شأنه ونباهة ذكره ما يهيئه من الرفعة وعُلوِّ المكانة لمن يحظى بقلمه مُؤيَّداً وَمُعَاضِدَاً.

وقد اجتمعت عليه عداواتٌ وَأُرِّثت أحقادٌ من طُول ما لقيه من الشُّهرة بأدبه وَبُعْدِ الصيت بقلمه ؛ وتألبت عليه الأقلام تنوشه وتنهشه حقداً وموجدةً ؛ وهو ثابتٌ كالطود ؛ موفور الحلم والأناة ؛ واسع العفو والإغضاء ؛ فكان كما قال :

إِذَا مَا سَفِيهٌ نَالَنِى مِنْهُ نَائِلٌ

مِنَ الذَّمِّ لَم يحُرِج بِمَوْقِفِهِ صَدْرِى.

أَعُودُ إِلَى نَفْسِى فَإِن كَانَ صَادِقَاً

عَتَبْتُ عَلَى نَفْسِى وَأَصْلَحْتُ مِن أَمْرِى.

وَإِلاَّ فَمَا ذَنْبِى إِلَى النَّاسِ أَن طَغَى

هَوَاهَا فَمَا تَرْضَى بِخَيْرٍ وَلا شَرِّ.

ـ أدب المنفلوطى :

لقىَ الأدب بالمنفلوطىِّ حياةً جديدةً ؛ وتهيَّأت له بقلمه جِدَّةٌ وروعة ؛ فأينع وانتعش ؛ كان رشيق القلم ؛ عذب البيان ؛ فصيح التعبيير ؛ مُشرق الدِّيباجة ؛ مُحكم الرَّصْف ؛ متين النَّسج ؛ وكان مُرهف الحِس ؛ دقيق التَفَطُّن لمواطن البلاغة ؛ طروباً للتعبير الفخم والتركيب المُحكم ؛ يحتفل بأسلوبه ؛ ويجُوِّد فى صياغته ؛ إذا هبطت عليه سجعة ؛ فذاك ؛ وإلا لم يتكلف طلبها ولم يتعمل.

وإذا جاز أن يكون الأدب العربىُّ المعاصر قبل المنفلوطىِّ دائراً على اللفظ ؛ يُغِلُّ الفكرة فلا يتوخَّاها ؛ ويُغضى عن المعنى فلا ينفذ إلى روائعه ؛ فإن المنفلوطىَّ كان

أحد أولئك الأُدباء القلائل الذين أدخلوا المعنى والقصد فى الإنشاء بعد أن ذهب منه كُلُّ معنى ؛ وَضَلَّ به الكاتبون عن كُلِّ قَصْد !!.

وقد حدَّث المستعرب ﴿ أغناطيوس ﴾ فيما قاله عن الأدب العربىِّ الحديث ورجاله ؛ فقال : ﴿ امتاز مصطفى لطفى المنفلوطىُّ ؛ وهو أصغر تلاميذ الشيخ عبده سِنًّا بالجهود المُوفَّقة لابتكار أُسلُوبٍ جديدٍ شائقٍ ؛ ويمكننا أن نقول : إنه نجح كثيراً عن جدارةٍ واستحقاق.﴾ .

وكان المنفلوطىُّ صاحب طريقةٍ فى الأدب وذا مكان ملحوظٍ فيه ؛ ولقد بَهَرَ النَّاسَ أَدَبُهُ ! ؛ وفتنهم روعته ! ؛ وجذبتهم طريقته السهلة المُشرقة المُتدفِّقة ! ؛ حتى كان محفوظ التلاميذ ؛ ومرقوب المتأدبين ؛ وكان بحيث لو لم يُذكر المنفلوطى مع ما يكتبه لَنَمَّ أسلوبه عنه وهدى إشراقه إليه.

ومن أهم ما يَسَّرَ له هذه المكانة بعد روائع أُسلوبه الذاتيَّة ؛ بروز شخصيته فيما يكتب ويصو ؛ حتى قال المرحوم سعد زغلول باشا : ﴿ إنى لأرى لك فى كتابتك شخصيَّة أتمنَّى أن أجدها كثيراً فى أقلام الكاتبين.﴾ .

وكان رفيع الأدب فى كُلِّ ما يكتب ؛ فلم يُسِف فى مقالٍ ؛ ولم يتدل فى موضوعٍ ؛ بل كان الكاتب الفريد ؛ الذى يُحافظ على أُسلوبه فى جميع حالاته وشئونه ؛ سواء فى ذلك المعانى المطروقة لِكُتَّاب العربيَّة الأُولى ؛ أو التى لم يكتبوا عنها شيئاً ولم يرسموا لها أُسلوباً ؛ ممَّا يَدُلُّ على أن السليقة العربيَّة ملكةٌ من ملكاته لا عَارِيَةٌ من عواريه.

ولم يكن مفتوناً بالصنعةِ مُتهافتاً على تجويد الأُسلوب ؛ بل كان طبعه يغلب صناعته ؛ ولم تكن الصنعة لتخلق أديباً كالمنفلوطيِّ فى نباهة شأنه وروعة أدبه ؛ ولو رَجُحَت الصنعة فى أدبه لَضَلَّ فى ثناياها الغرض وغُمِرَت الفكرة وَعَزَّ عليك أن تجد له هذه الأفكار الحيَّة وتلك الموضوعات الاجتماعيَّة التى يُتْهِمُ فيها وَيُنْجِد ؛ التى عَبَّرَ فيها عن خَلَجَات النُّفوس ؛ وخفقات القُلُوب ؛ ومسارح الفكر والشعور ؛ وَصَوَّرَ بها الآلام والأحزان صورةً يرتسم فيها الأسى.

وأول ما بهر الناس من أدبه وفتنهم من جمال أسلوبه ؛ ما نشره من ﴿ نظراته ﴾ فى صحيفة ﴿ المؤيد ﴾ سنة ؛ فقد اهتزَّت لها القُلُوب والأسماع ؛ ورأى الأُدباء والقُرَّاء فى هذا الفَنِّ الجديد ما لم يروا فى فقرات الجاحظ ؛ وسجعات البديع ؛ وما لا يرون فى غَثَاثَة الصحافة ؛ وركاكة الترجمة.

هذه ﴿ النظرات ﴾ التى كان الأُدباء يتشوَّقون إليها ؛ ويعدُّون لها أيَّام الأُسبوع يوماً بعد يوم ؛ ويترقَّبُون لرُؤيتها ما يترقبُهُ الضَّالُّ فى ظُلمة الليل البهيم من الفجر الطالع ؛ والظامىء فى المَهْمَهِ القَفْرِ من الغيث الهامع!! .

امتازت هذه المقالات بطابعها الأنيق ؛ ومُعالجتها شُئوناً مُختلفةً بأُسلوبٍ رشيقٍ ؛ جمع بين الأدب العالى وإرضاء الذوق ؛ لأنها كُتِبَت بلُغةٍ موسيقيَّةٍ صافيةٍ ؛ فكانت بمثابة الوحى يهبط على جُمهور تعوَّد قراءة الكَلَفَة والتصنُّع ؛ وقد انتشرت انتشاراً واسعاً بين قُرَّاء العربيَّة من بغداد إلى مُرَّاكِش ؛ وهذا مما يَدُلُّ على أنهم أَلِفُوا فيها شيئاً قَيِّماً ؛ كما كانت تُمثِّل الشُّعور الذى تردَّد صداه فى العالم الإسلامىِّ أبلغ تمثيل.

كان المنفلوطيُّ ـ رَحِمَهُ الله ـ رحيم الفؤاد ؛ رقيق العاطفة ؛ يهتزُّ لِكُلِّ مأساة ؛ ويبتئس لِكُلِّ كارثة ؛ وتسيل عبراته على ما تقع عليه العين من شقوةٍ أو بأساء ؛ وممَّن كتب فى البُؤس والمأساة ؛ فبلغ ما لم يبلغه أحد!! ؛ وصوَّر ما يعتلج فى الأفئدة من هُمُومٍ وأحزانٍ بقلمٍ باكٍ ؛ ويراعة داميةٍ !! .

وقال فيه عارفوه ومن صاحبوه : ﴿ إنه لم يكتب إلا عن فيض شُعُوره وَحِسِّه ؛ وإن كتاباته صُورةٌ حقيقيَّةٌ لنفسه. ﴾ .

ـ المنفلوطى الناقد :

المنفلوطيُّ إذا نقد الأحوال السياسيَّة ؛ أو الشُّئون الاجتماعيَّة ؛ أو الأدبيَّة ؛ أو تناول نقداً شخصيَّاً بينه وبين مُصَاولٍ : كان بارع النقد ؛ لَمَّاح الفكر ؛ يُعالج الموضوع فى تحليل مُسْتَوْعِبٍ ؛ وإلمامٍ شاملٍ ؛ ولا يجمح قلمه فيما ينقد ؛ أو يتجاوز العِفَّة والنَّزَاهة ؛ وتوخِّى الحق فيما يرى ؛ وقد أُثِرَ عنه كَرَمُ القلم وترفُّع الأُسلوب ونزاهة الرأى ؛ على رغم ما ارتُصِدَ له من عقارب تنفُثُ سُمُومها على الصُّحف وفى المجتمعات ؛ ولكنه كان يعتصم دائماً بقوله :

﴿إِنَّ الله وحده هو الذى يستطيع أن يُغَيِّرَ طبيعة الإنسان. ﴾ .

ومهما يكُن من شىء ؛ فالمنفلوطيُّ فى الأدب أُمَّةٌ وحده ؛ نهج فيه نهجاً رفيعاً مُبتكراً ؛ وخلَّد بهذا الفَنِّ الرائع ذكره ؛ واستحق أن تصفه صحيفة ﴿ الهلال ﴾ بأنه : ﴿ أمير النثر العصرىّ ﴾ ، ؛ وأن يقول فيه الأُستاذ أحمد الزَّيَّات : ﴿ فإذا قدَّر

اللهُ لأدب المنفلوطيِّ أن يفقد سحره وخطره فى أطوار المستقبل ؛ فإن تاريخ الأدب الحديث سيقصر عليه فصلاً من فُصوله يجعله فى النثر بمنزلة البارودىِّ فى الشعر﴾.

ـ شعره :

للمنفلوطيِّ شِعْرٌ جمع بين الجزالة والسُّهولة ؛ رصين القافية ؛ فخم التعبير ؛ وله قصائدٌ رائعةٌ!! ؛ متينة السَّبك ؛ مُحكمة النَّسج ؛ لطيفة المعنى ؛ بارعة الوصف ؛ وله فى الوجديات غُرَرٌ ؛ وفى الحكم بدائع ؛ غير أنه مُقِلٌّ ؛ لم يتجه إلى الشعر اتجاهه إلى النثر الذى ملك عليه نفسه واستأثر بقلمه ؛ ولو أن ولعه بالنثر ترفَّق به وخلى بينه وبين الشعر أحياناً أُخرى ؛ لكان من أبرع الشُّعراء

وأنبه الفُحُول.

ـ نماذج من شعره :

قال فى الوجديات ؛ وشعره فيها أشبه بشعر البدو :

لَعَمْرُكَ مَا رَاحَت بِلُبِّى صَبَابَةٌ

وَلا نَازَعَتْنِى مُهْجَتِى سَوْرَةُ الخَمْرِ.

وَلا هَاجَنِى وَجْدٌ وَلا رَسْمُ مَنْزِلٍ

عَفَاءٍ ؛ وَلَكِن هَكَذَا سُنَّةُ الشِّعْرِ.

وَمَن كَانَ ذَا نَفْسٍ كَنَفْسِى قَرِيحَةٌ

مِنَ الهَمِّ لا يَعْنَى بِوَصْلٍ وَلا هَجْرِ.

كَأَنِّى وَلَم أَسْلُخ ثَلاثِينَ حِجَّةً ؛

وَلَم يجرِ يَوْمًا خَاطِرُ الشَّيبِ فِى شِعْرِى.

أَخُو مِائَةٍ يَمْشِى الهُوَيْنَى كَأَنَّهُ

إِذَا مَا مَشَى فِى السَّهْلِ فِى جَبَلٍ وَعْرِ.

إِذَا شَابَ قَلْبُ المَرْءِ شَابَ رَجَاؤُهُ

وَشَابَ هَوَاهُ وَهُوَ فِى ضَحْوَةِ العُمْرِ.

حَييتُ بِآمَالِى فَلَمَّا كَذَبْنَنِى...

؛ قَنِعْتُ فَلَم أَحْفَل بِقُلٍّ وَلا كُثْرِ.

وَأَصْبَحْتُ لا أَبْغِى سِوَى الجَرْعَةِ الَّتِى

أَذُوقُ إِذَا مَا ذُقْتُهَا رَاحَةَ القَبْرِ.)) .أهـ .

....

وقالَ الدُّكتُور شوقى ضيف ((ت ١٤٢٦هـ)) فى كتابهِ ((الأدب العربىُّ المُعاصر فى مصر)) (١)[١٠] - باختصار -:

[١٠] (١) - (ص: ٢٢٧ - ٢٣٤) ؛ دار المعارف ؛ الطبعة : الثالثة عشرة.

((... ؛ فأخذ يختلف إلى دُروس محمد عبده ؛ كما أخذ يختلف إلى كُتُب القُدماء دواوينهم ؛ فهو يقرأ فى ابن المقفع والجاحظ وبديع الزمان الهمذانىِّ ؛ كما يقرأ فى النُّقَّاد : الآمدىَّ ؛ والباقلانى ؛ وعياض وغيرهم ؛ ممَّن تناولوا وصف الكلام الجيِّد ؛ وممَّن وقفوا عند إعجاز القُرآن وجمال أساليبه.

وله كتابٌ يُسمَّى ﴿ مختارات المنفلوطى ﴾ ؛ فيه مُنتخبات لمن سميناهم ؛ ولكبار الشُّعراء من أمثال أبى تمَّام ؛ وابن الرُّومىِّ ؛ وأبى العلاء.

وكان له ذوقٌ جيِّدٌ ؛ يعرف به كيف ينتخب لنفسه أروع ما فى الكُتُب ودواوين الشِّعر العباسيَّة من قطع وقصائد أدبيَّة رائعة ؛ فعكف على ذلك كله ؛ كما عكف على كتابات أُستاذه محمد عبده ؛ يَعُبُّ منها وَيَنْهَلُ كما يَعُبُّ وَيَنْهَلُ من آثار مُعاصريه المترجمة والمُؤلَّفة ؛ وبذلك هيَّأ نفسه ليكون صحفيًّا

بارعاً ؛ ولسنا نقصد صحافة الأخبار ؛ وإنما نقصد صحافة المقال.

... ؛ وهذه هى حياته ؛ وهى ليست حياة هنيئة ؛ فقد كان يشقى فى سبيل الحُصُول على ما يقيم به أَوْدَه ؛ وقد نظم وهو لا يزال طالباً فى الأزهر قصيدة فى هجاء عبَّاس ؛ فَحُكِمَ عليه بالسَّجْنِ مُدَّةً عرف فيها مرارة السُّجُون ؛ وكان لذلك ولعدم توفيقه فى حياته أثره فى إحساسه بالبؤس والبؤساء وآلامهم.

- ﴿ النَّظَرَات ﴾ :

تقع النظرات فى ثلاثة مجلدات ؛ وهى مجموعة كبيرة من المقالات الاجتماعيَّة نشرها المنفلوطى فى أوائل القرن بصحيفة ﴿ المؤيد ﴾ التى كان يحُرِّرها الشيخ علي يُوسُف.

وتمتاز هذه المقالات بميزتين أساسيتين :

١ ـ ميزة تتناول الشكل.

٢ ـ وميزة تتناول الموضوع.

١ ـ أما من حيث الشكل : فإنها كُتبت فى أُسلُوبٍ نقىٍّ خالصٍ ؛ ليس فيه شىءٌ من العاميَّة ولا من أساليب السجع الملتوية إلا ما يأتى عفواً ؛ فقد قرأ المنفلوطىُّ واستوعب ما قرأه ؛ ولم يكتفِ بأن يعيش على تقليد كاتبٍ قديمٍ بعينه مثل ابن المُقَفَّع أو الجاحظ أو بديع الزمان ؛ بل حاول أن يكون له أسلوبه الخاص به ؛ حقّاً تلمح فى كتابته آثار القدماء ؛ فقد تحسُّ أحياناً أنه يحتذى نثر الجاحظ أو نثر بديع الزمان ؛ ولكن ما يحتذيه أو ما ينقله يدخل فى

كيان تعبيره ؛ بحيث يصبح كأنه يُعاد خلقه من جديد.

وذلك ما نُسميه بشخصية الكاتب ؛ فكل ما يكتبه يُطْبَعُ بطابعه ؛ وكأنه عُملة خاصة به ؛ وهى ليست عُملة مزيفة ؛ وإنما هى عُملة صحيحة تنبع من فكره وقلبه ؛ وتعطيه سماته الخاصة به ؛ فتقرؤه ؛ ولا تلبث أن تُقبل عليه ؛ لأنك تجد عنده ما يُحدث لذَّة فنيَّة فى نفسك ؛ إذ يُقدم لك أثراً أدبيّاً حقيقيّاً يمس قلبك ويثير عاطفتك.

وهذا من حيث الشَّكل.

٢ ـ أما من حيث الموضوع: فقد اختار الحياة الاجتماعيَّة لبيئته؛ واتخذها يُنبوعاً لأفكاره؛ وتحوَّل فيها بتأثير أُستاذه محمد عبده إلى مُصلحٍ اجتماعيٍّ؛ فهو يُردِّد آراء المُصلحين من حوله؛ ويُؤدِّيها بلُغته التى تأسر السامع وتَخْلُبُ لُبَّه.

وارجع إلى﴿ النَّظَرَات ﴾؛ فستراه يتحدث فى عُيُوب المجتمع وما يشعر به من مساوئ الأخلاق؛ مثل: القِمَار؛ والرَّقص؛ والخمر؛ وسُقُوط الفتيان والفتيات؛ فيتساءل: أين الشَّرف؟!!؛ وأين الفضيلة؟!!؛ ويحس أن بعض ذلك جاءنا من المدنيَّة الغربيَّة؛ فيصب عليها جَامَ غضبه؛ ويدور بعينه فى بيئته؛ فيرى كثرة المُصابين بعاهة الفقر والبُؤس؛ فيبكى ويستغيث!!؛ ويكتب فى الغِنَى والفقر؛ ويدعو إلى الإحسان والبِرِّ بالضعيف العاجز؛ ويصوِّر أكواخ الفُقراء وما هم فيه من مَهانةٍ وَذِلَّة؛ ويدعو دعوةً حارَّةً إلى التمسُّك بالفضائل من مثل الوفاء؛ ويُنادى: الرحمة!! الرحمة!!.

...؛ وواضحٌ أن المنفلوطىَّ لا يُعْنَى بموضوعه فحسب؛ بل هو يحاول أن يُؤديه أداءً فنيًّا يتخيَّر فيه اللفظ؛ ويُحاول أن يؤثر به فى سمع القارئ ووجدانه؛ وهو فى ذلك يتأثر بطريقة القُدماء الذين كانوا يعنون بالجَرْسِ المُوسيقىِّ للكلام؛ وانتهت بهم هذه العناية إلى السَّجْع.

والمنفلوطىُّ لا يُسجع؛ ولكنه يُعْنَى عنايةً شديدةً بموسيقى ألفاظه؛ وكأن الناس لا يقرءونه بأبصارهم فى الصُّحُف؛ بل هم يقرءونه أو يسمعونه بآذانهم على طريقة القُدُماء قبل أن تتحوَّل القراءة من السمع إلى البصر.

وهو يُبدئ ويُعيد فى معانيه على طريقة الخُطَباء ؛ بل هو يستعير منهم النداء بمثل : أيُّها الإنسان !! ؛ وترى عنده مثلهم التكرار فى الكلمات ؛ مثل : ارحم ؛ ارحم.

كما ترى عنده كثرة الفواصل بين العبارات ؛ إذ كثيراً ما يقطع المعانى ويستأنفها ؛ وقد يكون ذلك بسبب انفعالاته العاطفيَّة ؛ ونظنُّ ظنَّاً أنه يتأثر أسلوب الخطابة فى عصره عند مصطفى كامل وأضرابه.

وقد وقف وقفات طويلة عند الإسلام والمسلمين ؛ فبكى ما هم فيه حينئذٍ من تأخُّرٍ وانحطاطٍ وانغماسٍ فى الشَّهوات والملذَّات ؛ ورماهم بأنهم عطَّلوا الأحكام وعصوا أوامر الدِّين ونواهيه ؛ وكأنه تحوَّل إلى خطيبٍ فى مسجدٍ.

... ؛ ومن الواجب أن نقيس الأديب بمقاييس عصره ؛ وأن نحكم عليه بظروف بيئته ؛ وألا ننتقل به إلى عصرٍ تالٍ نستمد منه مقاييسنا عليه ؛ والمنفلوطىُّ من هذه الناحية أدَّى لمصر فى أوائل القرن وإلى الحرب العالميَّة الأُولى آثاراً أدبيَّةً بارعةً ؛ وكانت هذه الآثار المثل الأعلى للشباب فى إنشائهم وفى صَقْلِ أساليبهم. وفى ﴿ النَّظَرَات ﴾ جولات فى النقد الأدبىِّ ... ؛ وفيها مراثٍ لطائفةٍ من الأُدباء ؛ ورُبما كان خيرها مرثيته لابنه ؛ وفيها يقول مُتأثراً لما سقاه من الدواءِ والموت يقتطع الحياة من بين جنبيه قطعة قطعة :

﴿ لقد كان خيراً لى ولك يا بُنَىَّ أن أَكِلَ إلى الله أمرك فى شفائك ومرضك ؛ وحياتك وموتك ؛ وألا يكون آخر عهدك بى فى يوم وداعك لهذه الدُّنيا تلك الآلام التى كنت أُجَشِّمُكَ إيَّاها ؛ فلقد أصبحت أعتقد أننى كُنتُ عوناً للقضاء عليك ؛ وأن كأس المنيَّة التى كان يحملها لك القدر فى يده لم تكن أَمَرَّ مذاقاً فى فمك من قارورة الدواء التى كُنتُ أحملها فى يدى.﴾ .

والمقالة جميعها على هذا النَّحْوِ المُؤثِّرِ الذى كان المنفلوطىُّ يُتقنه ؛ ودائماً تجد عنده هذا اللفظ الجَزِل الرَّصِين ؛ الذى كان يحرص فيه على أن تُسِيغَهُ الأُذُنُ بما يحمل من هذه الموسيقى العذبة التى تُؤثِّر فى النفس ؛ وتُحدث فى الذِّهن تلك اللذَّة الفنيَّة التى نطلبها فى الآثار الأدبيَّة.)) .أهـ .

....

وقالَ الدُّكتُور أحمد هيكل فى كتابهِ ((تطور الأدب الحديث فى مصر)) (١)[11] ـ باختصار ـ :

((ثانيًا : النثر

١ـ المقالةُ وظهورُ أول طريقةٍ فنيَّةٍ للنثر الحديث :

[11] (١) ـ (ص : ١٦٥ ـ ١٦٨) ؛ دار المعارف ؛ الطبعة : السادسة : ١٩٩٤م .

لقد أثمرت تلك الجهود التى بذلها محمد عبده وأنصاره منذ الفترة السابقة ؛ حتى تبلور الاتجاه الذى راده فى طُرقٍ فنيَّةٍ للمقالة ؛ تُعتبر الطريقة النثريَّة الأولى - من الناحية الزمنيَّة - فى الأدب الحديث ؛ وقد كان مصطفى لطفى المنفلوطى ؛ وهو العَلَم البارز فى تلك الطريقة ؛ التى يُمكن أن تحمل اسمه ؛ فيُقال لها : ﴿ طريقة المنفلوطى ﴾.

وطريقة المنفلوطى لها سمات أُسلوبيَّة واضحة ؛ أهمها : البُعد عن التكلُّف ؛ والنأى عن التقليد ؛ والقصد إلى الصدق ؛ والاهتمام بحُسْنِ الصياغة ؛ وجمال الإيقاع ؛ ورعاية الجانب العاطفىِّ ؛ ثم الميل إلى السُّهولة والترسُّل ؛ وترك التعقيد والمُحسِّنات ؛ فيما عدا بعض السجع المطبوع ؛ الذى يأتى بين الحين والحين للإسهام فى مُوسيقى الصياغة.

وقد كان المثل الأعلى لتلك الطريقة ؛ ذلك النثر المرسل الجيِّد الذى خلَّفته عصور الازدهار العربيَّة ؛ لكن لم تكن كتابات المنفلوطىِّ مع ذلك محاكاة لتلك النماذج التى يُمثِّلها نثر تلك العصور القديمة ؛ وإنما كانت كتابات - برغم محافظتها - فيها كثير من الإبداع والأصالة ؛ وعليها طابع الكاتب ؛ وفيها ملامح شخصيته ؛ والطريقة التى أوضح معالمها المنفلوطىُّ : طريقةٌ مُحافظةٌ بيانيَّةٌ ؛ أشبه بطريقة شوقى فى الشِّعْر ؛ وقد كان المنفلوطىُّ قِمَّة من كتبوا بها منذ رادها محمد عبده فى الفترة السابقة ؛ كما كان شوقى قِمَّة من نظموا بالأُسلوب المُحافظ البيانىِّ ؛ منذ اتجه إليه البارودىُّ فى الفترة السابقة أيضاً ؛ كذلك كانت تلك الطريقة النثريَّة تُسهم فى النِّضَال بِكُلِّ ميادينه : السياسيَّة ؛ والاجتماعيَّة ؛ والإصلاحيَّة ؛ تماماً كما كان الشعر المحافظ يفعل.

وأهم ما يُمثِّل تلك الطريقة: مقالات المنفلوطى؛ التى كان ينشرها فى المؤيد؛ والتى جمعها بعد ذلك فى ثلاثة مجلدات باسم ﴿ النَّظَرَات ﴾؛ وهى مقالات فى الأدب والأخلاق والاجتماع؛ تتسم بهذه الخصائص الأُسلوبيَّة التى أُشير إليها من قبل؛ والتى من أهمِّها: رعاية جمال الأُسلُوب دون اعتمادٍ على المحسنات؛ باستثناء القليل من السجع المطبوع؛ ثم الاهتمام بتحريك العاطفة وهزِّها بمختلف الوسائل.

وقد سيطرت تلك الطريقة؛ وغلبت نزعتها على الكتابة خلال تلك الفترة وبعدها بسنوات؛ حتى لقد طُبِعَت ﴿ النَّظَرَات ﴾ إلى الآن ست عشرة مرَّة؛ نظراً لأُسلوبها الذى يجذب القُرَّاء؛ وخاصة الشادين فى الأدب؛ والناشئة فى صناعة القلم؛ فبقيت حيَّةً مقروءةً؛ على حين اختفت مُعظم الكتابات التى كانت تُهاجم صاحبها؛ وذلك لأنها كانت أكثر تمثيلاً لرُوح العصر.

... ؛ وبرغم ذلك وغيره مما أُخِذَ على المنفلوطىِّ وأُسلُوبه؛ قد كانت المقالات التى خلَّفها هذا الكاتب أول نماذج فنيَّةٍ للمقالة؛ يُمكن أن تُقرأ وتُستعاد؛ فتُمتع وتُعجب؛ ويمكن لهذا أن تُعتبر - بحَقٍّ - قطعاً من الأدب؛ لا مجُرَّد كتابات فى الأدب أو الأخلاق أو الاجتماع ككتابات كثيرين غيره.)) .أهـ .

....

وَقَالَ السَّيِّد مُرسى أبو ذِكرى فى كتابهِ ((المقال وتطوره فى الأدب المعاصر)) [١٢](١) :

((ـ أولاً : مصطفى لطفى المنفلوطى ﴿ ١٨٧٦ـ١٩٢٤ م﴾ :

رائدٌ من رُوَّاد النهضة الحديثة ؛ وصاحب رسالة وفكر ؛ يحمل أدبه سمات المجتمع ؛ وتتوفَّر فيه خلال البيئة وصفات صاحبه ؛ وهذا لا يتوفَّر لدى الكثير من أترابه وَلِدَاتِهِ ؛ علت منزلته وارتقت مكانته بين أُدباء عصره ؛ لكثرة ما كتب قلمه ؛ وَدَبَّجَ يَرَاعُهُ ؛ وفاض به خاطره ؛ فترسَّم الناشئة خُطاه ؛ وساروا على هُدَاه ؛ ونسجوا على منواله.

كان المنفلوطىُّ كَلِفَاً بالقراءة ؛ يجد سَلْوَةً فى الكتاب ؛ ممَّا وَثَّقَ المحبَّة بينه وبين الثقافة ؛ لذا فقد ترك أعمالاً أدبيَّةً كبيرة ؛ تُعْرِبُ عن موهبةٍ أصيلة ؛ وتشهد له بالفطنة والخُلُود ؛ أشهرها﴿ النَّظَرَات ﴾ ؛ التى جاءت حصيلة كتاباته فى صحيفة ﴿ المؤيد ﴾ ؛ وكان لها من الأثر ما كان ؛ بفضل حُسْنِ العرض ؛ وسلامة التراكيب ؛ وإيحاء الجُمَل ؛ وجمال التعبير ؛ وجلال التصوير.

ـ أُسلُوب المنفلوطىِّ :

المنفلوطىُّ من أشهر كُتَّاب المقال مُنذ راد الكتابة الشيخ محمد عبده ؛ نالت

---

[١٢] (١) ـ (ص : ١٩٠ ـ ١٩١) ؛ دار المعارف ؛ الطبعة : ١٩٨١ـ١٩٨٢ م .

مقالاته رضا القُرَّاء وتقدير الجمهور ؛ لتصويرها ما يُلائم العصر ؛ مع إشراق الديباجة ؛ وسلامة الأسلوب.

وصف أحمد حسن الزَّيَّات أُسلوب المنفلوطي وديباجته ؛ فقال : ﴿ أشرق أسلوب المنفلوطيِّ على وجه المؤيد إشراق البشاشة ؛ وسطع فى أندية الأدب سُطُوع العبير ؛ ورَنَّ فى أسماع الأُدباء رنين القلم ؛ ورأى القُرَّاء والأُدباء فى هذا الفَنِّ الجديد ما لم يروا فى فقرات الجاحظ وسبحات البديع ؛ وما لا يرون فى غثاثة الصحافة وركاكة الترجمة.

وَعُرِفَ المنفلوطيُّ بميله إلى المُبالغة فى إيراد الصفات المُؤكِّدة التى تُكسب الكلام قوَّةً وتأثيراً ؛ والاهتمام بجمال العبارة ؛ والعناية بالصياغة.

وأهم ما يُميِّز أسلوبه ما يلى :

١ ـ إيثار الجُمل القصيرة الموجيَّة التى تمتاز بالسلامة ؛ وتخلو من كل ما يشين التعبير ويصم الأسلوب.

٢ ـ الاهتمام بحُسْنِ الصياغة ؛ وجمال الإيقاع ؛ والاعتماد على الألفاظ العربيَّة ؛ والعبارات الفصيحة ؛ والأساليب الصحيحة.

٣ ـ البُعد عن التكلُّف والتقليد ؛ والقصد إلى الصدق والأصالة ؛ والجمع بين الجِدَّة والطرافة ؛ والتفوق على الأساليب التى عاصرها.

٤ ـ يتسم بالرِّقَّة والدِّقَّة ؛ والرَّوعة والقُوَّة ؛ ويميل إلى السُّهولة والترسُّل ؛ مع

الخلو مما يعيب التراكيب والصياغة ؛ بطريقةٍ بيانيَّةٍ أخَّاذة.

٥ ـ رعاية جمال الأُسلُوب دُون الاعتماد على المحسنات ؛ باستثناء السجع المطبوع للإسهام فى مُوسيقى الصياغة ؛ والعناية بتحرُّك العاطفة وهزِّها بمختلف الأساليب.

... ؛ الأسلوب المنفلوطىُّ يتميَّز بأنه ذاتىٌّ مستقلٌ ؛ أنشأه بقُوَّة طبعه ؛ وسلامة فطرته ؛ وَحُسْنِ ذوقه على أحسن مثال.

وإذا كان الأدب الفرنسىُّ يعتبر ﴿ ميشيل دى مونتين ﴾ رائد المقال الأدبىِّ الحديث ؛ والأدب الإنجليزىُّ يفخر بـ ﴿ فرانسيس بيكون ﴾ فى هذا المجال ؛ فإن المنفلوطىَّ رائد المقال الأدبىِّ فى العصر الحديث.)) .أهـ .

*- الكَأْسُ الأُولَى

كان لى صديقٌ أُحِبُّهُ وأُحبُّ منه سلامة قلبه وصفاء سريرته وصدقه ووفاءه فى حالى بُعده وقُربه ؛ وغضبه وحلمه ؛ وسُخطه ورضاه ؛ ففرَّقَ الدَّهرُ بينى وبينه ؛ فراق حياةٍ لا فراق ممات ، ؛ فأنا اليوم أبكيه حيَّاً أكثر مما كنت أبكيه لو كان ميِّتاً !! ؛ بل أنا لا أبكى إلا حياته !! ؛ ولا أتمنَّى إلا مماته !! ؛ فهل سمعت بأعجب من هذه الخَلَّة الغريبة فى طبائع النُّفوس؟!! .

عَلِقَت حِبَالِى بحباله حقبةً من الزَّمان ؛ عرفته فيها ؛ وعرفنى ؛ ثم سلك سبيلاً غير سبيله ؛ فأنكرته !! ؛ وأنكرنى حتَّى ما أمُرُّ بباله !! ؛ لأن الكأس التى عَلِقَ بها لم تدع فى قلبه فراغاً يسع غيرها وغير العالقين بها ؛ وربَّما كان يدفعنى عن مخيِّلته دفعاً إذا تراءيت فيها ؛ لأنَّهُ إذا ذكرنى ذكر معى تلك الكلمات المُرَّة التى كنت ألقاه بها فى فتحة حياته الجديدة ؛ وما كان له وهو يهيم فى فضاء سعادته التى يتخيَّلُها أن يُكدِّر على نفسه بمثل هذه الذِّكرى صفاء هذا الخيال !! ؛ ثم لم أعد أعلم من أمره بعد ذلك شيئاً جديداً ؛ لأن حياة المُدمنين حياة متشابهة متماثلة لا فرق بين صُبحها ومسائها وأمسها وغدها ؛ ذهابٌ إلى الحانات ؛ فشرابٌ ؛ فَخِمَار[١٣] (١) ؛ فنومٌ ؛ فذهابٌ !! ؛ كالحلقة المُفرغة ؛ لا يُدرى أين طرفاها !! ؛ والمنظر المُتكرِّرُ لا يلفت النَّظر ولا يشغل الذِّهن ؛ حتَّى أن بعض من ينام على دَورة الرَّحى يستيقظ عند سُكونها ؛ وكان أَحْرَى أن يوقظه دورانها!! .

---

[١٣] (١) ـ الخِمَار : صُدَاعُ الشَّرَاب .

لذلك لم يشغل هذا المسكين مَحِلاً من قلبى إلا بعد أن سكنت دورته ؛ وهدأت حركته ؛ فلم أعد أراه مُعربداً فى الحانات ؛ ولا مُطَّرَحَاً فى مَدَارِجِ الطُّرق ؛ ولا مُعتقلاً فى أيدي الشُّرُط!! ؛ هُنالك سألت عنه ؛ فقيلَ لى إنه مريض ؛ فلم أعجب من شىءٍ كنتُ أَعُدُّ له الأيَّام والأعوام كما يَعُدُّ الفلكىُّ الساعات والدقائق لكُسُوف الشَّمس ؛ واصطدام الكواكب .

دخلت عليه أَعُودُهُ ؛ فلم أجد عنده طبيباً ولا عائداً !! ؛ لأنه فقير ؛ والأطباء يُظهرون الرَّحمة بالفُقراء ؛ ويُبطنون حُبَّ الصفراء والبيضاء ؛ والأصدقاء يخافون عدوى المرض وعدوى الفقر ؛ فلا يعودون المريض ؛ ولا يزُورُون الفقير!! .

دخلت منزله ؛ فلم أجد المنزل ولا صاحبه ؛ لأنِّى لم أجد فيه ذلك الرُّوح العالى الذى كان يُرفرف بأجنحته فى غُرَفِهِ وقاعاته ؛ ولم أر دُخان المِطبخ ؛ ولم أسمع ضوضاء الخدم ؛ ولا بُكاء الأطفال ؛ ولا رنين الأجراس ؛ فكأننى دخلت القبر أزُور الميِّت لا المنزل أعود الحىَّ!! .

ثم تقدَّمت نحو سرير المريض ؛ فكشف كلَّته البالية عن خيالٍ لم يبق منه إلا إِهَابٌ لاصقٌ بعظمٍ ناحلٍ !! ؛ فقُلتُ : أيُّها الخيال الشاخص ببصره إلى السماء !! ؛ قد كان لى فى إِهَابِكَ هذا صديقٌ محبُوب !! ؛ فهل لك أن تدُلَّنى عليه؟!! .

فبعد لأيٍ ما ؛ حَرَّكَ شفتيه ؛ وقال : هل أسمع صوت فُلان؟!! ؛ قُلتُ : نعم ؛ مِمَّ تشكو؟ ؛ فزفر زفرةً كادت تتساقط لها أضلاعه ؛ وأجاب : أشكو الكأس الأولى !! ؛ قُلتُ : أىَّ كأسٍ تُريد ؟!! ؛ قال : أُريد الكأس التى أدوعتها مالى وعقلى وصحتى وشرفى !! ؛ وها أنا ذا اليوم أودعها حياتى!! .

قُلْتُ: قد كنتُ نصحتك ووعظتك وأنذرتك بهذا المصير الذى صرتَ إليه اليوم؛ فما أجديت عليك شيئاً !!.

قال: ما كنت تعلم حين نصحتنى من غوائل هذا العيش النَّكِد أكثر مما كنت أعلم؛ ولكنَّنى كنتُ شربتُ الكأس الأولى؛ فخرج الأمر من يدى!!؛ كل كأس شربتها جنتها علىَّ الكأسُ الأولى؛ أما هىَ فلم يجنها علىَّ غيرُ ضعفى وقُصور عقلى عن إدراك خداع الأصدقاء والخُلطاء!!؛ لم تكن شهوة الشَّراب مُركَّبة فى الإنسان كبقيَّة الشَّهوات؛ فيُعذر فى الانقياد إليها كما يُعذر فى الانقياد إلى غيرها من الشَّهوات الغريزيَّة؛ فلا سُلطان لها عليه إلاَّ بعد أن يتناول الكأس الأولى؛ فلمَ يتناولها؟!!؛ يتناولها لأنَّ الخونة الكاذبين من خِلاَّنه وعُشرائه خدعوه عن نفسه فى أمرها؛ ليستكملوا بانضمامه إليهم لذَّتهم التى لا تتم إلا بِقِرَاعِ الكُؤوس وضوضاء الاجتماع؛ ولو علمت كيف خدعوه وزيَّنوا له الخُروج عن طبعه ومألوفه؛ وأىَّ ذريعة تذرَّعوا بها إلى ذلك؛ لتحقَّقت أنه أبلهٌ إلى النهاية من البَلاهَة؛ وضعيفٌ إلى الغاية التى ليس وراءها غاية!!؛ أنا ذلك الأبله !!؛ وذلك الضعيف !!؛ فاسمع كيف خدعنى الأصدقاء وزيَّنُوا لى ما يُزيِّنه الشَّيطانُ للإنسان.

قالوا إنَّ حياتك حياة هُمُومٍ وأكدار؛ ولا دواء لهذا الأدواء إلا الشَّراب؛ وقالوا إن الشَّراب يزيد رونق الجسم ويبعث نشاطه؛ وأنه يَفْتِق

اللسان ؛ ويُعلِّم الإنسان البيان ؛ وأنه يُشَجِّع الجبان ؛ ويبعث فى القلب الجرأة والإقدام؟!! .

هذا ما سمعته ؛ فصدَّقته ؛ وخُدِعْتُ به !! ؛ صدَّقت أن فى الشَّراب أربع مزايا : السعادة ؛ والصحَّة ؛ والفصاحة ؛ والإقدام !! ؛ فوجدت فيه أربع رزايا : الفقر ؛ والمرض ؛ والسُّقوط ؛ والجُنُون !! .

غرَّهم من الصحَّة ذلك اللون الأحمر الذى يتركه الشراب وراءه فى الأعضاءِ وهو يتغلغل فى الأحشاء ؛ ومن الفصاحة الهذَرُ والهذيان وهُجْرَ القول وبذاءة اللسان ؛ ومن الإقدام العَرْبَدَة التى لا تسكن إلا فى غرفة السَّجْن ؛ ومن السعادة اللحظات القليلة التى يُغشى فيها على عقل الشارب فيعمى عن رُؤية ما يحُيط به من الأشياء كما هى فتنعكس فى نظره الحقائق حتى يتخيَّل الشَّتم طُرفة والصفع تحيَّة فيُضحكه من ذلك ما يُضحك الأطفال والمرورين!! .

أىُّ سُرورٍ لمن يعيش فى منزلٍ لا يزور الابتسام ثغراً من ثُغور ساكنيه؟!!

أىُّ سُرورٍ لمن يُودِّعهُ أهله كل يوم فى صباحه بالحسرات ؛ ويستقبلونه فى مسائه بالزَّفرات؟!! ؛ أىُّ سعادةٍ لمن يمشى دائماً فى طريقه مُتلوياً مُتمعِّجَاً يتسرَّب فى المُنعطفات والأزقَّة ؛ ويعوذ بألواذ الجُدُر والأسوار فراراً من نظرات الجزَّار ؛ وتهكُّمات العطَّار ؛ وصرخات الخمَّار؟!!.

ولقد كنتُ أرى هؤلاء الأشقياء فى فاتحة حياتى التَّعِسَة ؛ فكان يمر بخاطرى ما يمر بخاطر أمثالى أنهم قتلى الإدمان لا قتلى الشَّراب ؛ وكنتُ أُقَدِّرُ لنفسي القصد فيه إن قُدِّر لى في أمره شىء حتى لا أبلغ مبلغهم ولا أنزل منزلتهم ؛ فلما شربت أخطأ العَدُّ وضاع الحساب ؛ وفسد التدبير ؛ واختلف التقدير ؛ وغلبت على أمرى كما يُغلبُ على أمره كُلُّ مخدوعٍ بمثل ما خُدِعْتُ به !! ؛ ولولا الكأس الأولى ما هلكت ؛ ولا شكوت الذى شكوت ! ؛ ولولاها ما عافنى الأصدقاء ؛ ولا زهد فىَّ الأقرباء ؛ فكُن أنت وحدك صديق السَّرَّاء والضَّرَّاء!!.

فعاهدته على ذلك ؛ ثُمَّ تركته فى حالةٍ !! :

تُصِمُّ السَّمِيعَ ؛ وَتُعْمِى البَصِير

وَيُسْأَلُ مِن مِثْلِهَا العَافِيَهْ !! .

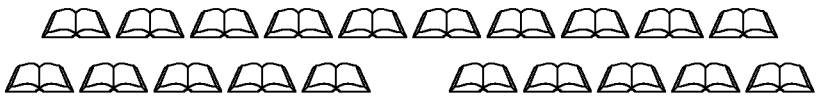

*-مُنَاجَاةُ القَمَر

أيُّها الكوكبُ المُطِلُّ من علياء سمائه !! ؛ أأنت عروسٌ حسناءٌ تُشرف من نافذة قصرها ؛ وهذه النُّجوم المبعثرة حواليك قلائد من جُمان؟!! ؛ أم ملكٌ عظيمٌ جالسٌ فوق عرشه ؛ وهذه النَّيِّرات حورٌ وولدان؟!! ؛ أم فصٌّ من ماسٍ يتلألأ ؛ وهذا الأُفق المُحيط بك خاتمٌ صِيغَ من الأنوار ؟!! ؛ أم مرآةٌ صافيةٌ ؛ وهذه الهَالَةُ الدائرة بك إطار ؟!! ؛ أم عينٌ ثَرَّةٌ من الماء ؛ وهذه الأشعة جداولٌ تتدفَّق ؛ أو تَنُّورُ مَسْجُور ؛ وهذه الكواكب شَرَرٌ يتألَّق؟!!.

أيُّها القمرُ المُنير!! :

إنَّك أنرت الأرض وهادها ونجادها ؛ وسهلها ووعرها ؛ وعامرها وغامرها ؛ فهل لك أن تُشرق فى نفسى فتُنير ظُلمتها ؛ وتُبدِّد ما أظلَّها من سُحب الهُموم والأحزان؟!!.

أيُّها القمرُ المُنير!! :

إنَّ بينى وبينك شَبهاً واتصالاً !! ؛ أنتَ وحيدٌ فى سمائك ؛ وأنا وحيدٌ فى الأرض ؛ كلانا يقطع شوطه صامتاً هادئاً مُنكسراً حزيناً ؛ لا يلوى على أحد ؛ ولا يلوى عليه أحد ؛ وكلانا يبرز لصاحبه فى ظُلمة الليل فيُسايره ويُناجيه ؛ يرانى الرَّائى فيحسبُنى سعيداً ؛ لأنه يغتر بابتسامةٍ فى ثغرى ؛ وطلاقةٍ فى وجهى ؛ ولو كُشِفَ له عن نفسى ؛ ورأى ما تنطوى عليه من الهُمُومِ والأحزان ؛ لبكى لى بُكاء الحزين إثر الحزين !! .

ويراك الرَّائى ؛ فيحسبُك مُغتبطاً مسروراً ؛ لأنه يغتر بجمال وجهك ؛ ولمعان جبينك ؛ وصفاء أديمك ؛ ولو كُشِفَ له عن عالمك لرآه عالماً خراباً ؛ وكوناً يباباً ؛ لا تَهُب فيه ريح ؛ ولا يتحرَّك شجر ؛ ولا ينطق إنسان ؛ ولا يبغم حيوان !!.

أيُّها القمرُ المُنير!! :

كان لى حبيبٌ يملأ نفسى نوراً ؛ وقلبى لذَّةً وسُروراً ؛ وطالما كنتُ أُناجيه ويُناجينى بين سمعك وبصرك ؛ وقد فرَّق الدهر بينى وبينه ؛ فهل لك أن تحدثنى عنه وتكشف لى عن مكان وجوده ؟!! ؛ فربما كان ينظر إليك نظرى !! ويناجيك مُناجاتى !! ؛ ويرجوك رجائى !! ؛ وهائنذا كأنى أرى صُورته فى مرآتك !! ؛ وكأنى أراه يبكى من أجلى كما أبكى من أجله ؛ فأزداد شوقاً إليه ؛ وحُزناً عليه !! .

أيُّها القمرُ المُنير!! :

ما لى أراك تنحدر قليلاً قليلاً إلى الغُرُوبِ كأنَّك تُريد أن تفارقنى ؟!! ؛ وما لى أرى نورك الساطع قد أخذ فى الانقباض شيئاً فشيئاً ؟!! ؛ وما هذا السيف المسلول الذى يلمع من جانب الأُفق على رأسك ؟!! .

قف قليلاً لا تغب عنى !! ؛ لا تفارقنى !! ؛ لا تتركنى وحيداً !! ؛ فإنى لا أعرف غيرك !! ؛ ولا آنس بمخلوقٍ سواك !! .

آه !! ؛ لقد طلع الفجر ؛ ففارقنى مُؤنسى !! ؛ وارتحل عنِّى صديقى !! ؛ فمتى تنقضى وحشة النَّهار ؛ ويُقبل إلىَّ أُنس الظلام ؟!! .

*-أَيْنَ الفَضِيلَة ؟!!

قرأتُ فى بعض الرِّوايات أن فتىً قضى حقبةً من دهره مُولعاً بحُبِّ فتاةٍ خياليَّة لم يرها مرَّةً واحدةً فى حياته !! ؛ وإنما تخيل فى ذهنه صورةً أَلِفَهَا من شتَّى المحاسن ومتفرقاتها فى صُور البشر !! ؛ فلما استقرَّت فى مُخَيَّلته تجسَّمت فى عينيه ؛ فرآها ؛ فأحبَّها حُبَّاً ملك عليه قلبَه ؛ وحال بينه وبين نفسه ؛ وذهب به كُلَّ مذهبٍ ؛ فأنشأ يُفتِّش عنها بين سمع الأرض وبصرها أعواماً طوالاً حتى وجدها!!.

لا أستطيع أن أُكَذِّب هذه القصة ؛ لأنِّى أنا ذلك الفتى بعينه ؛ لا فرق بينى وبينه ؛ إلاَّ أنه يُسمَّى ضالته الفتاة ؛ وأُسمِّيها الفضيلة ؛ وأنه فتَّش عنها فوجدها ؛ وفتَّشت عنها حتى عييت بأمرها ؛ فما وجدت إليها سبيلاً !! .

فتَّشت عن الفضيلة فى حوانيت التُّجَّار ؛ فرأيتُ التاجر لِصَّاً فى أثواب بائع !! ؛ وجدته يبيعنى بدينارين ما ثمنه دينار واحد ؛ فعلمت أنه سارق للدينار الثانى ؛ ولو وُكِلَ إلىَّ أمر القضاء ؛ ما هان علىَّ أن أُعاقب لُصوص الدراهم وأُغفل لصوص الدنانير ؛ ما دام كُلٌّ منهما يسلبنى مالى ويتغفَّلُنى عنه !!.

أنا لا أُنكر على التاجر ربحه ؛ ولكن أُنكر عليه أن يتناول منه أكثر من الجزاء الذى يستحقه على جهد نفسه فى جلب السلعة وبذل راحته فى صونها

وإحرازها ؛ وكُلُّ ما أعرف من الفرق بين حلال المال وحرامه ؛ أن الأول بدل الجد والعمل ؛ والثانى بدل الغش والكذب .

فتَّشت عن الفضيلة فى مجالس القضاء ؛ فرأيت أن أعدل القُضاة من يحرص الحرص كُلَّهُ على أن لا يهفو فى تطبيق القانون الذى بين يديه هفوةً يُحاسبه عليها من منحه هذا الكُرسىّ الذى يجلس عليه ؛ مخافة أن يسلبه إيَّاه ؛ أما إنصاف المظلوم ؛ والضرب على يد الظالم ؛ وإراحة الحقوق على أهلها ؛ وإنزال العُقوبات منازلها من الذُّنوب ؛ فهى عنده ذُيول وأذناب لا يأبه لها ولا يحتفل بشأنها ؛ إلا إذا أشرق عليها الكوكبُ بِسُعده ؛ فمشت مع القانون فى طريقٍ واحدٍ مُصادفةً واتفاقاً ؛ فإذا اختلف طريقهما بين يديه حكم بغير ما يعتقد ؛ ونطق بغير ما يعلم ؛ ودان البرىء وبرَّأ الجانى !! ؛ فإذا عتب عليه فى ذلك عاتب ؛ كانت معذرته إليه حُكم القانون عليه ؛ كأنما يُريد أن يجعل العقل أسير القانون ؛ وما القانون إلا حسنة من حسنات العقل وصنيعة من صنائعه !! .

فتَّشت عن الفضيلة فى قُصور الأغنياء ؛ فرأيت الغَنِىَّ إما شحيحاً أو متلافاً ؛ أما الأول فلو كان جاراً لبيت فاطمة - رَضِىَ اللهُ عَنْهَا - وسمع فى جوف الليل أنينها وأنين ولديها من الجُوع ما مَدَّ أُصبعيه إلى أُذنيه ثقة منه أن قلبه المُتحجِّر لا تنفذه أشعة الرَّحمة ؛ ولا تمر بين طِيَّاته نسمات الإحسان !! ؛

وأما الثانى ؛ فمالُه بين ثغر الحسناء !! ؛ وثغر الصهباء !! .

فعلى يد أىِّ رَجُلٍ من هذين الرَّجُلين تدخل الفضيلة قُصور الأغنياء؟! .

فتَّشتُ عنها فى مجالس السياسة ؛ فرأيتُ أن المُعاهدة والاتفاق والقاعدة والشرط ألفاظ مترادفة معناها الكذب !! ؛ ورأيت أن المَلِك فى كُرسىٍّ مملكته كالحُوذىِّ فى كُرسىِّ عربته !! ؛ لا فرق بينهما إلا أن هذا ينقض ((تعريفته)) ؛ وذاك ينقض مُعاهدته !! .

ورأيتُ أن أَعْدَى عدو للإنسان : الإنسان ؛ وأن كل أُمَّة قد أعدت فى مخازنها ومستودعاتها ؛ وفى بُطون قلاعها ؛ وعلى ظُهور سُفنها ؛ وفوق مُتُون طياراتها : ما شاء الله أن تُعِدَّهُ لأُختها من عُدَدِ الموت وأفانين العذاب ؛ حتى إذا وقع بينهما الخُلْفُ على حَدٍّ من الحُدود أو لقبٍ من الألقاب ؛ لبس الإنسان فروة السبع ؛ واتخذ له من تلك العُدَدِ الوحشيَّة أظفاراً كأظفاره وأنياباً كأنيابه !! ؛ فشحذ الأولى وكشَّر عن الأُخرى ؛ ثم هجم على ولد أبيه وَأُمِّهِ هجمةً لا يعود منها إلا به أو بنفسه التى بينَ جنبيه !! ؛ وإنك لو سألت الجُنديين المُتقاتلين ما خطبكما ؟!! ؛ وما شأنكما ؟!! ؛ وعلام تقتتلان ؟!! ؛ وما هذه المَوْجَدَة التى تحملانها بين جنبيكما ؟!! ؛ ومتى ابتدأت الخُصومة بينكما وعهدى بكما أنكما ما تعارفتما إلا فى الساعة التى اقتتلتما فيها ؟!! ؛ لعرفت أنهما مخدوعان عن نفسيهما ؛ وأنهما ما خرجا من ديارهما إلاَّ ليضعا دُرَّةً فى

تاج الملك ؛ أو ((نيشاناً)) على صدر القائد !! .

فتَّشت عنها بين رجال الدِّين ورجال الصُّحُف ؛ فرأيتُ أنهما يُتجران بالعُقُول فى أسواق الجهل !! ؛ ورأيت كُلاًّ منهما قد ثغر له فى كل رأسٍ من رُؤوس البشر ثغرةً ينحدر منها إلى العُقُول ؛ فيُفسدها ؛ والقُلُوب ؛ فيقتلها ؛ ليتوسَّل بذلك إلى الذخائر ؛ فيسرقها ؛ والخزائن فيسلبها ؛ هذا باسم السياسة وذاك باسم الدِّين !! .

فتَّشتُ عنها فى كُلِّ مكانٍ أعلمُ أنه تُربتها وموطنها ؛ فلم أعثر بها !! ؛ فليت شِعْرِى !! ؛ هل أجدها فى الحانات والمواخير ؟!! ؛ أو فى مغارات اللصوص !! ؛ أو بين جُدران السُّجُون ؟!!.

سيقول كثيرٌ من النَّاس : قد غلا الكاتبُ فى حُكمه ؛ وجاوز الحَدَّ فى تقديره ؛ فالفضيلة لا تزال تجد فى صُدور كثيرٍ من الناس صدراً رحباً ؛ ومورداً عذباً ؟!! .

وإنِّى قائلٌ لهم قبل أن يقولوا كلمتهم :

إنِّى لا أُنكر وجود الفضيلة ؛ ولكنى أجهل مكانها ؛ فقد عقد رياءُ الناس أمام عينى سحابةً سوداء ؛ أظلم لها بصرى ؛ حتَّى ما أجد فى صفحة السماء نجماً لامعاً ؛ ولا كوكباً طالعاً !! .

كُلُّ النَّاس يدَّعى الفضيلة وينتحلها ؛ وكلهم يلبس لباسها ويرتدى رداءها ؛ وَيُعِدُّ لها عُدَّتها ؛ من منظرٍ يستهوى الأذكياء والأغبياء ؛ ومظهرٍ يخدع أسوأ الناس بالناس ظنًّا ؛ فمن لى بالوصول اليها فى هذا الظلام الحالك والليل الأليل ؟!! .

إن كان صحيحاً ما يتحدَّث به الناس من سعادة الحياة وطيبها وغبطتها ونعيمها ؛ فسعادتى فيها أن أعثُر فى طريقى فى يومٍ من أيَّام حياتى بصديقٍ يَصدُقنى الودَّ وأصدُقه ؛ فيُقنعه منِّى ودِّى وإخلاصى دُون أن يتحاوز ذلك إلى ما وراءه من مآرب وأغراض !! .

أن يكون شريف النَّفْس ؛ فلا يطمع فى غير مطمع ؛ شريف القلب ؛ فلا يحمل حقداً ولا يحفظ وتْرَاً ؛ ولا يحُدِّث نفسه فى خلوته بغير ما يحُدِّث به النَّاس فى محضره ؛ شريف اللسان ؛ فلا يكذب ولا يَنُمُّ ولا يُلِمُّ بِعِرْضٍ ؛ ولا ينطق بِهُجْرٍ ؛ شريف الحُب ؛ فلا يحُب غير الفضيلة ؛ ولا يُبغض غير الرَّذيلة !! .

هذه هى السعادة التى أتمنَّاها ؛ ولكنِّى لا أراها !! .

إنِّى لأرى الرِّياض الغَنَّاء تهفو أشجارها ؛ وَتَرِنُّ أطيارها ؛ وأرى جداول الماء تنساب بين أنوارها وأزهارها انسياب الأفاعى الرَّقطاء ؛ فى الرِّمال البيضاء ؛ وأرى أنامل النَّسائم تعبث بمنثُورات الأوراق ؛ عبث الهوى بألباب العُشَّاق ؛ وأسمع ما بين صفير البلابل ؛ وخرير الجداول ؛ نغمات شجيَّة تبلغ من نفس الإنسان ؛ ما لا تبلغ أوتار العيدان ؛ فلا يسُرُّنى منها منظر ولا يُطربنى مسمع ؛ لأنى لا أرى بين هذه المشاهد التى أراها ضآلتى التى أنشدها !! .

لقد سَمُجَ وجه الرَّذيلة فى عينى ؛ وَثَقُلَ حديثها فى مسمعى ؛ حتى أصبحت أتمنَّى أن أعيش بلا قلب ؛ فلا أشعر بخير الحياة وشرِّها ؛ وسُرورها وحُزنها !! .

ولولا بُنَيَّات صغار يفقدن بفقدى طِيبَ العيش ونعيمه ؛ لفررتُ من هذا العالم النَّاطق ؛ إلى ذلك العالم الصامت ؛ فأجد من الأُنس به والسُّكون إليه

ما وجده الذي يقول :

عَوَى الذِّئْبُ ؛ فَاسْتَأْنَسْتُ بِالذِّئْبِ إِذ عَوَى

وَصَوَّتَ إِنْسَانٌ !! ... ؛ فَكِدْتُ أَطِيرُ !! .

*-أَيُّهَا المَحْزُون !!

إن كنت تعلم أنك قد أخذت على الدهر عهداً أن يكون لك كما تريد فى جميع شؤونك وأطوارك وألا يُعطيك ولا يمنعك إلا كما تحب وتشتهى ؛ فجديرٌ بك أن تُطلق لنفسك فى سبيل الحُزن عنانها كُلَّما فاتك مأرب أو استعصى عليك مطلب !! .

وإن كنت تعلم أخلاق الأيَّام فى أخذها وردِّها وعطائها ومنعها ؛ وأنها لا تنام عن منحة تمنحها حتى تكر عليها راجعة فتستردها ؛ وأن هذه سُنَّتُها وتلك خَلَّتُها فى جميع أبناء آدم ؛ سواءٌ فى ذلك ساكن القصر وساكن الكُوخ ؛ ومن يطأ بنعله هام الجوزاء ؛ ومن ينام على بساط الغبراء .

فخفِّض من حُزنك !! ؛ وكفكف من دمعك !! ؛ فما أنت بأول غرض أصابه سهم الزَّمان ؛ وما مُصابك بالبدعة الطريفة فى جريدة المصائب والأحزان !! .

أنت حزينٌ ؛ لأن نجماً زاهراً من الأمل كان يتراءى لك فى سماء حياتك فيملأ عينيك نوراً ؛ وقلبك سُروراً ؛ وما هى إلا كَرَّة الطَّرْف أن افتقدته ؛ فما وجدته !! ؛ ولو أنك أجملت فى أملك ؛ لما غلوت فى حُزنك ؛ ولو كنت أنعمت نظرك فيما تراءى لك لرأيت برقاً خاطفاً ؛ ما تظنُّه نجماً زاهراً ؛ وهُنا لك لا يُبهرك طلوعه ؛ فلا يفجعك أُفوله .

أسعد النَّاس فى هذه الحياة ؛ من إذا وافته النِّعمة تنكَّر لها ؛ ونظر إليها

نظرة المُستريب بها ؛ وترقَّب فى كُلِّ ساعة زوالها وفناءها ؛ فإن بقيت فى يده فذاك ؛ وإلا فقد أَعَدَّ لفراقها عُدَّتَهُ من قبل .

لولا السُّرور فى ساعة الميلاد ؛ ما كان البُكاء فى ساعة الموت ؛ ولولا الوثوق بدوام الغِنَى ؛ ما كان الجزع من الفقر ؛ ولولا فرحة التلاق ؛ ما كانت تَرْحَة الفراق.

*-إِلَى الدَّيْر !!

مسكينٌ ذلك الفتى الذى رأيته صباح أمس منزوياً فى رُكْنٍ من أركان أحد الأندية ؛ وقد ظلَّلت جبينه الوضَّاح سحابة سوداء من الحُزن !! ؛ وانحنى على نفسه كأنما شعر بأن قلبه يتمشَّى فى صدره ؛ وأنه يحاول الفرار منه ؛ فهو يعطف عليه ليُمسكه بين جوانحه !! ؛ ولو أنه أراد بنفسه خيراً لتركه يمضى فى سبيله حيث شاء ؛ فبُعداً لقلبٍ لا يسكن عن الخفقان ؛ ولا يفيق من الهُمُومِ والأحزان !! .

سألته ما بالك أيُّها الصديق ؟!! ؛ قال : لا شىء ؛ قُلْتُ : أن تكتُمنى ما فى نفسك ؛ ولو عَرَفْتَنِى ما كتمتنى !! ؛ قال : ما جهلتك مُذ عرفتك ؛ ولكننى أعطيت اللهَ عهداً مُذ خُلِقْت ألا أشكو إلاَّ إلى من أرجو عنده البُرْء ؛ وما أنا براجٍ عندك ولا عند أحد من الناس بُرْءاً من دائى ؛ قُلْتُ : هبنى طبيباً !! ؛ والطبيب وإن كان لا يشفى إلا نادراً فإنه يُسَكِّن غالباً ويُعزِّى دائماً ؛ فأنا إن عجزت عن مُعالجتك ؛ فلا أعجز عن تعزيتك ؛ على أن الماء إذا اشتد غليانه احتاج إلى التنفيس عنه ؛ وإلا طار بالقِدْر ؛ طيران الهَمِّ بالصدر !! .

فأصغى إلى كلماتى واستخذى لها ؛ وأنشأ يحدثنى حديثاً تُمازجه العَبَرَات ؛ وتقطعه الزَّفرات ؛ ويقول :

زوَّجنى أبى مُنْذُ سنين من زوجةٍ جاهلةٍ غبيَّةٍ !! ؛ لا تفهم معنى الزواج إلا أن فيه قضاء لُبَانَتِهَا ؛ وترفيه عيشها ؛ وإرضاء نفسها ؛ وهو يحسب أنه قد أحسن إلىَّ بسليلة المجد وربيبة النِّعمة ومالكة الدُّور وساكنة القُصُور ؛ أجل ؛ إنها ذات مال وفير ؛ وخير كثير ؛ ولكن ذهب عليه ـ غَفَرَ اللهُ لَهُ ـ أنِّى ما كُنتُ أُريد أن

أكون تاجراً أكسب مالاً !! ؛ بل زوجاً أجد بجانبي نَفْساً يُؤنسنى محضرها ويُوحشنى مغيبها ؛ ومرآة صافية نقيَّة أتراءى فيها ؛ فتُرينى نفسى كما هى ؛ لا تكذبنى فى خيرٍ ولا شَر ؛ إنى أُريد أن أجد فى الزَّوجة التى أتزوَّجها صديقاً فى المرتبة العُليا من مراتب الصداقة ؛ ومن لى به فى امرأةٍ تجهل حتَّى إرضاع طفلها ولبس ثوبها ؟!! ؛ على أن ثروتها ما كانت تقوم بحاجتها !! ؛

فقد كان لها خادمة لملابسها ؛ وأُخرى لشعرها ؛ وأُخرى لسريرها ؛ وطابخة ؛ وغاسلة ؛ ومُرضع ؛ وقهرمانة ؛ وخيَّاطة خاصة بها ؛ وطبيبٌ لا يُغِبُّ زيارتها[14] (١) ؛ ومُؤنسات لا يُفارقن مجلسها ؛ ولم تكُن ممَّن أنعم الله عليهنَّ بنعمة الجمال ؛ فكانت تُنفق ما يزيد على نصف دخلها فى الحُسْنِ المجلوب ؛ والجمال المكذوب ؛ وليتها كانت تُغفل أمرى وتتركنى وشأنى ؛ فأستطيع أن أتناساها ؛ وَأَعُدَّ نفسي من العُزَّاب تخيُّلاً وتقديراً ؛ بل كانت تُقيم من نفسها ؛ ومن هذا الجَحْفَلِ اللَّجِب المُحيط بها حُرَّاسَاً كَحُرَّاسِ الليل ؛ وجواسيس كجواسيس الإنكليز ؛ يُراقبن مواقع نظرى ومواطئ قدمى ؛ لتعلم أين مذهب قلبى ووجهة نفسى ؛ فتغار علىَّ من الكوكب إذا رأتني أنظر إليه ؛ وتكاد تُمزِّق الثوب الذى أُحِبُّهُ وأتعشَّق لبسه ؛ وتحسبها آهة الوجد أو دمعة الحُبِّ إذا رأتنى أتأوه من آلام عِشْرَتِهَا ؛ أو أبكى لِعِظَمِ مُصيبتى فيها ؛ وما هى بغيرة الحُبِّ ؛ ولكنها الأَثَرَة ـ قَبَّحَهَا اللهُ ؛ وَقَبَّحَ كُلَّ مَا تَأْتِى بِهِ !! ـ ؛ وأكثر ما كان يغيظنى منها ؛ أنها ما كانت تفتح علىَّ باب

---

[14] (١) ـ أَغَبَّ فُلانٌ القَوْمَ : إِذَا جَاءَهُم حِينَاً بَعْدَ حِين .

الحساب على اللفتات والخُطوات إلا فى السَّاعة التى أُريد أن أخلو فيها بنفسى أو بكتابى ؛ فما أكاد أنتفع بواحدٍ منهما ؛ فإن سكتُّ أغضبها سُكوتى ؛ وإن نطقت أغضبها حديثى ؛ وإن قرأتُ فى كتابى ظنَّت أن المؤلفين ما ألَّفوا الكُتُبَ إلا نكايةً بالنساءِ لكى يتخذها الرِّجال مُعتصماً يعتصمون به من مُحادثتهنَّ ومُسامرتهن ؛ فكان الكتاب فى نظرها أعدى أعدائها وأبغض الأشياء إليها !! .

وجُملة القول ؛ إنها ما كانت تستطيع أن تتصوَّر إلاَّ أن الله خلقها لتكون طفلة لاهية لاعبة فى جميع أطوار حياتها ؛ وأنه ما خلقنى إلاَّ لأكون زينة مجلسها وَدُمْيَة قصرها ؛ وأداة لهوها ولعبها ؛ فلا أقرأ ولا أكتب ؛ ولا أُعطى نفسى حقَّاً من حُقوقها ؛ ولا أُبَكِّر لمُزاولة أعمالى ؛ ولا أسأم أحاديثها الطويلة المُمِلَّة التى لا تشتمل إلا على نقد الأزياء ؛ واغتياب النساء ؛ فإن وافيت رغبتها فذاك ؛ وإلا استحالت فى لحظةٍ واحدةٍ من إنسانٍ ناطقٍ إلى وحشٍ مفترس ؛ فلا تعرف كلمة مُؤلمة لا تُسمعنيها ؛ ولا تترك وسيلة من وسائل التنغيص لا تهجم بها علىَّ ؛ فكُنت بين ألم رضاها وعذاب غضبها فى شقاءٍ حَبَّبَ إلىَّ الموت وَبَغَّضَ إلىَّ وجه الحياة !! .

وبعد ؛ فقد رأيت أن العيش معها مستحيل ؛ فلم أرى بُدَّاً من فراقها ؛ ففارقتها وما على وجه الأرض شىءٌ أبغضَ إلىَّ من المجد ولا أَسْمَجَ فى نظرى من المال !! .

قُلْتُ : ولكننى لا أزال أراك حزيناً بعد ذلك ؟!! ؛ قال : نعم !! ؛ لأننى نفضت يدى من الزوجة الجاهلة ؛ ورُحت أُفتِّش عن الزوجة المتعلمة ؛ وَقُلْتُ : ليكوننَّ لى من الشَّأن فى الزواج الثانى ما لم يكن لى فى الزواج الأول بعد ما صار إلىَّ الخِيَار ؛ وبعد تلك التجربة وذاك الاختبار .

فهيَّأَ لى الحظُّ جاراً مُلاصقاً ؛ ما زلت أسمع مُذ حَلَّ فى جوارى أن فى بيته فتاة جميلة ؛ ما زال يعنَى بأمرها حتى خَرَّجها وأدَّبها ؛ فأصبحت نابغة مدرستها وسيِّدة أَتـْرَابِهَا علماً وفضلاً وتهذيباً وأدباً ؛ فما قنعت بالخبر حتى خالطت أباها ؛ ثم خالطتها ؛ فإذا المرأة الجديدة من جميع وجوهها !! ؛ فوقعت فى نفسى أحسن موقعٍ ؛ وَحَلَّت مكاناً لم يكن حُلَّ من قبل !! .

خطبتُ الفتاة إلى أبيها ؛ فما لبث أن أخطبنى ؛ فامتلأ قلبى فرحاً وسُروراً ! وَخُيِّلَ إلىَّ أننى أرى فى سماء الآمال نجماً لامعاً يدنو مِنِّى قليلاً قليلاً !! ؛ وسجَّلتُ أن الدهر أنشأ يُكَفِّر بحسناته ما أسلف من سيئاته ؛ فإنى لكذلك ؛ وقد أعددت للبناء بها عُدَّتَهُ ؛ ولم يبق بينى وبينه إلا يومٌ واحدٌ ؛ وإذا برسول البريد قد جاءنى بهذا الكتاب !! ؛ فهاكه فاقرأه !! ؛ فإن فيه بقيَّة قِصَّتِى وَسِرُّ نكبتى !! .

ثم ألقى إلىَّ بِغُلافٍ مُعَنْوَنٍ باسمه ، فوجدت فيه بطاقة تشتمل على رسم فتىً حسن الصورة والهندام يخُاصِرُ فتاة جميلة ؛ وقد ألقت برأسها على كتفه ؛ ووجدت مع البطاقة كتاباً ؛ فقرأت فيه ما يأتى :

((علمت أنك خطبت فُلانة إلى أبيها ؛ وأنك عما قليل ستكون زوجها ؛ ولعمرىى لقد كذبك نظرك !! ؛ وخدعك من قال لك إنك ستكون سعيداً بها !! ؛ فإنها لن تكون لك بعد أن صارت لغيرك ؛ ولا يخلص حُبُّكَ إلى قلبها بعد أن امتلأ بحُبِّ عاشقها ؛ فاعدل عن رأيك فيها ؛ وانفض يدك منها ؛ وإن أردت أن تعرف من هو ذلك العاشق ؛ وتتحقَّق صدق خبرى وإخلاصى إليك فى نصيحتى ؛ فانظر إلى الصورة المُرسلة مع هذا الكتاب .)) .

التوقيع

فما نظرت الصورة ؛ وقرأت الكتاب ؛ حتى عرفت كُلَّ شيءٍ ؛ فأحسست بِرِعدة تتمشَّى فى أعضائى !! ؛ وشعُرت بسحابةٍ سوداء قد غشت على نظرى لهول ما سمعت !! ؛ وسوء ما رأيت !! .

إلاَّ أننى تماسكت قليلاً ؛ فأعدت إليه كتابه ؛ وَقُلتُ له ؛ وهو كل ما استطعت أن أقول : ماذا يعنيك من أمر فتاةٍ فاجرةٍ عاهرٍ بعد ما انكشف لك سِرُّهَا ؛ وظهرت لك حقيقتها ؟!! ؛ ولو كنت فى مكانك لعدلت عن الحُزن على فوتها إلى الاستغفار من حُبِّهَا ؛ وحَمْدِ الله على ما ألهم من صواب الرأى فيها ؛ أما إن سألتنى عن رأيى فى زواجك بعد الآن ؛ فإنى لا أرى لك إلا أن تترهَّب وتتعزَّب ؛ وأن تقول ما قاله ((هملت)) وقد زَهِدَ فى الزواج بعد ما عرف حقيقة المرأة ؛ وأدرك خبيئة نفسها :

((إِلَى الدَّيْر !! إِلَى الدَّيْر !! .)) .

*-الإنْصَاف

إذا كان لك صديق تُحِبُّهُ وتُواليه ؛ ثُمَّ هَجَمْتَ من أخلاقه على ما لم يَحْلُ فى نظرك ؛ ولم يتفق مع ما علمت من حاله ؛ وما اطَّرَدَ عندك من أعماله ؛ أو كان لك عَدُوٌّ تَـذُمُّ طباعه ؛ وَتَنْقِمُ منه شُئونه ؛ ثم بَرِقَت لك من جانب أخلاقه بارقة خير ؛ فتحدَّثت بما قام فى نفسك من مُؤاخذة صديقك على الهفوة التى ذممتها ؛ وحمد عَدُوِّك على الخَلَّةِ التى حمدتها : عَدَّكَ النَّاس مُتلوِّناً أو مُخادعاً أو ذا وجهين تمدح اليوم من تَذُمُّ بالأمس !! ؛ وتذم فى ساعةٍ من تمدح فى أُخرى !! ؛ وقالوا : إنك تُظهر ما لا تُضمر ؛ وتُخفى غير الذى تُبدى !! ؛ ولو أنصفوك لأُعْجِبُوا بك وبصدقك ؛ ولأكبروا سلامة قلبك من هوى النَّفس وضلالها ؛ ولسمُّوا ما بدا لهم منك اعتدالاً لا نفاقاً ، ؛ وإنصافاً لا خداعاً ؛ لأنك لم تَغْلُ فى حُبِّ صديقك غُلُوَّ من يعميه الهوى عن رُؤية عيوبه ؛ ولم تتمسَّك من صداقته بالسبب الضعيف فَعَنِيتَ بتعهُّد أخلاقه ؛ وتفقُّد خِلاله ؛ لإصلاح ما فسد من الأُولى ؛ واعوجَّ من الأُخرى .

إن صديقك الذى يبسُم لك فى حالى رضاك وغضبك ؛ وحلمك وجهلك ؛ وصوابك وسقطك ؛ ليس ممن يُغتبط بمودَّته ؛ أو يُوثق بصداقته ؛ لأنه لا يصلح أن يكون مرآتك التى تتراءى فيها ؛ فتكشف لك عن نفسك ؛ وتصدُقك

عن زَيْنِك وَشَيْنِك ؛ وحُلوك ومُرِّك ؛ وهو إما جاهلٌ مُتهوِّرٌ فى مُيوله وأهوائه فلا يرى غير ما تُريد أن ترى نفسه لا ما يجب أن تراه ؛ وإما

مُنافقٌ مخُادعٌ قد علم أن هواك فى الصمت عن عُيوبك وتجرير الذُّيول عليها ؛ فجاراك فيما تريد ؛ ليبلغ منك ما يريد .

فها أنت ترى أن الناس يعكسون القضايا ويقلبون الحقائق ؛ فيُسمُّون الصادق كاذباً ؛ والكاذب صادقاً ؛ ولكن الناس لا يعلمون !! .

*-المَدَنِيَّةُ الغَرْبِيَّة

سأُودع فى هذه النظرة الخيال والشِّعر ؛ وداعٍ من يعلم أن الأمر أعظم شأناً وأجلُّ خطراً من أن يعبث فيه العابث بأمثال هذه الطرائف ؛ التى هى بالهزل أشبه منها بالجِدِّ ؛ والتى إنما يلهو بها الكاتب فى مواطن فراغه ولعبه ؛ لا فى مواطن جِدِّهِ وعمله .

إنَّ فى أيدينا معشر الكُتَّاب من نُفُوسِ هذه الأُمَّة وديعة يجب علينا تعهُّدها ؛ والاحتفاظ بها ؛ وَالحَدَبِ عليها ؛ حتَّى نُؤدِّيها إلى أخلافنا من بعدنا كما أدَّاها إلينا أسلافنا من قبلنا سالمة غير مأروض[1] ولا مُتآكلة ؛ فإن فعلنا فذاك ؛ أو لا فرحمة الله على الصدق والوفاء ؛ وسلامٌ على الكُتَّاب الأُمناء !! .

الأُمَّة المصريَّة ؛ أُمَّةٌ مُسلمةٌ شرقيَّةٌ ؛ فيجب أن يبقى لها دينها وشرقيَّتها ؛ ما جرى نيلها فى أرضها ؛ وذهبت أهرامها فى سمائها ؛ حتى تُبَدَّلَ الأرض غير الأرض والسموات .

إنَّ خُطوةً واحدةً يخطوها المصرىُّ إلى الغرب ؛ تُدنى إليه أجله ؛ وتُدنيه من مهوىً سحيقٍ يُقبر فيه قبراً لا حياة له من بعده إلى يوم يُبعثون !!.

لا يستطيع المصرىُّ وهو ذلك الضعيف المُستسلم أن يكون من المدنيَّة الغربيَّة إن داناها إلا كالغِربال من دقيق الخُبز ؛ يمسك خشاره ؛ ويُفلت لُبَابَه ؛ أو الرَّاووق[1] (١) من الخمر ؛ يحتفظ بعقاره ؛ ويستهين برحيقه ؛ فخيرٌ له أن يتجنَّبها ؛ وأن يفر منها فرار السليم من الأجرب .

---

[1] (١) ـ الرَّاووق : المصفاة .

يُريد المصرىُّ أن يُقلِّد الغربىَّ فى نشاطه وخفَّته ؛ فلا ينشط إلا فى غدوته وروحته وقعدته وقومته ؛ فإذا جَدَّ الجِدُّ وأراد نفسه على أن يعمل عملاً من الأعمال المحتاجة إلى قليل من الصبر والجَلَد ؛ دَبَّ الملل إلى نفسه دبيب الصهباء فى الأعضاء ؛ والكرى بين أهداب الجُفون !! .

يريد أن يقلده فى رفاهيته ونعمته ؛ فلا يفهم منهما إلا أن الأولى التأنُّث فى الحركات ؛ والثانية الاختلاف إلى الحانات !!.

يريد أن يقلده فى الوطنيَّة ؛ فلا يأخذ منها إلا نعيقها ونعيبها وضجيجها وصفيرها ؛ فإذا قيل له هذه المقدمات فأين النتائج ؟!! ؛ أسلم رجليه إلى الرياح الأربع ؛ واستنَّ فى فراره استنان المُهر الأرن [١٦](٢) ؛ فإذا سمع صفير الصافر مات وَجَلاً ؛ وإذا رأى غير شىءٍ ظنَّهُ رَجُلاً !! .

يريد أن يقلده فى السياحة ؛ فلا يزال يترقب فصل الصيف ترقُّب الأرض الميِّتة فصل الربيع ؛ حتى إذا حان حينه طار إلى مُدن أُوربا طيران حمام الزاجل لا يبصر شيئاً مما حوله ؛ ولا يلوى على شىءٍ مما وراءه ؛ حتى يقع على مجامع اللهو ومكامن الفجور وملاعب القمار ؛ وهناك يبذل من عقله وماله ما يعود من بعده فقير الرأس والجيب ؛ لا يملك من الأول ما يقوده إلى طريق السفينة التى تحمله فى أوبته ؛ ولا من الثانى أكثر من الجُعَالَة التى يجتعلها منه صاحب الجريدة ليكتب له

---

[١٦](٢) ـ الأرن : النَّشِط .

بين حوادث صحيفته حادثة عودته ؛ مُوشَّاة بجُمل الإجلال والاحترام ؛ مُطرَّزة بوشائع الإكرام والإعظام !! .

يريد أن يقلده فى العلم ؛ فلا يعرف منه إلا كلمات يُرددها بين شدقيه ترديداً لا يلجأ فيه إلى رُكنٍ من العلم وثيق ؛ ولا يعتصم به من جهلٍ شائن !!

يريد أن يقلده فى الإحسان والبِرِّ ؛ فيترك جيرانه وجاراته يطوون حنايا الضلوع على أمعاء تلتهب فيها نار الجوع التهاباً ؛ حتَّى إذا سمع دعوة إلى اكتتاب فى فاجعة نزلت فى القُطب الشمالىِّ أو كارثة ألَّت بسد يأجوج ومأجوج ؛ سجَّل اسمه فى فاتحة الكتاب ؛ ورصد هبته فى مُستهل جريدة الحساب !! .

يريد أن يقلده فى تعليم المرأة وتربيتها ؛ فيقُنعه من علمها مقالة تكتبها فى جريدة أو خُطبة تخطبها فى محَفْلٍ ؛ ومن تربيتها التفنُّن فى الأزياء والمقدرة على سحر النفوس واستلاب الألباب !! .

هذا شأنه فى الفضائل الغربيَّة ؛ يأخذها صورة مشوهَّة وقضيَّة معكوسة لا يعرف لها مغزىً ولا ينتحى بها مقصداً ولا يذهب فيها إلى مذهب !! ؛ فيكون مثله فى ذلك كمثل جهلة المتدينين الذين يقلدون السلف الصالح فى تطهير الثياب ؛ وقلوبهم ملأى بالأقذار والأكدار ؛ ويجارونهم فى آداء صور العبادات ؛ وإن كانوا لا ينتهون عن فحشاء ولا عن منكر !! ؛ أو كمثل الذين يتشبهون بِعُمَر فى ترقيع الثياب ؛ وإن كانوا أحرص على الدنيا من صيارفة الإسرائيليين !! .

أما شأنه فى رذائلها ؛ فإنه أقدر الناس على أخذها كما هى ؛ فينتحر كما ينتحر الغربىُّ ؛ ويُلحد كما يلحد ؛ ويستهتر فى الفسوق استهتاره ؛ ويترسم فى الفجور آثاره !! .

إِنَّ فى المصريين عُيُوباً جَمَّة فى أخلاقهم وطباعهم ومذاهبهم وعاداتهم ؛ فإن كان لابُدَّ لنا من الدعوة إلى إصلاحها ؛ فلندُع إلى ذلك باسم المدنيَّة الشرقيَّة ؛ لا باسم المدنيَّة الغربيَّة .

إن دعوناهم إلى الحضارة ؛ فلنضرب لهم مثلاً بحضارة بغداد وقرطبة وثيبة وفينيقيا ؛ لا بباريس وروما وسويسرة ونيويورك !! ؛ وإن دعوناهم إلى مكرمة ؛ فلنتلُ عليهم آيات الكُتب المنزلة وأقوال أنبياء الشرق وحكمائه ؛ لا آيات رُسو وباكون ونيوتن وسبنسر !! ؛ وإن دعوناهم إلى حربٍ ؛ ففى تاريخ خالد بن الوليد وسعد بن أبى وقاص وموسى بن نصير وصلاح الدين ما يغنينا عن تاريخ نابليون وولنجتون وواشنطون ونلسن وبلوخر !! ؛ وفى وقائع القادسيَّة وعموريَّة وأفريقيَّة والحروب الصليبيَّة ما يغنينا عن وقائع
واترلو وترافلغار وأوسترليتز والسبعين !! .

إِنَّ عاراً على التاريخ المصرىِّ أن يعرف المسلم الشرقىُّ فى مصر من تاريخ بونابرت ما لا يعرف من تاريخ عمرو بن العاص !! ؛ ويحفظ من تاريخ الجمهورية الفرنسيَّة ما لا يحفظ من تاريخ الرِّسالة المُحمديَّة !! ؛ ومن مبادئ ديكارت وأبحاث درون ما لا يحفظ من حكم الغزالىِّ وأبحاث ابن رشد !! ؛

ويروى من الشعر لشكسبير وهوجو ما لا يروى للمتنبى والمعرى !! .

لا مانع من أن يُعَرِّب لنا المُعَرِّبُون المفيد النافع من مؤلفات علماء الغرب والجيِّد الممتع من أدب كُتَّابهم وشعرائهم ؛ على أن ننظر إليه نظر الباحث المنتقد لا الضعيف المستسلم ؛ فلا نأخذ كل قضيَّة علميَّة قضيَّة مُسَلَّمَة ؛ ولا نطرب لِكُلِّ معنىً أدبىٍّ طرباً متدفعاً ؛ ولا مانع من أن ينقل إلينا الناقلون شيئاً من عادات الغربيين ومصطلحاتهم فى مدنيتهم ؛ على أن ننظر إليه نظر من يريد التبسُّط فى العلم بشئون العالم والتوسُّع فى التجربة والاختبار ؛ لا على أن نتقلدها وننتحلها ونتخذها قاعدتنا فى استحسان ما نستحسن من شئوننا

واستهجان ما نستهجن من عاداتنا !! .

وبعد ؛ فليعلم كُتَّاب هذه الأُمَّة وقادتها : أنه ليس فى عادات الغربيين وأخلاقهم الشخصيَّة الخاصة بهم ما نحسدهم عليه كثيراً ؛ فلا يخدعوا أمتهم عن نفسها ولا يفسدوا عليها دينها وشرقيتها ؛ ولا يُزيِّنوا لها هذه المدنية الغربية تزييناً يرزؤها فى استقلالها النفسىِّ ؛ بعد ما رزأتها السياسة فى

استقلالها الشخصىِّ !! .

*- غُرْفَةُ الأَحْزَان

كان لى صديقٌ أُحِبُّهُ لفضله وأدبه ؛ أكثر مما أُحِبُّهُ لصلاحه ودينه ؛ فكان يروقنى منظره ويُؤنسني محضره ؛ ولا أُبالى بعد ذلك بشيءٍ من نُسُكِهِ وعبادته ؛ أو فسقه واستهتاره ؛ لأنى ما فكرت قط أن أتلقى عنه علوم الشريعة أو دروس الأخلاق ؛ فقد علمت من ذلك ما حسبى به وكفى .

قضيت فى صُحبته عهداً طويلاً ما أُنكر من أمره ولا يُنكر من أمرى شيئاً ؛ حتى سافرت من القاهرة سفراً طويلاً ؛ فتراسلنا حيناً ؛ ثم انقطعت عنِّى كُتُبُهُ ؛ فرابنى من أمره ما رابنى ؛ ثُمَّ عُدت ؛ فجعلت أكبر همِّى أن أراه ؛ فطلبته فى جميع المواطن التى كنت أعرفه فيها فلم أجده !! ؛ فذهبت إلى منزله ؛ فحدَّثنى جيرانه أنه هجره من عهدٍ بعيدٍ وأنهم لا يعرفون أين مذهبه !! ؛ فوقفت بين اليأس والرجاء بُرْهَةً من الزمان !! ؛ ثم شعرت كأن أولهما يغالب ثانيهما حتى غلبه ؛ فعلمت أن قد فقدت الرَّجُل ؛ وأنى لن أجد بعد اليوم إليه سبيلاً !! ؛ هُنالك ذَرِفْتُ من الوجد دُموعاً لا يذرفها إلا من قَلَّ نصيبه من الأصدقاء ؛ وأقفر رَبْعُهُ من الأوفياء ؛ وأصبح غرضاً من أغراض الأيَّام لا تُخطئه سهامها ؛ ولا تُغِبُّهُ آلامُها[17](١)!! .

---

[17](١) ـ أَغَبَّهُ الألم : جاءه حيناً بعد حين .

بينما أنا عائدٌ إلى منزلى فى ليلة من ليالى السِّرَار [18](١) ؛ إذ دفعنى الجهل بالطريق فى هذا الظلام المُدْلَهِم إلى زُقَاقٍ مُوحشٍ مهجورٍ يتخيل الناظر إليه فى مثل تلك الساعة التى مررت فيها أنه مسكن الجان ؛ أو مأوى الغيلان !! فشعرت كأن بحراً أسود يتدفق بين جبلين شامخين ؛ وكأن أمواجه تُقبل بى وتُدبر ؛ وتقوم وتقعد !! ؛ فما توسَّطت لُجَّتَهُ حتى سمعت فى منزل من تلك المنازل المهجورة أَنَّةً تَرَدَّدُ فى جوف الليل ؛ فأصغيت إليها ؛ فتلتها أختها ؛ ثم أخواتها ؛ فأثَّر فى نفسى مسمعها تأثيراً شديداً !! ؛ وَقُلْتُ : يا للعجب !! ؛ كم يكتم هذا الليل فى صدره من أسرار البائسين ؛ وخفايا المحزونين !! ؛ وكنت قد عاهدت الله قبل اليوم ألا أرى محزوناً حتى أقف أمامه وقفة المساعد إن استطعت ؛ أو الباكي إذا عجزت ؛ فتلمسَّت الطريق إلى ذلك المنزل حتى بلغته ؛ فطرقت الباب طرقاً خفيفاً ؛ فلم يُفتح لى ؛ فطرقته أخرى طرقاً شديداً ففتحت لى فتاة صغيرة لم تكد تسلخ العاشرة من عمرها ؛ فتأملتها على ضوء المصباح الضئيل الذى كان فى يدها ؛ فإذا هى فى ثيابها المُمزَّقة ؛ كالبدر وراء الغيوم المتقطعة !! ؛ وَقُلْتُ لها : هل عندكم مريض ؟!! ؛ فزفرت زفرة كاد ينقطع لها نياط قلبها !! ؛ وقالت : أدرك أبى أيُّها الرَّجُلُ فهو يعالج سكرات الموت !! .

---

[18] (١) ـ السِّرَار : آخر ليلة من ليالى الشهر .

ثم مشت أمامى ؛ فتبعتها حتى وصلت إلى غُرفةٍ ذات باب قصير مُسَنَّم ؛ فدخلتها ؛ فخُيِّل إلىَّ أنى قد انتقلت من عالم الأحياء إلى عالم الأموات !! ؛ وأن الغرفة قبر والمريض ميِّت !! ؛ فدنوت منه حتى صرت بجانبه ؛ فإذا قفصٌ من العظم يتردَّد فيه النَّفس تردُّد الهواء فى البُرج الخشبىِّ !! ؛ فوضعت يدى على جبينه ؛ ففتح عينيه ؛ وأطال النظر فى وجهى ؛ ثم فتح شفتيه قليلاً قليلاً وقال بصوتٍ خافتٍ : ((أحمدُ الله ؛ فقد وجدت صديقى !!)) ؛ فشعرت كأن قلبى يتمشى فى صدرى جزعاً وقلقاً !! ؛ وعلمت أنى قد عثرت بضآلتى التى كنت أنشدها وكنت أتمنى ألا أعثر بها وهى في طريق الفناء ؛ وعلى باب القضاء ؛ وألا يجُدِّد لى مرآها حُزناً كان فى قلبى كميناً ؛ وبين أضالعى دفيناً!! . .

فسألته ما بَالُهُ ؟!! وما هذه الحالة التى صار إليها ؟!! ؛ وكأنَّ أُنْسَهُ بى أَمَدَّ مصباح حياته الضئيل بقليلٍ من النُّور ؛ فأشار إلىَّ أنه يحب النُّهوض ؛ فمددت يدى إليه ؛ فاعتمد عليها حتى استوى جالساً ؛ وأنشأ يقص علىَّ هذه القصة :

مُنْذُ عشر سنين ؛ كنت أسكن أنا ووالدتى بيتاً يسكن بجانبه جارٌ لنا من أرباب الثراء والنِّعمة ؛ وكان قصره يضم بين جناحيه فتاة ما ضمَّت القصور أجنحتها على مثلها حُسناً وبهاءً ؛ ورونقاً وجمالاً !! ؛ فألمَّ بنفسى من الوجد بها ما لم أستطع معه صبراً !! ؛ فما زلت بها أُعالجها فتمتنع ؛ وأستنزلها فتتعذَّر ؛ وأتأتى إلى قلبها بكل الوسائل فلا أصل إليه !! ؛ حتى عثرت بمنفذِ الوعد بالزواج ؛ فانحدرت منه

إليها ؛ فسكن حِمَاحُهَا ؛ وأسلس قيادها ؛ فسلبتها قلبها وشرفها فى يومٍ واحدٍ !! ؛ وما هى إلا أيام قلائل حتى عرفت أن جنيناً يضطرب فى أحشائها ؛ فَأُسْقِطَ فى يدى !! ؛ وطفقت أرتئى بين أن أفى لها بوعدها ؛ أو أقطع حبل ودِّهَا ؟!! ؛ فآثرت أُخراهما على أُولاهما !! ؛ وهجرت ذلك المنزل إلى المنزل الذى كنت تزورنى فيه أيُّها الصديق ؛ ولم أعد أعلم بعد ذلك من أمرها شيئاً !! .

مرَّت على تلك الحادثة أعوامٌ طوالٌ ؛ وفى ذات يومٍ جاءنى منها مع البريد هذا الكتاب ؛ وَمَدَّ يده تحت وسادته وأخرج كتاباً بالياً مُصْفَرَّاً !! ؛ فقرأت فيه ما يأتى :

((لو كان بى أن أكتب إليك لأُجدِّد عهداً دارساً أو ودّاً قديماً ما كتبت سطراً ؛ ولا خططت حرفاً !! ؛ لأنى لا أعتقد أن عهداً مثل عهدك الغادر ؛ وودّاً مثل ودِّك الكاذب ؛ يستحق أن أحفل به فأذكره ؛ أو آسف عليه فأطلب تجديده !! ؛ إنك عرفت حين تركتنى أن بين جنبىَّ ناراً تضطرم ؛ وجنيناً يضطرب ؛ تلك للأسف على الماضى ؛ وذاك للخوف من المستقبل !! ؛ فلم تبل بذلك ؛ وفررت منِّى حتى لا تُحمِّل نفسك مئونة النظر إلى شقاءٍ أنت صاحبه ؛ ولا تُكلِّف يدك مسح دُموعٍ أنت مُرسلها !! ؛ فهل أستطيع بعد ذلك أن أتصوَّر أنك رَجُلٌ شريف؟!! ؛ لا !! ؛ بل لا أستطيع أن أتصور أنك إنسان !! ؛ لأنك ما تركت خَلَّةً من الخِلالِ المُتفرِّقة فى نُفُوس العجماوات والوحوش الضارية إلا جمعتها فى نفسك ؛ وظهرت بها جميعها فى مظهرٍ واحدٍ !! .

كذبت علىَّ فى دعواك أنك تحُبُّنى ؛ وما كنت تحب إلا نفسك !! ؛ وكل ما فى الأمر أنك رأيتنى السبيل إلى إرضاء نفسك ؛ فمررت بى فى طريقك إليها ؛ ولولا ذلك ما طرقت لى باباً ؛ ولا رأيت لى وجهاً !! .

خُنتنى إذ عاهدتنى على الزواج فأخلفت وعدك ؛ ذهاباً بنفسك أن تتزوج امرأة مجُرمة ساقطة !! ؛ وما هذه الجريمة ولا تلك السقطة إلا صورة نفسك وصنعة يدك !! ؛ ولولاك ما كنت مجرمة ولا ساقطة !! ؛ فقد دفعتك جهدى حتى عييت بأمرك ؛ فسقطت بين يديك سقوط الطفل الصغير ؛ بين يدى الجبَّار الكبير !! ؛ سرقت عِفَّتى ؛ فأصبحت ذليلة النفس حزينة القلب ؛ أستثقل الحياة وأستبطئ الأجل !! ؛ وأىُّ لذَّةٍ فى العيش لامرأةٍ لا تستطيع أن تكون زوجة لِرَجُلٍ ولا أُمًّا لولد ؟!! ؛ بل لا تستطيع أن تعيش فى مجتمع من هذه المجتمعات البشريَّة إلا وهى خافضة رأسها ؛ مسبلة جفنها ؛ واضعة خَدَّها على كَفِّها ؛ ترتعد أوصالها ؛ وتذوب أحشاؤها ؛ خوفاً من عبث العابثين ؛ وتهكُّم المتهكِّمين !! .

سلبتنى راحتى ؛ لأنى أصبحت مضطرة بعد تلك الحادثة إلى الفرار من ذلك القصر الذى كنت متمتعة فيه بعشرة أبى وَأُمِّى ؛ تاركة ورائى تلك النِّعمة الواسعة وذلك العيش الرَّغِد ؛ إلى منزلٍ حقيرٍ فى حىٍّ مهجورٍ لا يعرفه أحد ولا يطرق بابه طارق ؛ لأقضى فيه الصُّبَابة الباقية من أيَّام حياتى !! .

قتلت أُمِّى وأبى ؛ فقد علمتُ أنهما ماتا ؛ وما أحسب موتهما إلا حُزناً لفقدى ؛ ويأساً من لقائى !! .

قتلتنى ؛ لأن ذلك العيش المُرِّ الذى شربته من كأسك ؛ وذلك الهم الطويل الذى عالجته بسببك ؛ قد بلغا مبلغهما من جسمى ونفسى ؛ فأصبحت فى فراش الموت كالذُّبَالة المُحترقة !! ؛ وأحسب أن الله قد صنع لى وأجاب دُعائى ؛ وأراد أن ينقلنى من دار الموت والشقاء ؛ إلى دار الحياة والهناء !! .

فأنت كاذبٌ خادع !! ؛ ولصٌّ قاتل !! ؛ ولا أحسب أن الله تاركك بدون أن يأخذ لى بحقِّى منك !! .

ما كتبتُ إليك هذا الكتاب لأُجدِّد بك عهداً ؛ أو لأخطب إليك ودًّا ؛ فقد عرفتَ مكانك من نفسى ؛ على أننى أصبحت على باب القبر ؛ وفى موقف وداع هذه الحياة خيرها وشرِّها ؛ سعادتها وشقائها ؛ وإنما كتبت إليك ؛ لأن لك عندى وديعة ؛ وهى فتاتك !! ؛ فإن كان الذى ذهب بالرَّحمة من قلبك أبقى لك منها رحمة الأُبُوَّة ؛ فاقبل إليها وخُذها إليك ؛ حتى لا يدركها من الشقاء ما أدرك أُمَّها من قبلها !! .)) !!.

فما أتممت قراءة الكتاب ؛ حتَّى نظرت إليه ؛ فرأيت مدامعه تتحدَّر من مُقلتيه ؛ فسألته ماذا تَمَّ بعد ذلك ؟!! ؛ قال : إنى ما قرأت هذا الكتاب حتَّى أحسست برعدة تتمشَّى فى أضالعى !! ؛ وَخُيِّلَ لى أن صدرى يُحاول أن ينشق عن قلبى حُزناً وجزعاً !! ؛ فأسرعت إلى منزلها ؛ وهو هذا المنزل الذى ترانى فيه الآن ؛ فرأيتها فى هذه الغُرفة على هذا السرير جُثَّة هامدة لا حِرَاك بها ؛ ورأيت

فتاتها إلى جانبها تبكى بُكاءً مُـرًّا !! ؛ فَصُعِقْتُ لهول ما رأيت !! ؛ وتمثَّلت لى جرائمى فى غشيتى كأنما هى وحُوش ضارية ؛ وأساود مُلتفَّة ؛ هذا يُنشب أظافره ؛ وذاك يُحدِّد أنيابه !! ؛ فما أفقت حتى عاهدت الله ألا أبرح هذه الغُرفة التى سَمَّيتها ((غُرْفَة الأَحْزَان)) حتى أعيش فيها عيشتها ثُمَّ أموت موتها!! .

وها أنذا أموت اليوم راضياً مسروراً ؛ فقد حدَّثنى قلبى أن الله قد غفر لى سيئاتى بما قاسيت من العناء ؛ وكابدت من الشقاء !! .

وما وصل من حديثه إلى هذا الحَد ؛ حتَّى انعقد لسانه !! ؛ واصفرَّ وجهه !! وسقط على فراشه !! ؛ فأسلم الرُّوح وهو يقول : ابنتى يا صديقى !! .

فلبثت بجانبه ساعة قضيت فيها ما يجب على الصديق لصديقه ؛ ثم كتبت إلى أصدقائه ومعارفه ؛ فحضروا تشييع جنازته ؛ وما رُئِىَ مثل اليوم أكثر باكية وباكياً!!.

وَلَمَّا حَثَوْنَا التُّرْبَ فَوْقَ ضَرِيحِهِ جَزِعْنَا ؛ وَلَكِن أَىُّ سَاعَةِ مجْزَعِ !! .

ويعلم الله ؛ إنى لأكتب قصته ولا أملك نفسى من البُكاء والنشيج !! ؛ ولا أنسى ما حييت نداءه لى وهو يُودِّع نسمات الحياة بقوله : ((ابنتى يا صديقى!!)) .

فيا أقوياء القُلُوب من الرِّجال !! ؛ رفقاً بضُعفاء النُّفوس من النِّساء !! ؛ إنكم لا تعلمون حيث تخدعونهن عن شرفهن وعفتهن أىُّ قلبٍ تفجعون ؛ وأىُّ دمٍ تسفكون !! .

*- الشَّرَف

لو فهم الناس معنى الشُّرف ؛ لأصبحوا كلهم شُرفاء .

ما من عاملٍ يعمل فى هذه الحياة إلا وهو يطلب فى عمله الشَّرف الذى يتصوره أو يُصوِّره له الناس ؛ إلا أنه تارة يخطئ مكانه وتارة يصيب .

يقتل القاتل وفى اعتقاده أن الشرف فى أن ينتقم لنفسه أو عرضه بإراقة هذه الكميَّة من الدَّم ؛ ولا يُبالى أن يُسمِّيه القانون بعد ذلك مُجرماً ؛ لأن البيئة التى يعيش يها لا توافق على هذه التسمية ؛ وهى في نظره أعدل من القانون حُكماً ؛ وأصدق قولاً !! .

يفسق الفاسق وفى اعتقاده أنه قد نفض عن نفسه بعمله هذا غبار الخمول والبله الذى يُظلل الأَعِفَّاء والمستقيمين ؛ وأنه استطاع أن يعمل عملاً لا يُقدم عليه إلا كُلُّ ذى حذقٍ وبراعةٍ وشجاعةٍ وإقدام !! .

يسرق السارق ؛ ويُزوِّر المُزوِّر ؛ ويخون الخائن : وفى اعتقاد كُلٍّ منهم أن الشرف كل الشرف فى المال وإن كان السبيل إليه دنيئاً وسافلاً ؛ وأن للذهب رنيناً تخفت بجانب صوته أصوات المعترضين والناقدين شيئاً فشيئاً ثم تنقطع حتى لا يُسمع بجانبه صوتٌ سواه !! .

هكذا يتصور الأدنياء أنهم شُرفاء ؛ وهكذا يطلبون الشرف ويخطئون مكانه ؛ وما أفسد عليهم تصورهم إلا الذين أحاطوا بهم من سُجرائهم وخُلطائهم

وذوى جامعتهم ؛ أولئك الذين يحتقرون الموتور حتى يغسل الدم بالدم فيُعظِّمُونه!! ؛ وَيَنْعَوْنَ على الرَّجُل المستقيم العفيف بلاهته وخُموله حتى يفجر ويستهتر فَيُبَخْبِخُونَ لَهُ وَيُقَرِّظُونَه (١)[١٩] !! ؛ ويُكرمون صاحب الذهب ولو أن دينار من دنانيره مُحجَّم من الدَّم !! .

وأولئك الذين يُسمُّون الفقير سافلاً ؛ وطيِّب القلب مُغفَّلاً ؛ وطاهر السريرة بليداً ؛ والحليم عاجزاً !! .

لا تعجب إن سمعت أن جماعة الأغنياء الجُهلاء تنعكس فى أدمغتهم صور الحقائق ؛ حتى تلبس فى نظرهم ثوباً غير ثوبها ؛ وتتراءى فى لونٍ غير لونها ؛ فإن بين الخاصة الذين نَعْتَدُّ بعقولهم ونمتدح أفهامهم ومداركهم من لا يُفرِّق بين الرذيلة والفضيلة ؛ حتى إنه ليكاد يفخر بالأولى ويستحيى من الأُخرى !! .

لولا فساد التصور ما افتخر قائد الجيش بأنه قتل مائة ألف من النُّفوس البشريَّة فى حربٍ لا يُدافع فيها عن فضيلة ؛ ولا يُؤيد بها حقّاً من الحقوق الشَّرعيَّة!! ؛ ولولا فساد التصور ما وضع المؤرخون اسم ذلك السَّفَّاح بجانب أسماء العُلماء والحُكماء والأطباء خَدمة الإنسانيَّة وحملة عرشها وأصحاب الأيادى البيضاء عليها فى سطرٍ واحدٍ من صحيفةٍ واحدةٍ !! ؛ ولولا فساد التصور ما جلس

---

[١٩] (١) ـ فَيُبَخْبِخُونَ لَهُ وَيُقَرِّظُونَه : أى يقولونَ لهُ : بَخٍ بَخٍ ؛ وهو أُسلُوبٌ من أساليبِ المدحِ والثَّناء ؛ والتَّقْرِيظ : هو المدح والثَّناء أيضاً .

القاضى المُرتشى فوق كُرسىِّ القضاء يفتل شاربيه وَيُصَعِّر خَدَّيه وينظر نظرات الاحتقار والازدراء إلى المُتَّهم الواقف بين يديه موقف الضراعة والذُّل ؛ ولا ذنب له إلا أنه جاع وضاقت به مذاهب العيش فسرق درهماً !! ؛ ولا توهَّم وهو اللص الكبير ؛ أنه أشرف من هذا اللص الصغير !! ولو باتا عند قدريهما لوقفا معاً فى موقفٍ واحدٍ أمام قاضٍ عادلٍ يحكم بإدانة الأول ؛ لأنه سرق مُختاراً ليُرَفِّه عيشه ؛ وبراءة الثانى ؛ لأنه سرق مُضطرَّاً ؛ ليُنقذ حياته من براثن الموت !! .

فمن شاء أن يُهذِّب أخلاق الناس ويُقوِّم اعوجاجها ؛ فليُهذِّب تصوراتهم ؛ وليُقوِّم أفهامهم ؛ يُوافه ما يُريد من التهذيب والتقويم .

ليس من الرأى أن يُشير المُعَلِّم على المُتَعَلِّم أن يجعل هذا المجتمع الإنسانىَّ ميزاناً يزن به أعماله ؛ أو مرآةً يرى فيها حسناته وسيئاته ؛ فالمجتمع الإنسانىُّ مُصابٌ بالسُّقمِ فى فهمه ؛ والاضطراب فى تصوِّره ؛ فلا عبرة بحُكمه ؛ ولا ثقة بوزنه وتقديره !! .

ليس من الرَّأى أن يُرشد المعلمُ المُتَعَلِّم إلى أن يطلب فى حياته الشرف الاعتبارىَّ ؛ فليس كل ما يعتبره الناس شرفاً هو فى الحقيقة كذلك !!.

ألا تراهم يَعُدُّون أشرف الشرف أن يتناول الرجل من الملك قطعة من الفضة أو الذهب يُحلِّى بها صدره ؛ وربما كانوا يعلمون أنه ابتاعها بماله كما تبتاع المرأة من الصائغ حِلْيَتَهَا !!.

لا شرف إلا الشرف الحقيقىَّ ؛ وهو الذى يناله الانسان ببذل حياته أو ماله أو راحته فى خدمة المجتمع البشرىِّ جميعه أو خدمة نوعٍ من أنواعه .

فالعالم شريف ؛ لأنه يجلو صدأ العقل الإنسانىِّ ويُصقل مرآته ؛ والمجاهد فى سبيل الدفاع عن وطنه شريف ؛ لأنه يحمى مواطنيه غائلة الأعداء ؛ ويقيهم عادية الفناء ؛ والمحُسن الذى يضع الإحسان فى موضعه شريف ؛ لأنه يأخذ بأيدى الضُّعفاء ؛ ويحُيى أنفس البُؤساء ، ؛ والحاكم العادل شريف ؛ لأنه رسول العناية الإلهيَّة إلى المظلومين ؛ يمنعهم أن يبغى عليهم الظالمون ؛ وصاحب الأخلاق الكريمة شريف ؛ لأنه يُؤثِّر بكرم أخلاقه وجمال صفاته فى عُشرائه وخُلطائه ؛ ويُلقى عليهم بالقُدوة الصالحة أفضل درسٍ فى الأخلاق والآداب ؛ والصانع والزارع والتاجر أشراف ؛ متى كانوا أُمناء مستقيمين ؛ لأنهم هم الذين يحملون على عواتقهم هذا المجتمع البشرىَّ ؛ وهم الذين يحتملون ما يحتملون من المئونة والمشقَّة فى سبيله حذراً عليه من التهافُت والسُّقوط .

فإن رأيت فى نفسك أيُّها القارئ أنك واحدٌ من هؤلاء ؛ فاعلم أنك شريف ؛ وإلا فاسلك طريقهم جهدك ؛ فإن لم تبلغ غايتهم ؛ فأخذ القليل خيرٌ من ترك الكثير ؛ فإن لم يكن هذا ولا ذاك ؛ فلتبك على عقلك البواكى! .

*- البَيَان

قال لى أحد الرُّؤساء ذات يوم: ((إنى لتأتيني أحياناً رِقَاعُ الاستعطاف ؛ فأكاد أُهملها ؛ لما تشتمل عليه من الأساليب المُنفِّرة ؛ لولا أن الله تعالى يُلهمنى نِيَّات كاتبيها وأين يذهبون ؛ ولولا ذلك لكُنتُ من الظالمين .)) .

ذلك ما يراه القارئ فى كثير من المخطوطات التى يخُطُّها اليوم كاتبوها فى الصُّحف ؛ ورقاع الشَّكوى ؛ والكُتُب الخاصة ؛ والمؤلَّفات العامة !! .

هزلٌ فى موضع الجد ؛ وَجِدٌّ فى موضع الهزل ؛ وإسهابٌ فى مكان الإيجاز ؛ وإيجازٌ فى مكان الإسهاب ؛ وجهلٌ بفرق ما بين العتاب والتأنيب ؛ والانتقام والتأديب ؛ والاستعطاف والاستخفاف ؛ وقُصورٌ عن إدراك منازل الخطاب ومواقفه بين السُّوقة والأُمراء ؛ والعُلماء والجُهلاء ؛ حتى إن الكاتب ليُقيم فى الشَّوكة يُشاكها ؛ مناحة لا يُقيمها فى الفاجعة يُفجع بها ؛ ويكتب فى الحوادث الصغار ؛ ما يعجز عن كتابة مثله فى الحوادث الكبار ؛ ويخُاطب صديقه بما يخُاطب به عَدُوَّه ؛ ويُناجى أجيره ؛ بمثل ما يُناجى به أميره !! .

ذهب النَّاسُ فى معنى البيان مذاهب مُتفرِّقة ؛ واختلفوا فى شأنه اختلافاً كثيراً ؛ ولا أدرى علام يختلفون ؟!! ؛ وأين يذهبون ؟!! ؛ وهذا لفظه دَالٌّ على معناه دلالةً واضحةً لا تشتبه وجوهها ؛ ولا تتشعَّب مسالكها .

ليس البيان إلاَّ الإبانة عن المعنى القائم فى النفس ؛ وتصويره فى نظر القارئ أو مسمع السامع تصويراً صحيحاً ؛ لا يتجاوزه ولا يقصر عنه ؛ فإن علقت به آفة من تينك الآفتين ؛ فهو العِىُّ وَالحَصَر .

جهل البيان قومٌ ؛ فظنُّوا أنه الاستكثار من غريب اللُّغة ونادر الأساليب ؛ فَأَغَصُّوا بها صُدُور كتاباتهم ؛ وحشوها فى حلوقها حشواً يقبض أوداجها ويحبس أنفاسها !! ؛ فإذا قُدِّرَ لك أن تقرأها ؛ وكنت ممن وهبهم الله صدراً رَحْبَاً ؛ وفُؤاداً جَلِدَاً ؛ وَجَنَانَاً يحتمل ما حُمِّلَ عليه من آفات الدهر ورزاياه : قرأت متناً مُشَوَّشَاً من مُتُون اللُّغة ، ؛ أو كتاباً مُضطرباً من كُتُبِ المترادفات !!.

وجهله آخرون ؛ فظنُّوا أنه الهَذَر فى القول والتبسُّط فى الحديث واقعاً ذلك من حال الكلام ومُقتضاه حيث وقع !! ؛ فلا يزالون يجترُّون بالكلمة اجترار الناقة بجرتها ؛ ويتمطَّقون بها تمطُّق الشفاه بريقته ؛ حتى تُسِفَ وتتبذَّل ؛ وحتى ما تكاد تُسيغها الحُلُوق ؛ ولا تطرف عليها العيون ؛ وهم يحسبون أنهم يُحسنون صُنعاً !! . يخُيَّلُ إلىَّ أن الكُتَّاب فى هذا العصر يكتُبُونَ لأنفُسهم أكثر مما يكتُبُون للناس ؛ وأن كتابتهم أشبه شىءٍ بالأحاديث النفسيَّة التى تتلجلج من نفس الإنسان حينما يخلو بنفسه ويأنس بوحدته ؛ فإنى لا أكاد أرى بينهم من يضع فَمَهُ على أُذُنِ السَّامع وضعاً مُحكماً ؛ وينفث فى رَوْعِهِ ما يُريد أن ينفث من خواطر قلبه وهواجس نفسه.

البيانُ صلةٌ بين مُتكلِّمٍ يفهم ؛ وسامع يفهم ؛ فبمقدار تلك الصلة من

القُوَّة والضعف تكون منزلة الكاتب من الرِّفعة والسُّقوط ؛ فإن أردت أن تكون كاتباً ؛ فاجعل هذه القاعدة فى البيان قاعدتك ؛ واحرص الحرص كله على أن لا يخدعك عنها خادعٌ ؛ فتسقط مع السَّاقطين .

ما أُصِيبَ البيانُ العربىُّ بما أُصِيبَ به إلا من ناحية الجهل بأساليب اللغة العربيَّة ؛ ولا أدرى كيف يستطيع الكاتب أن يكون كاتباً عربيًّاً قبل أن يطَّلع على أساليب العرب فى أوصافهم ونعوتهم ؛ ومدحهم وهجوهم ؛ ومحاوراتهم ومُساجلاتهم ؛ وقبل أن يعرف كيف كانوا يُعاتبون ويُؤنِّبُون ؛ ويعظون وينصحون ؛ ويتغزَّلُون وينسبون ؛ ويستعطفون ويسترحمون ؟!! ؛ وبأىِّ لُغةٍ يحاول أن يكتب ما يُريد إن لم يستمد تلك الرُّوح العربيَّة استمداداً يملأ ما بين جوانحه ؛ حتَّى يتدفَّق مع المِدَادِ من أُنْبُوبِ يَرَاعِهِ على صفحات قرطاسه؟!!.

إنى لأقرأ ما كتبه الجاحظ ؛ وابن المُقَفَّع ؛ والصاحب ؛ الصابى ؛ والهمذانىُّ ؛ والخوارزمىُّ ؛ وأمثالهم من كُتَّاب العربيَّة الأُولى ؛ ثم أقرأ ما خَطَّهُ هؤلاء الكاتبون فى هذه الصُّحف والأسفار ؛ فأشعر بما يشعر به المُنتقل دفعةً واحدةً من غُرفة محكمة نوافذها ؛ مُسبلة سُتُورها ؛ إلى جَوٍّ يسيل قِرَاً وَصِرًّاً ؛ ويترقرق ثلجاً وبرداً !! .

ذلك لأنى أقرأ لُغَةً لا هى بالعربيَّة فأغتبط بها ؛ ولا هى بالعاميَّة فأتفكَّه بهذيانها ومجُونها !! .

رأيتُ أكثر الكاتبين فى هذا العصر بين رَجُلين ، ؛ رَجُل يستمد رُوح كتابته من مطالعة الصُّحف وما يُشاكلها فى أساليبها من المُؤلَّفات الحديثة والرِّوايات المُترجمة ؛ وربما كان كُتَّاب تلك المخطوطات أحوج من قارئيها إلى الاستمداد ؛ فإذا عَلِقَت بنفسه تلك الملكة الصُّحفيَّة ؛ ألقى بها فى روع قارئ كتابته أدون مما أخذها ؛ فيُدلى به آخذها كذلك إلى غيره أسمج صورةً وأكثر تشويهاً ؛ وهكذا حتى لا يبقى فيها من رُوح العربيَّة إلا كما يبقى من الأطلال البالية بعد كَرِّ الغداة وَمَرِّ العِشِى !! ؛ وطالب قُصارى ما يأخذ عن أُستاذه : نحو اللُّغة ؛ وصرفها ؛ وبديعها ؛ وبيانها ؛ ورسمها ؛ وإملاؤها ؛ ومُفرداتها ؛ ومُتونها ؛ ومؤتلفاتها ؛ ومختلفاتها ؛ وغير ذلك من آلاتها وأدواتها ؛ أما روحها وجوهرها ؛ فأكثر أساتذة البيان فى المدارسِ عُلماء غير أُدباء ؛ وحاجة طالب اللُّغة إلى أُستاذٍ يفيض عليه رُوح اللُّغة ويُوحى له بِسِرِّهَا ؛ ويُفضى إليه بِلُبِّهَا وجوهرها ؛ أكثر من حاجته إلى أُستاذٍ يعلمه وسائلها وآلاتها ؛ وعندى أن لا فرق بين أستاذ الأخلاق وأستاذ البيان ؛ فكما أن طالب الأخلاق لا يستفيدها إلا من أستاذ كَمُلَت أخلاقه وَحَسُنَت آدابه ؛ كذلك طالب البيان لا يستفيده إلا من أُستاذٍ مُبينٍ .

ولا يُقْذَفَنَّ فى رَوْعِ القارئ أنى أُحاول استلاب فضل الفاضلين ؛ أو أنى أُنكر على فُصحاء هذه اللغة ما وهبهم الله من نعمة البيان !! ؛ فما هذا أردت !! ؛ ولا إليه ذهبت !! ؛ وإنما أقول إنَّ عَشْرَةً من الكُتَّاب المُجيدين ؛ وخمسةً من الشُّعراء البارعين ؛ قليلٌ فى بلدٍ يقولون عنه إنه بلد اللغة العربيَّة اليوم ومرعاها الخصيب!!.

وبعد ؛ فإنى لا أرى لك يا طالب البيان العربىِّ سبيلاً إليه إلا مُزاولة المُنشئات العربيَّة منثورها ومنظومها ؛ والوقوف بها وقوف المُتثبِّت المُتفهِّم ؛ لا وقُوف المُتنزِّه المُتفرِّج ؛ فإن رأيت أنك قد شُغِفْتَ بها ؛ وَكَلِفَت بمعاودتها والاختلاف إليها ؛ وأن قد لَذَّ لك منها ما يلذُّ للعاشق من زَوْرَةِ الطيف فى غُرَّةِ الظَّلام (١)[٢٠] ؛ فاعلم أنك قد أخذت من البيان بنصيبٍ ؛ فامض لشأنك ولا تلو على شىءٍ مما رواءك حتى تبلغ من طِلْبَتِكَ ما تُريد .

ولا تُحدِّثَنَّكَ نفسُك أنى أحملك على مُطالعة المُنشئات العربيَّة لأسلوبٍ تسترقه ؛ أو تركيبٍ تختلسه !! ؛ فإنى لا أُحِبُّ أن تكون سارقاً ولا مُختلساً ؛ على أنك إن ذهبت إلى ما ظننت أنى أذهب إليه فى نصيحتك ؛ لم يكن دَرْكُكَ دَرْكاً ؛ ولا بيانُكَ بياناً ؛ وكان كل ما أفدته من ذلك أن تُخرِجَ للنَّاس من البيانِ صورة مُشوَّهة لا تَناسُب بين أجزائها ؛ وبُردة مُرقَّعة لا تشابه بين ألوانها !! ؛ وإنما أُريد أن تُحصِّل لنفسك ملكة فى البيان راسخة ؛ تَصْدُرُ عنها آثارها بصورةٍ واحدةٍ ؛ حتى لا يكون شأنك شأن أولئك الذين قد علقت ذاكرتهم بطائفةٍ من منثور العرب ومنظومها ؛ فقنعوا بها ؛ وظنُّوا أنهم قد بلغوا من اللُّغة ما أرادوا

---

[٢٠] (١) ـ غُرَّةِ الظَّلام : غُرَّةُ كُلّ شىءٍ جَبِينُهُ ؛ وقد يكُون الصَّواب : غِرَّة الظَّلام : من قولهم : أخذهُ على غِرَّةٍ : أى غَافلَهُ وانتهزَ فُرصةَ عدمِ تَنَبُّهِه .

!! ؛ فإذا جَدَّ الجِدُّ وأرادوا أنفسهم على الإفصاح عن شيءٍ من خلجات نفوسهم ؛ رجعوا إلى تلك المحفوظات ونبشوا دفائنها ؛ فإن وجدوا بينها ما يَدُلُّ على المعنى الذى يُريدونه انتزعوه من مكانه انتزاعاً ؛ وحشروه فى كتابتهم حشراً !! ؛ وإلا فإما أن يتبذَّلوا باستعمال التراكيب الساقطة المشنوعة ؛ أو يهجروا تلك المعانى إلى أُخرى غيرها لا علاقة بينها وبين سابقاتها ولاحقاتها ؛ فهُم لابُدَّ لهم من إحدى السوأتين ؛ إما فساد المعانى واضطرابها ؛ أو هُجْنَة التراكيب وبشاعتها!!.

فاحذر أن تكون واحداً منهم !! ؛ أو أن تُصَدِّق ما يقُولُونه فى تلمُّس العُذْرِ لأنفسهم من أن اللغة العربيَّة أضيق من أن تتسع لجميع المعانى المستحدثة ؛ وأنهم ما لجأوا إلى التبذُّل فى التراكيب إلا لاستحالة الترفُّع فيها !! ؛ فاللغة العربيَّة أرحب صدراً من أن تضيق بهذه المعانى العامة المطروقة بعدما وسعت من دقائق العُلُوم ما لا قِبَلَ لغيرها باحتماله ؛ وَقَدِرَت من هواجس الصُّدُور وأحاديث النُّفُوس وسرائر القُلُوب على الذى عيت به اللُّغات القادرات .

وليس الشأن فى عجز اللغة وضيقها ؛ وإنما الشأن فى عجز المُشتغلين بها عن الاضطراب فى أرجائها ؛ والتغلغُل فى أثنائها ؛ واقتناعهم من بحرها بهذه البَلَّةِ التى

لا تُثلج صدراً ؛ ولا تشفى أُوَامَاً (١)[٢١] ؛ وكل ما يُعَدُّ عليها من الذُّنوب : أنها لا تشتمل على أعلام لهذه الهَنَات المستحدثة ؛ وهو فى مذهبى أقلُّ الذُّنوب جُرْمَاً ؛ وأضعفها شأناً ؛ ما دُمنا نعرف وجه الحيلة فى علاجه بالاشتقاق إن وجدنا السبيل إليه ؛ أو التعريب والوضع إن عجزنا عن الاشتقاق ؛ فالأمر أهون من أن نحار فيه ؛ وأصغر من أن نقضى أعمارنا فى الوقُوف ببابه ؛ والأخذ والرَّد فى شأنه ؛ والمُساجلة والمُناظرة فى اختيار أقرب الطُّرق إليه ؛ وأجداها عليه .

واعلم ؛ أنه لابُدَّ لك من حُسْنِ الاختيار فيما تريد أن تزاوله من المُنشئات العربيَّة ؛ فليس كل متقدم ينفعك ؛ ولا كل متأخر يضرُّك ؛ ولا أحسبك إلا واقفاً بين يدى هذا الأمر موقف الحيرة والاضطراب !! ؛ لأن حُسْنَ الاختيار طِلْبَةٌ تتعثَّر بين يديها الآمال ؛ وتُقطع دونها أعناق الرِّجال ؛ فالجأ فى ذلك إلى فَطَاحِلِ الأُدباء الذين تعرف ويعرف الناس منهم ذوقاً سليماً ؛ وقريحةً صافيةً ؛ وملكةً فى الأدب ؛ كأنها مصفاة الذهب ؛ فإن فعلت ؛ وكنتَ ممن وهبهم الله ذكاءً وفطنة ؛ وقريحة خصبة لَيِّنَة ؛ صالحة لنماء ما يُلقى فيها من البُذُور الطيِّبَة ؛ عُدتَ وبين جنبيك ملكةً فى البيان زاهرة ؛ يتناثر منها منثور الأدب ومنظومه ؛ تناثر الورود والأنوار ؛ من حديقة الأزهار!! .

(١) ـ الأُوَامُ ـ بالضَّمِّ ـ : العَطَش ؛ وَقِيلَ : حَرُّه ؛ وَقِيلَ : شِدَّةُ العَطَشِ وأن يَضِجَّ العَطْشان .

*- التَّوْبَة

عَلِمَ فُلانٌ ؛ وكان شابًّا من شُبَّان الخلاعة واللهو ؛ وقاضياً من قُضاة المحاكم : أن المنزل الذى يجُاور منزله يشتمل على فتاة حسناء من ذوات الثراء والنِّعمة والرَّفاهية والرَّغَد ؛ فرنا إليها النظرة الأولى ؛ فَتَعَلَّقَهَا ؛ فكررها أُخرى ؛ فبلغت منه ؛ فتراسلا ؛ ثم تزاورا ؛ ثم افترقا !! ؛ وقد خُتِمَت روايتهما بما تُختم به كُلُّ روايةٍ غراميَّة يُمثِّلُها أبناء آدم وحواء على مسرح هذا الوجود .

عادت الفتاة إلى أهلها تحمل بين جانحتيها هَمًّا يضطرم فى فؤادها ؛ وجنيناً يضطرب فى أحشائها ؛ ولقد يكون لها إلى كتمان الأول سبيل ؛ أما الثانى ؛ فَسِرٌّ مُذَاع ؛ وحديثٌ مُشَاع ؛ إن اتسعت له الصُّدُور لا تتسع له البُطُون ؛ وإن ضَنَّ به اليوم ؛ لا يَضِنُّ به الغد !! .

ذلك ما أسهر ليلها ؛ وَأَقَضَّ مضجعها ؛ وملك عليها وجدانها وشعورها ؛ فلم تر لها بُدًّا من الفرار بنفسها والنَّجاة بحياتها ؛ فعمدت إلى ليلة من الليالى الداجية ؛ فلبستها وتلفَّعت بردائها ؛ ثم رمت بنفسها فى بحرها الأسود !! ؛ فما زالت أمواجها تتلقفها وتترامى بها ؛ حتى قذفت بها إلى شاطئ الفجر ؛ فإذا هى فى غُرفةٍ صغيرةٍ فى أحد المنازل البالية ؛ فى بعض الأحياء الخاملة ؛ وإذ هى وحيدةٌ فى غُرفتها ؛ لا مؤنس لها إلا ذلك الهم المضطرم ؛ وذلك الجنين المضطرب !! .

كان لها أُمٌّ تحنو عليها ؛ وتتفقَّد شأنها ؛ وتجزع لجزعها ؛ وتبكى لبكائها ؛ ففارقتها !! ؛ وكان لها أَبٌ لا هَمَّ له فى حياته إلا أن يراها سعيدة فى آمالها ؛ مغتبطة بعيشها ؛ فهجرت منزله !! ؛ وكان لها خدمٌ يقُمن عليها ويسهرن بجانبها ؛ فأصبحت لا تُسامر غير الوحدة ؛ ولا تُساهر غير الوحشة !! ؛ وكان لها شرفٌ يُؤنسها ويملأ قلبها غبطةً وسروراً ؛ ورأسها عظمةً وافتخاراً ؛ ففقدته !! ؛ وكان لها أملٌ فى زواجٍ سعيدٍ من زوجٍ محبوبٍ ؛ فرزأتها الأيَّامُ فى أملها !! .

ذلك ما كانت تُناجى نفسها به صباحها ومساءها ؛ بُكورها وأصائلها ؛ فإذا بدا لها أن تُفكر فى عِلَّةِ مصائبها وسبب أحزانها ؛ علمت أنه ذلك الفتى الذى وعدها أن يتزوجها ؛ فخدعها عن نفسها ؛ ثم لم يفِ لها بعهده ؛ فقذف بها وَيكُلِّ ما تملك يمينها إلى هذا المصير !! .

فلا يكاد يستقر ذلك الخاطر فى فؤادها ويأخذ مكانه من نفسها ؛ حتى تشعر بجُذوة نارٍ تتَّقد بين جنبيها من الحقد والموجدة على ذلك الفتى ؛ لأنه قتلها ؛ وعلى المُجتمع الإنسانىِّ ؛ لأنه لا يُعاقب القاتل على جُرْمِهِ ولا يُسلكه فى سلسلة المجرمين!! .

وما هى إلا أيَّام قلائل ؛ حتى جاءها المخاض ؛ فولدت وليدتها من حيث لا ترى بين يديها من يأخذ بيدها أو يساعدها على خطبها غير عجوزٍ من جاراتها

ألَّمت بشأنها ؛ فمشت إليها وأعانتها على أمرها بضع ساعات ؛ ثم فارقتها تُكابد على فراش مرضها ما تُكابد ؛ وتُعانى من صروف دهرها ما تُعانى !! .

ولقد ضاق صدرها ذَرْعَاً بهذا الضيف الجديد ؛ وهو أَحَبُّ المخلوقات إليها ؛ وأكثرهم قُرْبَاً إلى نفسها !! ؛ فجلست ذات ليلة وقد حملت طفلتها النائمة على حجرها وأسندت رأسها إلى كَفِّهَا ؛ وظلَّت تقول :

((ليت أُمِّى لم تلدنى !! ؛ وليتنى لم أكن شيئاً !! .

لولا وجودى ما سعدت ؛ ولولا سعادتى ما شقيت !! .

إن كان فى العالم وجود أفضل منه العدم ؛ فهو وجُودى !! .

لقد كان لى قبل اليوم سبيل إلى النجاة من الحياة ؛ أما اليوم وقد أصبحت أُمَّاً فلا سبيل !! .

أأقتل نفسى فأقتل طفلتى ؟!! ؛ أم أحيا بجانبها هذه الحياة المريرة ؟!! .

لا أحسب الموت تاركى حتى يذهب بى إلى قبرى !! ؛ فماذا يكون حال طفلتى من بعدى ؟!! .

إنها ستعيش من بعدى وتشقى فى الحياة شقائى لا لذنبٍ جنته ؛ ولا لجريمةٍ اجترمتها ؛ سوى أننى أُمُّهَا !!.

هل تعيشين أيتها الفتاة حتى تغفرى لى ذنب أُمُومتى حينما تسمعين قصتى ؛ وتفهمين شكاتى ؟!! .

لم يبق فى يدى يا بُنَيَّتى من حُلاى إلا قليل ؛ سأبيعه كما بعت سابقه ؛ فكيف يكون شأنى وشأنك بعد اليوم ؟!! .

مُحالٌ أن أعود إلى أبى فأقص عليه قِصَّتى ؛ لأنه لم يبق لى مما يُعزِّينى عن شقاء العيش وبلائه إلا أن أهلى لا يعرفون شيئاً من أمرى ؛ فهم يبكوننى كما يبكون موتاهم الأعزاء ؟!! ؛ ولأن يبكوا مماتى خيرٌ لى ولهم من أن يبكوا حياتى !! .)).

وكذلك ظلَّت تلك البائسة تُحدِّث نفسها تارةً ؛ وطفلتها أُخرى بمثل هذا الحديث المُحزِن ؛ حتى غلبها صبرها على أمرها ؛ فأرسلت من جفنيها قطرات حارَّة من الدُّموع هى كل ما يملك الضعفاء ؛ ويقدر عليه البُؤساء !! .

دارت الأيَّام دورتها ؛ وباعت الفتاة جميع ما تملك يدها ؛ وما يحمل بدنها ؛ وما تشتمل عليه غُرفتها من حُلِىٍّ وثيابٍ وأثاث ؛ ولم يبق لها إلا قُمْصُها الخِلْقَان ومُلاءتها وبُرقعها !! ؛ ولم يبق لطفلتها إلا ثياب باليات تَنُمُّ عن جسمها نميمة الوجه عن السَّرِيرَة !! ؛ فكانت تقضى ليلها شَرَّ قضاء ؛

حتى إذا طار غُرَابُ الليل عن مجَثَمِهِ ؛ أسدلت بُرقعها على وجهها وأتَّزرت بمئزرها ؛ وأنشأت تطوف شوارع المدينة وتقطع طُرقها لا تبغى مقصداً ولا تُريد غاية سوى الفرار بنفسها من هَمِّهَا !! ؛ وَهَمُّهَا لا يزال يُسايرها ؛ ويترسَّم مواقع أقدامها !! .

وأحسب أن عجوزاً من عجائز المواخير رأتها فألَّمت ببعض شأنها ؛ فاقتفت أثرها ؛ حتى عادت إلى غُرفتها ؛ فوغلت عليها ؛ ثم سألتها ما خطبها ؟ ؛ فأنست بها ؛ وكذلك يأنس المصدور بنفثاته ؛ والبائس بشكاته ؛ فكشفت لها عن أمرها ؛ وألقت إليها بخبيئة صدرها ؛ ولم تترك خبراً من أخبار نعيمها ؛ ولا حادثاً من حوادث بُؤسها لم تحدثها به ؛ فعرفت الفاجرة محنتها ؛ ورأت بعينها ذلك الماء من الحُسْنِ الذى يجول فى أديم وجهها جولان الرَّاح فى زُجاجتها !! ؛ وعلمت أنها إن أحرزتها فى منزلها فقد أحرزت لنفسها غِنَى الدَّهر ؛ وسعادة العُمُر ؛ فلم ترسل إليها عقاربها وتنفث فى نفسها عزائمها وَرُقَاهَا حتى غلبتها على أمرها وقادتها إلى منزلها ؛ فما هىَ إلا عَشِيَّة أو ضُحاها حتى بلغت تلك الفتاة البائسة الغاية التى لا مَفَرَّ لها ؛ ولا لأمثالها من بُلوغها !! .

عاشت تلك البائسة فى منزلها الجديد عيشاً أشقى من عيشها الأول فى منزلها القديم ؛ لأنها ما كانت تستطيع أن تزدرد لُقمتها التى هى كل ما حصلت عليه فى دورها الثانى إلا إذا بذلت راحتها ؛ وشرَّدت نومها ؛ وأحرقت دماغها بالسَّهَر ؛ وأحشاءها بالشَّراب ؛ وصبرت على كل ما يسوقه إليها حَظُّهَا من سِبَاع الرِّجال وذئابهم ؛ على اختلاف طباعهم ؛ وتنوُّع أخلاقهم !! ؛ لأنها لم تر لها بُدَّاً من ذلك ؛ فاستسلمت استسلام اليائس الذى لم تترك له ضائقة العيش إلى الرجاء سبيلاً !! .

ولو أن الدَّهر وقف معها عند هذا الحَدِّ ؛ لأِلفت الشقاء وَمَرِنَت عليه كما يألفه ويمرن عليه كل من أُصِيب بمثل ما أُصِيبَت به ؛ ولكنه أبى إلا أن يسقيها الكأس الأخيرة من كُئُوس شقائه ؛ فساق إليها رَجُلاً كان ينقم عليها شأناً من شُئُون شهواته ولذَّاته ؛ فزعم أنها سرقت كيس دراهمه فى إحدى لياليه عندها ؛ ورفع أمرها إلى القضاء ؛ واستعان عليها ببعض أترابها الساقطات اللواتى كُنَّ يحسدنها وَيَنْفِسْنَ عليها حُسنها وبهاءها ؛ حتى أدانها !! .

جاء يوم الفصل فى أمرها ؛ فسيقت إلى المحكمة وفى يدها فتاتها وقد بلغت السابعة من عمرها ؛ فأخذ القاضى ينظر فى القضايا ويحكم فيها بما يشاء ويشاء له قانونه أو ذِمَّتُه ؛ حتى أتى دور الفتاة ؛ فأدناها منه ؛ فما وقع بصرها عليه حتى شُدِهَت عن نفسها وألمَّ بها من الاضطراب والحيرة ما كاد يذهب بِرُشْدِهَا!! ؛ ذلك أنها عرفته وعرفت أنه ذلك الفتى الذى كان سبب شقائها وَعِلَّة بلائها !! ؛ فنظرت إليه نظرة شزراء ؛ ثم صرخت صرخة دوَّى بها المكان دُوِيًّا!! ؛ وقالت :

رُوَيْدَك يا مولانا القاضى !! ؛ ليس لك أن تكون حَكَمَاً فى قضيتى ؛ فكلانا سارقٌ !! ؛ وكلانا خائن !! ؛ والخائن لا يقضى على الخائن ؛ واللص لا يصلح أن يكون قاضياً بين اللصوص !! .

فعجب القاضى والحاضرون لهذا المنظر الغريب !! ؛ وغضب لهذه الجرأة العجيبة !! ؛ وَهَمَّ أن يدعو الشُّرطىَّ لإخراجها ؛ فحسرت قناعها عن وجهها ؛ فنظر إليها نظرة ألمَّ فيها بِكُلِّ شىءٍ !! ؛ فشعر بالرِّعْدَة تتمشَّى فى أعصابه !! ؛ وسكن فى كُرْسِيِّهِ سُكُون المُحتَضِر على سرير الموت !! ؛ وعادت الفتاة إلى إتمام حديثها ؛ فقالت :

أنا سارقة المال ؛ وأنت سارق العِرْض ؛ وَالعِرْضُ أثمن من المال ؛ فأنت أكبر منِّى جنايةً وأعظم جُرْمَاً !! ؛ إن الرَّجُل الذى سرقتُ ماله يستطيع أن يُعزِّى نفسه باسترداده أو الاعتياض عنه ؛ أما الفتاة التى سرقتَ عرضها فلا عزاء لها ؛ لأن العِرْضَ الذاهب لا يعود !! ؛ لولاك لما سرقتُ ؛ ولا وصلت إلى ما إليه وصلت ؛ فاترك كُرْسِيَّك لغيرك ؛ وقف بجانبى لِيُحاكمنا القضاء العادل على جريمةٍ واحدةٍ أنت مُدَبِّرُهَا ؛ وأنا المُسَخَّرَةُ فيها !! ؛ إن شريعة تعلم أننا شُركاء فى جريمةٍ واحدةٍ ثم تأتى بنا إلى هذا المكان ؛ فتُقف أحدنا فى أشرف المواقف ؛ وتُقف الآخر فى ؛ شريعةٌ ظالمة !! ؛ ليس بينها وبين العدل نسبٌ موصولٌ أو ذِمَامٌ غير منقضب!! .

رأيتك حين دخلت إلى هذا المكان ؛ وسمعت الحاجب يصرخ لمقدمك ؛ ويستنهض الصفوف للقيام لك ؛ ورأيت نفسى حين دخلتُ والعُيُون تتخطانى ؛ والقُلُوب تقتحمنى ؛ فَقُلْتُ : يا للعجب !! ؛ كم تكذب العناوين ؟!!

وكم تخدع الألقاب ؟!! ؛ وكم يعيش هذا العالم فى ضلالة عمياء ؛ وجهالة جهلاء ؟!! .

بَخٍ بَخٍ لأولئك القوم الذين منحوك هذه الشهادة !! ؛ شهادة العلم والفضل والأخلاق والآداب !! ؛ وَمَرْحَى مَرْحَى لأولئك الذين أقعدوك هذا المقعد ووضعوا بين يديك هذا القانون وأوقفوا أمامك هذا الشُّرطىَّ يأتمر بأمرك ويُنفذ حُكمك وينزل على هواك !! .

إن تحت هذه الثياب التى تلبسونها معشر القُضاة نُفُوساً ليست بأقل من نفوسنا شَرًّا ولا أخبث منها مذهباً !! ؛ وربما لا يكون بيننا وبين الكثير منكم فرق إلا العناوين والألقاب ؛ والشَّمائل والأزياء !! .

أتيت بى إلى هُنا لتحكم علىَّ بالسَّجْن ؛ كأن لم يكفك ما أسلفت إلىَّ من الشقاء ؛ حتى أردت أن تجىء بلاحقٍ لذلك السابق !! .

ألم أُحسن إليك بساعةٍ من ساعات السُّرور فترعاها ؟!! .

ألم تَكُ إنساناً فترثى لشقائى وبلائى ؟!! .

إن لم تكن عندى وسيلة أَمُتُّ بها إليك ؛ فوسيلتى إليك ابنتك هذه !! ؛ فهى الصلة الباقية بينى وبينك !! .

فرفع القاضى رأسه ؛ ونظر إلى ابنته الصغيرة نظرة شفقة ورحمة ؛ وقد قرَّر فى نفسه أن لابُدَّ له من أن يُنصف تلك البائسة وينتصف لها من نفسه ؛

غير أنه أراد أن يخلص من هذا الموقف خُلُوصاً جميلاً ؛ فأعلن أن المرأة قد طاف بها طائفٌ من الجُنُون ؛ وأن لابُدَّ من إحالتها على الطبيب ؛ فَصَدَّقَ الناس قوله !!.

ثم قام من مجلسه بنفسٍ غير نفسه !! ؛ وقلبٍ غير قلبه !! ؛ وما هى إلا أيام قلائل حتى هجر القاضي منصبه بحُجَّة المرض ؛ وما زال يسعى سعيه حتى ضَمَّ إليه ابنته واستخلص أُمَّهَا من قرارتها ؛ وهاجر بها إلى بلدٍ لا يعرفهما فيها أحد ؛ فتزوَّج منها ؛ وَأَنِسَ بعشرتها ؛ واحترف فى دار هجرته بحرفةٍ لولا أن أَدُلَّ عليه إذا ذكرتها لفعلت ؛ ولا يزال حتى اليوم يُكَفِّر عن سيئاته إلى زوجته بكل ما يستطيعه من صُنُوف العطف وألوان الإحسان ؛

حتى نسيا ما فات ؛ ولم يبق أمامهما إلا ما هو آتٍ !! .

*-الحَيَاةُ الشِّعْرِيَّة

لولا الحياة الشِّعريَّة التى يحياها الناس أحياناً ؛ لَسَمُجُ فى نظرهم وجه الحياة الحسيَّة ؛ وَمَرَّ مذاقها فى أفواههم حتى ما يغتبط حىٌّ بنعمة العيش ؛ ولا يكره ميِّت طلعة الموت !! .

لذلك نرى كل حىٍّ يهرب من الحياة الحسيَّة جِدَّ الهرب لاجئاً إلى الحياة الشعريَّة من أىِّ بابٍ من أبوابها ؛ لأنه يرى فى هذه ما لا يراه فى تلك ؛ ممَّا يُريح فؤاده ويُثلج صدره وينفى عن نفسه السآمة والضجر من صُنُوف المناظر ؛ وأفانين المشاهد ؛ وغرائب المؤتلفات ؛ وعجائب المختلفات .

لولا حُبُّ النَّاس الحياة الشعريَّة لما وُجِدَ فيهم كثيرٌ من المولعين بتخدير أعصابهم ؛ كشاربى الخمر ؛ ومُدخِّنى الحشيشة والأفيون ؛ وهى وإن كانت فى نظرهم حياة سعادةٍ يتخلَّلها شقاء ؛ إلا أنها عندهم خيرٌ من حياة شقاءٍ لا تتخللها سعادة ؛ ولولا حُبُّ الحياة الشعريَّة لما وُجِدَ فى الناس هذا الجَمُّ الغفير من الشُّعراء المتخيلين ؛ والمتصوفة المتهوسين .

لا يجد السِّكِّير لذَّة العيش وهناءه إلا إذا أسلم نفسه إلى كأس الشراب ؛ فنقله من هذا العالم البسيط المحدود إلى عالمٍ هائلٍ غريبٍ ؛ يرى فيه كل ما تشتهى نفسه أن يراه ؛ فإن كان قبيح الوجه مُشوَّه الخَلْقِ ؛ تخيَّل أنه شَرَكُ الأبصار ؛ وفتنة النُّظَّار ؛ وأن القلوب محلقة على جماله تحليق الأطيار على الأشجار !! ؛ وإن كان

وضيعاً حقيراً لا يملك فلساً ؛ توهَّم أنه جالسٌ على كُرسيِّ المُلْكِ والصولجان فى يمينه والتاج فوق رأسه ؛ واعتقد أن عبيد الله عبيده ؛ وجُنود الحكومة جنوده ؛ حتى الجُندىَّ الذى يسحبه على وجهه إلى السَّجْن!! .

وبالجُملة ؛ لا تقع عينه على ما يحزنه من المنظورات ؛ ولا تسمع أُذُنه ما يُنَفِّرُهُ من المسموعات ؛ حتى ليرى الجمال الباهر فى وجه العجوز الشَّمطاء ؛ ويسمع فى صوت الرَّعد القاصف ألحان الغناء !! .

ولا يشعر الصُّوفىُّ بنعيم الحياة إلاَّ إذا جَنَّ الليل وآوى إلى معبده وخلا بنفسه ؛ فُتخيَّل أن له أجنحةٌ من النُّور كأجنحة الملائكة يطير بها فى فضاء السماء ؛ فيرى الجنَّة والنَّار والعرش والكُرسىَّ ؛ ويسمع صرير قلم القُدرة فى اللوح المحفوظ ؛ ويقرأ فى أُمِّ الكتاب حديث ما كان وما يكون وما هو كائن!!.

ولا يستفيق الشَّاعر من هُموم الدُّنيا وأكدارها ومصائبها وأحزانها ؛ إلاَّ إذا جلس إلى مكتبه وأمسك بيراعه ؛ فطار به خياله بين الأزهار والأنوار ؛ وتنقَّل به بين مسارح الأفلاك ومسابح الأسماك ؛ ووقف به تارة على الطُّلول الدوارس يبكى أهلها النازحين وَقُطَّانها المُفارقين ؛ وأُخرى على القُبُور الدوائر يندب جُسومها الباليات ؛ وأعظُمها النَّخِرَات !! .

ليس الأمل إلاَّ باباً من أبواب الحياة الشعريَّة ؛ ولا يمكن أن يوجد بين قلوب البشر قلب لا يخفق بالآمال !! ؛ فالأمل هو الحياة الشعريَّة العامة التى يشترك فى العيش فيها جميع الناس : أذكياء وأغبياء ؛ فُهماء وبُلداء ؛ والأمل هو

السَّدُّ المنيع الذى يعترض فى سبيل اليأس ؛ ويقف دُونه أن يتسرب إلى القلوب ؛ ولو تسرَّب إليها لزهد الناس العيش فى هذه الحياة الحسيَّة التى لا قيمة لها فى أنظارهم ؛ ولا لذَّة لها فى نُفُوسهم ؛ ولطلبوا الفرار منها إلى الموت تَسَلِّياً بالتغيُّر والانتقال ؛ وتلذُّذاً بالتحوُّل من حالٍ إلى حال .

يقولون : أشقى الناس فى هذه الحياة العُقلاء ؛ ويقولون : ما لذة العيش إلا للمجانين!!

أتدرى لماذا ؟!! .

لأن نصيب الأولين من الحياة الشعريَّة أضعف من نصيب الآخرين ؛ وذلك أن عقل العاقل يحُول بينه وبين استمرار الطيران فى فضاء الخيالات الذهنيَّة والمُغالطات الشعريَّة ؛ فلا يرى سوى ما بين يديه من المحسوسات ؛ ويمنعه علمه بأحوال الدُّنيا وشئونها ومعرفته أن الهموم والأحزان لازمةٌ من لوازمها لا تَنْفَكُّ عنها أن يُؤمِّلَ منها ما ليس فى طبيعتها من دوام السعادة ؛ واستمرار السُّرور والهناء ؛ فلا يطلب سعة العيش من وراء الأمل كبقيَّة المُؤمِّلين ؛ ولا يتلذَّذ بتصديق ما لا يكون تلذُّذ المجانين .

والحقَّ أقول : لولا الحياة الشعريَّة التى أحياها أحياناً فى هذه النظرات ؛ لأحببت زُهداً فى الحياة الحسيَّة أن تطلع الشمس من مغربها ؛ ولو قامت القيامة بعد ذلك ؛ ولتمنيت حُبَّاً فى الانتقال من حالٍ إلى حالٍ أن أنتقل ؛ ولو إلى رحمة الله !! .

*-وَارَحْمَتَاه

فى ذلك البلد القَفْرِ من تلك الصحراء المُحرقة من هذا الإقليم القاحلِ طائفةٌ من فُقراء المسلمين وضعفائهم ؛ لا يملكون من الحَوْلِ غير قُلُوبٍ يملؤها اليقين بالله والثقة به والاعتماد عليه ؛ ولا من القُوَّة غير ألسنةٍ لا تزال تهتف فى صباحها ومسائها وبُكورها وأصائلها بالدُّعاء إلى الله تعالى أن يتولى أمرهم وَيُسَدِّد خُطواتهم وَيُيَسِّر لهم السبيل إلى الخلاص من ذلك العَدُوِّ القاهر الذى نزل بهم فى دار أمنهم وسكونهم ؛ نُزُول القضاء الذى لا مَرَدَّ له ؛ ولا مُنْتَدَح عنه ؛ يُريد أن يسلبهم ما أبقت يد الأيَّام فى أيديهم من لُقيماتٍ غير سائغة ؛ وجَرعاتٍ غير هنيئة ؛ وظلٍّ غير ظليل !! .

وا رحمتاه لجماعة المسلمين فى طرابلس !! ؛ إنهم عاجزون عن أن يَعُدُّوا لعدوهم الزاحف عليهم بقنابله ورصاصه غير أجسامٍ ستصبحُ فى الغد أشلاءً مُمزَّقة ؛ تطؤها النِّعال وتدوسها الحوافر !! ؛ وَقُلُوبٍ لا تزال تدق حتى تسمع دقات المدافع والبنادق ؛ فتسكن !! ؛ وأرواحٍ ستطير فى علياء السماء طيران ذلك الدُّخان فى أجواز الفضاء !! .

وا رحمتاه لهم !! ؛ إنهم يستغيثون فلا يجدون مُغيثاً !! ؛ ويستصرخون فلا يسمعون مُجيباً !! ؛ قد تقطَّعت بهم الأسباب ؛ وأعوزتهم الوسائل ؛ وَسُدَّت فى وجوههم السُّبُل !! ؛ فلم يبق لهم منها إلا سبيل الموت ؛ وفى الموت راحة البائسين

والمنكوبين من شقاء الحياة وبلائها !! ؛ لولا أنهم يتركون من بعدهم بين يدى ذلك العدو الظالم أرامل ضُعفاء ؛ وأيتاماً صغاراً ؛ وشُيوخاً كباراً ؛ لا يعلمون ماذا أضمر لهم القدر فى صدره من نعيمٍ أو شقاء !! .

كأنى أراهم وقد غلت فى صُدُورهم حَمِيَّة الدِّين والوطن ؛ ودارت فى رُءوسهم سَكْرَة العِزَّة العربيَّة ؛ فأبوا إلاَّ أن يتقدموا إلى الموت الأحمر تقدُّم المُستقتل المُستبسل ؛ الذى يعلم أن باب الحياة الأبديَّة السعيدة لا يُفتح إلا بين يدى الأرواح التى احتقرت أجسادها وازدرتها ؛ فتجرَّدت من أثوابها الرَّثَّة البالية وألقتها من ورائها ؛ وكأنى أرى الرَّجُل منهم وقد دخل إلى بيته لِيُعِدَّ عُدَّتَهُ ويُودِّع أهله الوداع الأخير ؛ فبكت أُمُّه ؛ وناحت زوجته ؛ وصاح ولده ؛ فبكى لبُكائهم ؛ وَرَنَّ لرنينهم ؛ لا جزعاً من الفراق ؛ لأنه فراقٌ يُعَزِّيه عنه لقاء الله تعالى ؛ ولا خشيةً من الموت ؛ لأنه يعلم أن الحياة الذليلة أحقر من أن يَضِنَّ صاحبها برُوحه فى سبيل الله حرصاً عليها ؛ بل مخافة أن تستبدَّ بأعراض بيته وحُرماته تلك الأيدى الظالمة التى لا ترحم صغيراً ولا تعطف على كبيرٍ ؛ أو أن يهلكوا من بعده جُوعاً وفقراً ؛ لأنه لم يترك لهم قُوتاً يَتَبَلَّغُون به ؛ ولا عِمَاداً يعتمدون عليه ؛ فإذا علم أن موقفه بينهم موقفٌ جَلَلٌ يكاد يُغلَب فيه على أمره حُزناً وإشفاقاً ؛ نظر فى وجه السماء نظرةً طويلةً ؛ أرسل فيها إلى حضرة رَبِّهِ كُلَّ ما تهتف به نفسه القريحة من وَجْدٍ ورحمةٍ وبُكاءٍ وحنين ؛ ثم انفتل من بين أيديهم انفتالاً ؛ ومضى لسبيله لا يلوى على شىءٍ مما وراءه حتى يبلغ ساحة الحرب ؛ فلا يزال يقرع باب الحياة الأُخرى حتى يُفتح له !! .

هُنالك تنوح النائحات ؛ وتبكى الباكيات ؛ وتطير النُّفُوس ؛ وتُصعق القُلُوب ؛ وترنُّ المنازل والدُّور بالنحيب والتعداد !! ؛ وهُنالك ترى المرأة المسلمة المخبأة التى لم تر فى حياتها وجه الشمس إلا من كُوَّة بيتها بَرْزَة الوجه ؛ عارية الرأس ؛ حيرى مُولَّهَة ؛ هائمة فى الطُّرق والمذاهب ؛ تُسائل الغادين والرَّائحين ما فعل الله بولدها أو زوجها أو أخيها ؛ فإما بقيت فى حيرتها بياض يومها وسواد ليلها ؛ وإما عادت إلى بيتها بالثُّكل القاتل والحُزن الدائم !! ؛ وترى الشُّيوخ الكبار والأطفال الصغار والعاجزين والضعفاء لائذين بالتِّلال والآكام ؛ يتَّقُون بها صواعق الحرب وشُهبها فلا تقيهم !! ؛ أو عائذين بالمضايق والمنافذ يَفِرُّون إليها من وجُوه الخيل وسنابكها فلا تحميهم !! ؛ وهُنالك ترى أولئك القوم الذين يُسمُّون أنفسهم مُجاهدين أو فاتحين أو قُوَّاداً عِظاماً أو سُوَّاساً كباراً يمشون بين بيوت المسلمين ومجامعهم مشية الفَرِح المُختال ؛ وينظرون إلى أولئك القوم الذين سرقوا حُرِّيَّتهم واستقلالهم ؛ وانتهبوا أرواحهم وأموالهم ؛ نظر السَّيِّد إلى مولاه الذى ملك ولاءه بماله واستعبده بفضله وإحسانه !! ؛ وربما رموا إليهم فى تلك الساعة بلُقيمات كتلك التى يُلقيها سَيِّدُ الكلب إلى كلبه ؛ أو صاحب الماشية إلى ماشيته ؛ ليُشهدوا العالم الإنسانىَّ بأجمعه على كرمهم وسخائهم وعطفهم ورحمتهم !! ؛ وأنهم ما سفكوا الدماء ولا قطعوا الأوصال ولا يتَّموا الأطفال ولا انتهكوا الحُرمات إلا خدمةً للإنسانيَّة العامة ؛ وإجلالاً لشأنها !! .

لا أحسب أن مُسلماً دخل الإيمان قلبه فملأه رحمةً وإحساناً وعطفاً وحناناً ؛ يستطيع أن يتخذ لجنبه فى ظُلمة الليل مضجعاً ؛ أو يجد لنفسه فى ضحوة النهار قراراً ؛ حُزناً على هؤلاء المنكوبين الحائرين الذين يدورون بأعينهم فى مشارق الأرض ومغاربها يتلمسون ناصراً يُعينهم على أمرهم ؛ أو مُنجداً يدفع عنهم عادية البلاء ؛ فلا يجدون إلا أُمماً إسلاميَّةً قد أصابها مثل ما أصابهم من قبل ؛ فهى تعجز عن النظر لنفسها ؛ فَأَحْرَى أن تعجز عن النظر لغيرها !! ؛ فلم يبق بين أيديهم من الأمل إلا تلك الرَّحمة التى يعتقدون أنها باقية لهم فى قُلُوب الأفراد من إخوانهم المسلمين أن يُمدوهم بقليلٍ من القوت ؛ يستعينون به على جهاد عَدُوِّهم ؛ ويعودون بما بقى منه على عيالهم الذين يتضوَّرون جُوعاً من بعدهم !! .

أيها المسلمون !!

إنكم لن تجدوا بعد اليوم موقفاً هو أقرب إلى الله ؛ وأدنى إلى رحمته وإحسانه ؛ وأجلب لمغفرته ورضوانه ؛ من موقفكم بين هؤلاء الضعفاء المساكين ؛ تُطعمون جائعهم ؛ وتكسون عاريهم ؛ وتُسلِّحُون أعزلهم ؛ وتُعالجون جريحهم ؛ وتخلفون قتيلهم فى أهله وولده .

إنكم إن تحُسنوا إليهم تحُسنوا إلى أنفسكم ؛ وإن تُنقذوهم من كُربتهم تُنقذوا جامعتكم وَمِلَّتكم ؛ فإن بينكم وبينهم لُحمَةً أقوى من لُحمَةِ النَّسَب ؛ ووشيجةً أوثق من وشيجة القُرْبى ؛ وإنكم جميعاً تُصلُّون إلى قبلةٍ واحدةٍ ؛ وتهتفون فى الغَدَاةِ

وَالعِشِيِّ بِذكرٍ واحدٍ ؛ وتتوجهون بقلوبكم فى نعمائكم وبأسائكم إلى إلهٍ واحدٍ ؛ وتقفون فى بيت الله وَحَرَمِهِ بين الرُّكْنِ والمقام موقفاً واحداً .

أيها المسلمون !!

إنكم إن اجتمعتم اليوم لن تفترقوا غداً ؛ وإن هُديتم لرُّشدكم فى موقفكم هذا لن تضلوا من بعده ؛ وإنكم إن قدَّمتم بين أيديكم هذا العمل الصالح : أحسن اللهُ جزاءكم ؛ وأعانكم على أمركم ؛ وَوَفَى لكم بما وعدكم من نصره ومعونته .

وإن تنصروا الله ؛ ينصركم ويُثبِّت أقدامكم .

*- غَدْرُ المَرْأَة

يقُصُّون فى القصص الخُرافيَّة أن حكيماً من حُكماء اليونان كان يحُبُّ زوجته حُبًّا ملك عليه عقله وقلبه ؛ وأحاط به إحاطة الشُّعاع بالمصباح المُتَّقِد ؛ وكان يُمازج هناءه الحاضر شقاء مستقبل يسوقه إلى نفسه الخوف من أن تدور الأيَّام دورتها فيموت ؛ ويفلت من أَشْرَاكِهِ ذلك القلب الذى كان مُغتبطاً باعتلاقه إلى صائدٍ آخرٍ يعتلقه من بعده ؛ وكان كُلَّما أبثَّ زوجته سِرَّهُ وشكا إليها ما يُساور قلبه من ذلك الهَمِّ ؛ حنت عليه ؛ وعلَّلته بمعسول الأمانى ؛ وأقسمت له بكُلِّ مُحرجةٍ من الأيمان أنها لا تسترد هبة قلبها منه حيًّا وميِّتاً ؛ فكان يسكن إلى ذلك سكون الجُرح الدَّرِب تحت ميزاب الماء البارد ؛

ثم يعود إلى هواجسه ووساوسه ؛ حتَّى مَرَّ فى بعض روحاته إلى منزله فى ليلةٍ من الليالى المُقمرة بمقبرة المدينة ؛ فبدا له أن يدخلها ليُرَوِّح عن نفسه هُمُوم الموت بوقفةٍ بين قُبُور الموتى ؛ وكثيراً ما يتداوى شارب الخمر بالخمر ؛ ويدفع الخوف الخائف إلى مبعث خوفه ؛ ويلذ للجبان وهو يرتعد فَرَقاً الإصغاء إلى حديث الأفاعى وقصص الجان ، ؛ فرأى فى بعض مسالكه بين تلك القُبُور امرأة متسلبة جالسة أمام قبرٍ جديدٍ لم يجف ترابه ؛ وبيدها مروحة من الحرير الأبيض مُطرَّزة بأسلاك الذهبِ تُحرِّكها يمنةً ويسرةً لتُجفِّف بها بلل ذلك التراب !! ؛ فعجب لشأنها !! ؛ وتقدَّم إليها ؛ فارتاعت لمرآه !! ؛ ثم أَنِسَت به حينما عرفته ؛ فسألها : ما شأنها ؟! ؛ وما مقامها هُنا ؟! ؛ ومن هذا الدفين؟ !

وما الذى تفعل ؟! ؛ فأبت أن تجُيبه عمَّا سأل حتى تفرغ من شأنها ؛ فجلس إليها ؛ وتناول منها المروحة ؛ وظلَّ يُساعدها فى عملها حتى جَفَّ التُّراب ؛ فحدَّثته أن هذا الدفين زوجها ؛ وأنه دُفِنَ مُنذ ثلاثة أيَّام ؛ وأنها مُنذ الصباح جالسة مجلسها هذا لتُجفِّف تُراب قبره وفاءً بيمينٍ كانت أقسمتها له فى مرض موته أن لا تتزوج من غيره حتى يجف تُراب قبره ؛ وأن هذه الليلة هى موعد بنائها بزوجها الثانى ؛ فأبى لها وفاؤها لهذا الدفين الذى كان يحُبُّها ويحُسن إليها أن تحنث بيمينٍ أقسمتها له أو تخيس بما عاهدته عليه ؛ ثم قالت له : هل لك يا سيِّدى أن تقبل هذه المروحة هديَّة منِّى إليك ؛ وجزاءً لك على حُسْنِ صنيعك معى؟ ؛ فتقبَّلها منها شاكراً بعد أن هنأها بزواجها الجديد ؛ ثم انصرف وليس وراء ما به من الهَمِّ غاية!! ؛ ومشى فى طريقه مشية الرائح النَّشوان يحُدِّث نفسه ويقول : إنه أحبَّها وأحسن إليها ؛ فلما مات جلست فوق قبره لا لتبكيه ولا لتذكر عهده ؛ بل لتتحلَّل من يمين الوفاء التى أقسمتها له ؛ فكأنها وهى جالسة أمام زوجها الأول تُعِدُّ عُدَدَ الزواج من زوجها الثانى !!

وكأنما اتخذت من صفائح قبره مرآة تُصقل أمامها جبينها ؛ وتُصفِّف طُرَّتِهَا ؛ وتلبس حِليتها بين سمعه وبصره للزِّفاف إلى غيره !! .

وما زال يحُدِّث نفسه بمثل ذلك ؛ حتى رأى نفسه فى منزله من حيث لا يشعر ؛ ورأى زوجته ماثلة أمامه مُرتاعة لمنظره المحُزن !! ؛ فقال لها : إن امرأة خائنة

غادرة أهدت إليَّ هذه المروحة فقبلتها منها لأُهديها إليك ؛ لأنها أداة من أدوات الغدر والخيانة ؛ وأنت أولى بها منِّى !! ؛ ثم أنشأ يَقُصُّ عليها قصَّة المرأة حتى أتى عليها ؛ فغضبت وانتزعت المروحة من يده ومزَّقتها ؛ وأنشأت تَسُبُّ تلك المرأة وتنعى عليها غدرها وخيانتها وتُلقِّبُها بأفحش الألقاب وأقبحها !! ؛ ثم قالت : ألا يزال هذا الوسواس عالقاً بصدرك ما دُمْتَ حيًّا ؟!!

وهل تحسب أن امرأة فى العالم ترضى لنفسها بما رضيت به لنفسها تلك المرأة الغادرة ؟!! ؛ فقال لها : إنكِ أقسمت لى ألا تتزوجى من بعدى ؛ فهل تفين بعهدك؟!! ؛ قالت : نعم !! ؛ ورمانى اللهُ بكُلِّ ما يرمى به الغادر إن أنا غدرت!! ؛ فاطمأن لقسمها وعاد إلى راحته وسُكونه .

مضى على ذلك عام ؛ ثم مرض الرَّجُل مرضاً شديداً ؛ فعالج نفسه ؛ فلم يجُدِ العلاج حتى أشرف ؛ فدعا زوجته وذكَّرها بما عاهدته عليه ؛ فادَّكرت ؛

فما غربت شمس ذلك اليوم حتى غربت شمسه ؛ فأمرت أن يُسجَّى فى قاعته حتى يُحتفل بدفنه فى اليوم الثانى ؛ ثم خلت بنفسها فى غرفتها تبكى عليه وتندبه ؛ وإنها لكذلك إذ دخلت عليها الخادم وأخبرتها أن فتىً من تلاميذ مولاها حضر الساعة من بلدته لَمَّا سمع بأمر مرضه ؛ وأنها حدَّثته حديث موته فَصُعِقَ فى مكانه حُزناً ووجداً !! ؛ ولا يزال عند باب المنزل مُطرحاً لا تدرى ما تصنع فى أمره !! ؛ فأمرتها أن تذهب به إلى غُرفة الأضياف وأن تتولى شأنه حتى

يستفيق ؛ ثم عادت إلى بُكائها ونحيبها ؛ فلما مَرَّ الهَزِيعُ الثانى من الليلِ دخلت عليها الخادم مرَّةً أُخرى مُرتاعة مُولَّهة وهى تقول : رحمتك وإحسانك يا سيِّدتى !! ؛ فإن ضيفنا يُعالج من آلامه وأوجاعه عذاباً أليماً !! ؛ وقد حِرْتُ فى أمره وما أحسبه إن أغفلنا أمره ساعة واحدة إلا هالكاً !! ؛ فراعها الأمر !! ؛ فقامت تتحامل على نفسها حتى وصلت إلى غُرفة المريض ؛ فرأته مُسَجًّىً على سريره والمصباح عند رأسه ؛ فاقتربت منه ونظرت فى وجهه ؛ فرأت أبدع سطر خطَّته يد القُدرة الإلهيَّة فى لوح المقادير !! ؛ فتخيَّلت أن المصباح الذى أمامها قَبَسٌ من ذلك النور المُتلألئ فى ذلك الوجه المُنير !! ؛

وتمثَّلت كأن أنينه نغمة موسيقيَّة مُحزنة ترنُّ فى جوف الليل البهيم !! ؛ فأنساها الحُزْنُ على المريض المُشْرِف الحُزْنَ على الفقيد الهالك !! ؛ وعناها أمره ؛ فلم تترك وسيلة من وسائل العلاج إلا توسَّلت بها إليه ؛ حتى استفاق ؛ ونظر إلى طبيبته الراكعة بجانب سريره نظرة الشُّكر والثناء ؛ ثم أنشأ يَقُصُّ عليها تاريخ حياته ؛ فعرفت من أمره كُلَّ ما كان يُهمُّها أن تعلمه ؛ فعرفت مسقط رأسه وصلته بزوجها وأنه فتىً غريبٌ فى قومه لا أب له ولا أُم ولا زوجة ؛ وهُنا أطرقت برأسها ساعةً طويلةً عالجت فيها من هواجس النفس ونوازعها ما عالجت ؛ ثم رفعت رأسها وأمسكت بيده وقالت له : إنك قد ثكلت أُستاذك وأنا ثكلت زوجى فأصبح هَمُّنا واحداً ؛ فهل لك أن تكون عوناً لى وأن أكون عوناً لك على هذا الدهر الذى

لم يترك لنا مُساعداً ولا مُعيناً؟ ؛ فألمَّ بما فى نفسها !! ؛ فابتسم لها ابتسامة الحُزن والمضض !! ؛ وقال لها : من لى يا سيِّدتى أن أكون عند ظنِّك بى وهذا المرض الذى يُساورنى ولا يكاد يهدأ عنِّى قد نَغَّصَ علىَّ عيشى وأفسد علىَّ حياتى ؛ وقد أنذرنى الطبيبُ باقتراب ساعة أجلى إلا أن تُدركنى رحمة الله ؟!! ؛ فاطلبى سعادتك عند غيرى ؛ فأنت من بنات الوجُود ؛ وأنا من أبناء الخُلُود !! ؛ فقالت له : إنك ستعيش ؛ وسأُعالجك ولو كان دواؤك بين سَحْرِى وَنَحْرِى ؛ قال : لا تُصدِّقى يا سيِّدتى ؛ فأنا عالمٌ بدوائى وعالمٌ بأنى لا أجد السبيل إليه ؛ قالت : وما دواؤك ؟!! ؛ فامتنع عليها هُنَيْهَةً لا يجُيبها ؛ فلما أعياه إلحاحها !! ؛ قال : حدَّثنى طبيبى أن شفائى فى أكل دماغ ميِّتٍ ليومه !! ؛ ولقد علمت أن ذلك يُعجزنى ؛ فأسجلت أن لا دواء لى ولا شفاء !! ؛ فارتعدت وشحب لونها وأطرقت طويلاً ؛ ثم رفعت رأسها هادئة ساكنة ؛ وقالت : لا أزال أقول لك : إنى سأُعالجك وإن كان دواؤك فى ذهاب نفسى ؛ ثم أمرته أن يأخذ قسطه من الرَّاحة ؛ وخرجت من الغرفة مُتسللة حتى وصلت إلى غُرفة سلاح زوجها ؛ فأخذت منها فأساً ؛ ثم مشت تختلس خطواتها اختلاساً حتى وصلت إلى غُرفة الميِّت !! ؛ ففتحت الباب ؛ فدار على عقبه وَصَرَّ صَرِيراً مُزعجاً !! ؛ فجمُدت فى مكانها وقد امتلأ قلبها رُعباً وخوفاً وذهبت بها الظُّنُونُ كُلَّ مذهبٍ !! ؛ ثم عادت إلى سُكونها ؛ فتقدَّمت لشأنها ؛ حتى دنت من

السرير ؛ ورفعت الفأس !! ؛ وما كادت تهوى بها حتى رأت الميِّت فاتحاً عينيه ينظر إليها !! ؛ فسقطت الفأس من يدها !! ؛ وسمعت حركةً وراءها !! ؛ فالتفتت ؛ فرأت الضيف والخادم

واقفين يتضاحكان !! ؛ ففهمت كُلَّ شيءٍ !! .

وهُنالك تقدَّم إليها زوجها ؛ وقال لها : أليست المروحة فى يد تلك المرأة الغادرة أجمل من الفأس فى يدك ؟!! ؛ أليست التى تجُفِّف تُراب قبر زوجها بعد دفنه أفضل من التى تكسر دماغه قبل نعيه ؟!! .

فصارت تنظر إليه نظراً غريباً ؛ ثم شهقت شهقةً كانت فيها نفسها !! .

*- الضَّاد

إذا كان العرب الأولون يُعبِّرون بالرأس عن مئين من الأعضاء والعظام والأعصاب والشرايين ؛ فلمَ لا نُعبِّر نحن بالضاد عن ثمانية وعشرين حرفاً ؟!! ونحن عربٌ مثلهم ؛ تجرى فى عُروقنا دماؤهم كما تجرى فى عروقهم دماء آبائهم من قبل ؛ فسهمنا فى الضاد سهمهم ؛ وحقُّنا فيها حقهم ؛ فلمَ يضعون الألفاظ للتفاهم والتخاطب ؛ ولا نضعها مثلهم لمثل ما وضعوا ؛ وحاجاتنا أكثر من حاجاتهم ؛ ومرافقنا أوفر عدداً من مرافقهم ؛ وأوسع فصولاً وأنواعاً ؟!! .

أين باديتهم الخلاء الجرداء المقفرة المصفرة إلا القليل من الخيام المُبعثرة بين مَعَاطِنِ الإبل وَمَرَاتِعِ الشاء وَمَرَابِضِ الوحش ومغاور الجن من مدائننا الفاخرة الزاخرة الحافلة بصُنُوف الموجودات ؛ وأنواع الآلات والأدوات ؛ وغرائب المصنوعات والمنسوجات ؛ وأكثرها مُستحدثٌ مُستطرفٌ لم تغبر فى وجهه عواصف البادية ؛ ولم تلوثه الإبل والأبقار بأبوالها وأرواثها ؟!! .

أليس من الظُّلم المبين وَالغَبَن الفاحش أن لا تضيق حاجاتهم عن لُغتهم فيتفكهوا بوضع خمسمائة اسمٍ للأسد وأربعمائة للداهية وثلاثمائة للسيف ومائتين للحيَّة وخمسين للناقة ؛ وتضيق لُغتنا عن حاجاتنا فلا نعرف لأداةٍ واحدةٍ من الآلاف المُؤلَّفة من أدوات المعمل الواحد اسماً عربيَّاً إلا قليلاً من أمثال المسبر والمبرد والمنشار والمسمار ؟!! .

أيكون لسفينة البَرِّ وهى لا تحمل إلا الرَّجُل أو الرَّجُل ورديفه مائتا اسمٍ لها ومئين من الأسماء لأعضائها وأوصالها ورحلها وكورها ؛ ولا يكون لسفينة البحر وهى المدينة المُتنقِّلة فى الدأماء قليلٌ من ذلك الحظِّ الكثير ؟!! .

كان لعرب الجاهليَّة الأُولى مؤتمرٌ لغوىٌّ يعقدونه فى كُلِّ عامٍ بالحجاز بين نخلة والطائف ؛ يجتمع فيه شُعراؤهم وخُطباؤهم ؛ يتناشدون ويتساجلون ويتحاورون ؛ ويعرضون أنفُسهم على قُضاةٍ من نوابغهم يوازنون بينهم ؛ ويحكمون لِمُبَرَّزِهِم على مُقَصِّرِهِم حُكماً لا يُرَدُّ ولا يُعارض ؛ ولقد شعروا بضرورة عقد هذا المؤتمر عندما أحسوا بتفرُّق لُغتهم بين اليمن والشام ونجد وتهامة لصعوبة التواصل فى تلك البقاع وَبُعْدِ ما بين قاصيها ودانيها ؛ فكان مطمح أنظارهم فى ذلك المجتمع توحيد لُغاتهم وجمع شتاتها والرُّجوع بها جميعها إلى لُغة قريش التى هي أفصح اللغات وأقربها مأخذاً وأسهلها مساغاً وأحسنها بياناً .

أيقدر هؤلاء العجزة الضُّعفاء فى جاهليتهم الأولى على ما نعجز عنه نحن ؟!! ؛ ونحن إلى مؤتمرهم أحوج منهم إليه !! ؛ لأن تفرُّق اللغات فى عصرهم لا يُمكن أن يبلغ مبلغ تفرُّقها فى عصرنا بين لُغات العامة المتباينة ؛ ولُغة العُلماء ؛ ولُغة الدواوين ؛ ولُغة القصاصين ؛ ولغة الصحافيين !! .

إن كان الجاهليون فى حاجةٍ إلى مُجتمعٍ لتوحيد اللغات المُتفرِّقة ؛ فنحن فى حاجةٍ إلى مجتمعات كثيرة :

مجتمع لجمع المُفردات العربيَّة المأثورة جميعها ؛ وشرح أوجه استعمالها الحقيقيَّة والمجازيَّة ؛ فى كتابٍ واحدٍ يقع الاتفاق عليه ؛ والإجماع على العمل به .

ومجتمع دائم لوضع أسماء للمُسمَّيات الحديثة ؛ سواء كانت أعياناً أو معانى ؛ بطريق التعريب ؛ أو النَّحت ؛ أو الاشتقاق الكبير أو الصغير .

وآخر للإشراف على الأساليب العربيَّة المُستعملة ؛ وتهذيبها وتصفيتها من المُبتذل السَّاقط ؛ والمُستغلق النافر ؛ والوقوف بها عند الحَدِّ الملائم للعصر الحاضر ولأذهان المعاصرين .

وآخر للمُفاضلة بين الكُتَّاب والشُّعراء والخُطباء ؛ ومُجازاة المُبَرَّز منهم والمُقَصِّر ؛ إن خيراً فخير ؛ وإن شرًّا فشر .

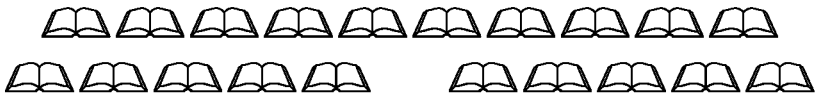

*-مَدْرَسَةُ الغَرَام

كنت لا أسأل الله تعالى إلا تقدم هذه الأُمَّة وارتقاءها وبُلوغها فى المدنيَّة مبلغاً يُؤهلها لمُجاراة الأُمم الغربيَّة فى عظمتها وسُلطانها ؛ فأصبحت أسأله ألا يستجيب دُعائى ؛ وألا يُنيلها من تلك المدنيَّة فوق ما أنالها !! .

أصبحت أعتقد أن مفاسد الأخلاق والمدنيَّة الغربيَّة شيئان مُتلازمان ؛ وأخوان مُتحابان ؛ لا افتراق لأحدهما عن صاحبه إلا إذا افترقت نشوة الخمر عن مرارتها ! ؛ فكيف أتمنَّاها لأُمَّةٍ هى أَعَزُّ علىَّ من نفسى التى بين جنبىَّ؟! .

قرأت حوادث الانتحار فى الغرب ؛ فقُلتُ : قومٌ ضعُفت قُلُوبهم عن احتمال حوادث الدهر وأرزائه ؛ فلم يستطيعوا الوقوف بين يديها وقفة الشُّجاع المستقتل ؛ ففرُّوا من وجهه إلى حيث يجدون الراحة الدائمة فى كسور القُبُور ؛ وما أكثر الجُبناء فى مواقف الحروب !! .

قرأت حوادث المُبارزة هُناك ؛ فقُلتُ : قومٌ عجزت يد المدنيَّة الحاضرة أن تستل من بين جُنُوبهم ما كانوا يعتقدونه فى عهد الهمجيَّة الماضية من أن العِرْضَ إناء إذا ألمَّ به القَذَى لا يغسله إلا الدم المسفوح ؛ وكثيراً ما أوردت العقائدُ النُّفُوسَ موارد الحُتُوف !! .

قرأت حوادث عُشَّاق الموتى الذين يتسللون تحت ستار الليل إلى المقابر فينبشُونها عن رُفَات الفتيات المقبُورات ؛ شوقاً إلى لَثْمَةٍ من خَدٍّ يرشح صديده !! ؛ أو رشفةٍ من ثغرٍ يتناثر دُودُه !! ؛ حتَّى إنه ليروقهم من منظر الساكنات تحت الرِّجَام (١)[٢٢] ؛ فوق ما يرُوقهم من منظر المقصورات فى الخيام !! .

وقرأت أن الحكومة طاردتهم عن أُمنيتهم ؛ وحالت بينهم وبين مواطن غرامهم ومعاهد عشقهم وهُيامهم ؛ فأرادوا أن يحتالوا على الإلمام بأولئك الموتى خيالاً لَمَّا فاتهم الإلمام بهم حقيقة ؛ فأنشئوا لأنفسهم تحت الأرض قاعة كُبرى كسوا حيطانها بالأستار السَّوداء ووضعوا فى وسطها صُندوقاً من صناديق المُوتى تنام فيه فتاةٌ حيَّةٌ ؛ تتصنَّع الموت باصفرار لونها ؛ وإسبال جُفونها ؛ وسُكون أعضائها ؛ وتعليق أنفاسها !! ؛ فإذا لجَّ بأحدهم الشوق إلى قضاء حاجةٍ من فتاةٍ ميِّتةٍ نزل إلى تلك القاعة السوداء ؛ وعالج مُخَيَّلته ؛ على أن يتصوَّرها قبراً مُظلماً مُوحشاً يضم بين أقطاره فتاةً ميِّتةً لا حراك بها ؛ فيُلم بها وهو يسمع نغمات الأحزان من قيثارةٍ أُعِدَّت وراء القاعة لتجسيم ذلك الخيال !! .

---

[٢٢] (١) ـ يُقال : لا تجْعَلُوا عَلَى قَبْرِى الرَّجَمَ : وَهِى الرِّجَام : يَعْنِى الحِجَارَة ؛ وَكَانُوا يجعلونها على الْقُبُور ؛ وَكَذَلِكَ هِىَ إِلَى اليَوْمِ حَيْثُ لا يُوجَد التُّرَاب .

قرأت هذا !! ؛ وقرأت أن من الناس ناساً فى تلك الديار تجاوزوا ذلك الحَدَّ إلى الغرام ببعض أنواع الحيوان !! ؛ حتى أنهم نصبوا لأنفُسهم مَوَاخِير خاصة يُلِمُّون فيها بالدجاج إلمام غيرهم بالنساء البغايا !! .

فقُلتُ : لا عجب فى ذلك !! ؛ وهل هو إلا فَنٌّ من فُنُون الجُنُون التى لا يجد المرء إلى حصرها سبيلاً !! .

إن كنتُ أغتفر للمدنيَّة الغربيَّة كُلَّ ذُنوبها ؛ فإنى لا أغتفر لها ذنبها فى مدرسة الغرام التى أنشأها قومٌ من الأمريكيين فى وسط مدينةٍ من مُدُن أمريكا ؛ ليُعلِّموا فيها النِّساء والرِّجال فُنُون الحُبِّ والمُغازلة جهرةً من حيث لا يرون فى ذلك بأساً !! ؛ ولا يجدون فيه مُتلوِّماً !! ؛ وقد وضعوا لها هذا البرنامج الآتى :

يوم الأحد : دروس استعداديَّة !! .

يوم الاثنين : الغزل !! .

يوم الثلاثاء : المُطارحة !! .

يوم الأربعاء : صناعة التقبيل والتجميش !! .

يوم الخميس : فلسفة الدلال والتصبِّى !! .

يوم الجمعة : انتقاء مواعيد اللقاء !! .

يوم السبت : الامتحان !! .

هذه هى المدرسة الغراميَّة !! ؛ وهذا نظامها !! ؛ فهل سمعت فى حياتك أن أُمَّةً من الأُمم المتوحِّشة ؛ التى يُسمُّونها بالأُمم البهيميَّة إشارة إلى ما بينها وبين البهائم من الشَّبه فى حُبِّ الشهوات والاستهتار فيها ؛ بلغت فى تهتُّكها وفساد أخلاقها مبلغ تلك الأمة التى يقولون عنها : إنها زهرة المدنيَّة الحديثة وتاجها المُرَصَّع ؟!! .

لماذا نُسمِّى قبائل الزُّنُوج قبائل متوحشة ؛ ونحن نعلم فيما نعلم من أخلاقهم أنهم لا يتركون عُزَّابهم ينامون وسط البيوت مخافة أن يكون لهم سبيل إلى مُخالطة النساء ؛ فيأخذونهم جميعاً إلى مكانٍ خاصٍّ بهم خارج القرية يبيتون فيه فوق هضبةٍ مُرتفعةٍ ينثرون حولها تُراباً مُعَبَّدَاً ؛ حتى إذا أراد أحدهم أن يختلس من ظلام الليل غِرَّةً نَمَّ أثرهُ عليه ؟!! ؛ كما نعلم أنهم يخيطون فُرُوج العذارى من نسائهم حتى لا يُحدِّث أحدٌ من الرِّجال نفسه بقرع ذلك الباب إلا مالكه وصاحب الحقِّ فيه ؟!! ؛ ولماذا نُسمِّى الأُمَّة الأمريكيَّة أُمَّة مُتمدينة وها هى تفتح المواخير باسم المدارس ؛ حتى لا تكون فى نفس

أحدٍ من الناس غَضَاضَةٌ فى دُخولها والأخذ بنصيبه من لذائذها وشهواتها !!.

إن كان توحُّش الأولين لإغراقهم فى صون الأعراض ؛ فالآخرون أكثر منهم توحُّشاً لإغراقهم فى هتكها وابتذالها ؛ والإغراق فى الخير خيرٌ من الإغراق فى الشَّر !! .

فيا أيُّها الزنجىُّ المسكين !! ؛ لقد ظلمك من سمَّاك مُتوحِّشاً !! ؛ ويا أيُّها الأمريكي المتوحِّش !! ؛ لقد كذبك من سمَّاك متمديناً !! .

أيها الزنجىُّ الأسود !! ؛ إن كُنتَ أسود اللون ؛ فالفضيلة أشرف عُنصراً من أن تتنزَّل لاعتبار السواد ذنباً تنفر منه وتأبى أن تأوى إليه !! ؛ وإن كُنتَ جاهلاً ؛ فهل استفاد صاحبك من علمه إلا إمتاع نفسه بشهواتها ولذائذها والتفنُّن فى فُجُور الحياة وَفُسُوقها تفنُّناً لا أحسبك تَحُنُّ إليه أو تتقطَّع نفسك حسرات عليه ؟!! ؛ وإن كُنتَ عارياً ؛ فربما لبست من الفضيلة ثوباً يحسدك عليه لو يعقل ذاك الذى يفخر عليك بخَزِّهِ وديباجه ؛ وَدِمَقْسِهِ وحريره !! .

وَلَو بِتُّمَا عِنْدَ قَدَرَيْكُمَا

لَبِتَّ وَأَعْلاكُمَا الأَسْفَلُ !! .

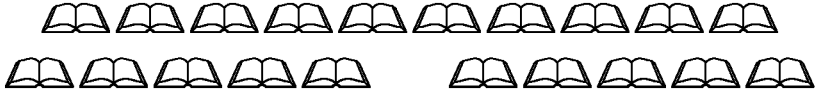

*- قَتِيلَةُ الجُوع !!

قرأت فى بعض الصُّحف مُنْذَ أيَّامٍ أَنَّ رجال الشُّرطة عثروا بجُثَّة امرأةٍ فى جبل المُقَطَّم ؛ فظنُّوها قتيلة أو مُنتحرة ؛ حتى حضر الطبيب ؛ ففحص أمرها ؛ وقرَّر أنها ماتت جُوعاً !! .

تلك أَوَّلُ مرَّةٍ سمعتُ فيها بمثل هذه الميتة الشَّنعاء فى مصر !! ؛ وهذا أول يومٍ سَجَّلَت فيه يَدُ الدَّهْرِ فى جريدة مصائبنا ورزايانا هذا الشقاء الجديد !! .

لم تمت هذه المرأة المسكينة فى مَفَازَةٍ مُنقطعةٍ أو بَيْدَاءٍ مُجْهَلٍ فنفزع فى أمرها إلى قضاء الله وقدره كما نفعل فى جميع حوادث الكون التى لا حول لنا فيها ولا حيلة ؛ بل ماتت بين سمع الناس وبصرهم وفى مُلتقى غاديهم برائحهم !! ؛ ولابُدَّ أنها مرَّت قبل موتها بكثيرٍ من المنازل تطرقها ؛ فلم تسمع مُجيباً !! ؛ ووقفت فى طريق كثيرٍ من الناس تسألهم المعونة على أمرها ؛ فلم تجد من يمد إليها يده بلُقمةٍ واحدةٍ تَسُدُّ بها جوعتها !! ؛ فما أقسى قلب الإنسان !! ؛ وما أبعد الرَّحمة من فؤاده !! ؛ وما أقدره على الوقوف موقف الثبات والصبر أمام مشاهد البؤس ومواقف الشقاء !! .

لِمَ ذهبت هذه البائسة المسكينة إلى جبل المُقطم فى ساعتها الأخيرة ؟!! ؛

لعلَّها ظنَّت أن الصخر ألينُ قلباً من الإنسان ؛ فذهبت إليه تَبُثُّهُ شكواها !! ؛ أو أن الوحش أقرب منه رحمةً ؛ فجاءته تستمنحه فضلة طعامه !! ؛ وأحسبُ لو أَنَّ الصَّخْرَ فهم شكواها لأَشْكَاهَا(١)[٢٣]!! ؛ ولو أَنَّ الوحش أَلَمَّ بسريرة نفسها لرثى لها وَحَنَا عليها !! ؛ لأنى لا أعرف مخلوقاً على وجه الأرض يستطيع أن يملك نفسه ودموعه أمام مشهد الجوع وعذابه غير الإنسان!! .

ألم يلتقِ بها أحدٌ فى طريقها ؛ فيرى صُفرة وجهها وترقرُق مدامعها ودُبول جسمها ؛ فيعلم أنها جائعة فيرحمها؟!!.

ألم يكن لها جارٌ يسمع أنينها فى جوف الليل ؛ ويرى غُدُوَّهَا وَرَوَاحَهَا حائرة مُلْتَاعَة فى طلب القُوت ؛ فيكفيها أمرها ؟!!.

أأقفرت البلاد من الخُبز والقُوت ؛ فلا يُوجد بين أفراد الأُمَّة جميعها من أصحاب قُصورها إلى سُكَّان أكواخها رَجُلٌ واحدٌ يملك رغيفاً واحداً زائداً عن حاجته ؛ فيتصدق به عليها؟!!.

اللَّهُمَّ لا هذا ولا ذاك ؛ فالمالُ وَالحَمْدُ لله كثيرٌ ؛ والخُبزُ أكثر منه ؛ ومواضع الخَلاَّت والحاجات باديةٌ مكشوفةٌ يراها الرَّاءون ويسمع صداها السامعون ؛ ولكنَّ الأُمَّة التى أَلِفَت ألا تبذل معروفها إلاَّ فى مواقف المُفاخرة والمُكاثرة ؛ والتى لا

---

[٢٣](١) ـ شكا إليه ؛ فأشكاه ؛ أى ؛ أرضاه ؛ وَقَبِلَ شكواه .

تفهم معنى الإحسان إلاَّ أنه الغُلُّ الثقيل الذى يُوضع فى رقاب الفُقراء لاستعبادهم واسترقاقهم ؛ لا يمكن أن ينشأ فيها مُحسنٌ مُخلصٌ يحمل بين جنبيه قلباً رحيماً !! .

لقد كان الإحسان فى مصر كثيراً فى عصر الاكتتابات والحفلاتِ وفى العهد الذى كانت تُسَجَّل فيه حسنات المُحسنين على صفحات الصُّحُف تسجيلاً يشهده ثلاثة عشر مليوناً من الشهود ؛ أما اليوم وقد أصبح كُلُّ امرئٍ موكولاً إلى نفسه ومسئولاً أمام رَبِّهِ وضميره أن يَتَفَقَّدَ جيرته وأصدقاءه وذوى رحمه ؛ وَيَتَلَمَّس مواضع خَلاَّتهم وحاجاتهم لِيُسَدَّهَا ؛ فهاهم الفُقراء يموتون جوعاً بين تلال الرِّمال وفوق شِعَافِ الجبال من حيث لا راحم ولا مُعين؟!!.

لقد كان فى استطاعة تلك المرأة المسكينة أن تسرق رغيفاً تَتَبَلَّغ به أو درهماً تبتاع به رغيفا ؛ فلم تفعل ؛ وكان فى استطاعتها أن تعرض عِرْضَهَا فى تلك السُّوق التي يعرض فيها أعراضهنَّ الفتيات الساقطات ؛ فلم تفعل ؛ لأنها امرأةٌ شريفةٌ تُفَضِّل أن تموت بحسرتها على أن تعيش بعارها ؛ فما أعظم جريمة الأُمَّة التى لا يموت فيها جوعاً غير شرفائها وَأَعِفَّائِهَا!! .

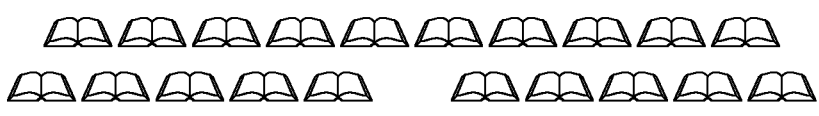

*- العَظَمَة

إن رأيتَ شاعراً من الشُّعراءِ أو عالماً من العُلماءِ أو نبيلاً فى قومه أو داعياً فى أُمَّتِهِ قد انقسم الناس فى النظر إليه وتقدير منزلته انقساماً عظيماً ؛ وانفرجت مسافة الخُلْفِ بينهم فى شأنه ؛ فافتتن بجُبِّهِ قومٌ حتَّى رفعوه إلى رُتْبَةِ المُلْك ؛ ودان ببُغضه آخرون حتى هبطوا به إلى منزلة الشَّيطان : فاعلم أنه رَجُلٌ عظيم.

العظمةُ أمرٌ وراء العِلْمِ والشِّعر والإمارة والوزارة والثروة والجاه ؛ فالعُلماء والشُّعراء والنُّبلاء كثيرون ؛ والعُظماء منهم قليلون ؛ وإنما هىَ قُوَّةٌ رُوحيَّةٌ موهوبةٌ غير مُكتسبةٍ تملأ نفس صاحبها شُعُوراً بأنه رَجُلٌ غريبٌ فى نفسه ومزاج عقله ونزعات أفكاره وأساليب تفكيره ؛ غير مطبوعٍ على غِرَارِ الرِّجَال ؛ ولا مَقْدُود على مثالهم ؛ ولا داخل فى كُلِيَّةٍ من كُلِيَّاتهم العامة ؛ فإذا نزلت نفسه من نفسه هذه المنزلة ؛ أصبح لا ينظر إلى شىءٍ من الأشياء بعين غير عينه ؛ ولا يسمع بِأُذُنٍ غير أُذنه ؛ ولا يمشى فى طريقٍ غير الطريق التى مَهَّدَهَا بيده لنفسه ؛ ولا يجعل لعقلٍ من العُقُول مهما عَظُمَ شأنه وشأن صاحبه سُلطاناً عليه فى رأيٍ أو فكرٍ أو مُشايعةٍ لمذهبٍ أو مُنَاصَبَةٍ لطريقة ؛ بل يرى لِشِدَّة ثقته بنفسه وعلمه بضعف ثقة الناس بنفوسهم أن حَقّاً على الناس جميعاً أن يستقيدوا له وينزلوا على حُكمه وَيَتَرَسَّمُوا مواقع أقدامه فى مذاهبه ومراميه ؛ فترى جميع أعماله وآثاره غريبة

نادرة بين آثار الناس وأعمالهم ؛ تُبهر العيون ؛ وتدهش الأنظار ؛ وتملأ القُلُوب هَيْبَةً وَرَوْعَةً ؛ فإن كان شاعراً كان مُبتكراً فى معانيه أو طريقته ؛ أو كاتباً أخذ على النُّفُوس مشاعرها وأهواءها ؛ أو فقيهاً هدم من المذاهب قديماً وبنى جديداً ؛ أو مَلِكاً شغل من صفحات التاريخ ما لم يشغله مَلِكٌ سواه ؛ أو وزيراً سَاسَ أُمَّتَهُ بسياسةٍ جديدةٍ لا عهد لهم بمثلها ؛ أو قائداً ضرب الضربة البِكْر التى تُردِّدُ الآفاقُ صداها.

تلك هى العظمة ؛ وهذا هو الرَّجُل ؛ ومن كان هذا شأنه كان فتنة الناس فى خلواتهم ومُجتمعاتهم ؛ وَمُعْتَرَك أنظارهم وأفهامهم ؛ وَمَثَار الخُلْف والشِّقاق فيما بينهم فى اسْتِكْنَاهِ أمره وتقدير منزلته ؛ فيُعجب به الذين فُطِرُوا على الإعجاب بِكُلِّ غريبٍ والافتتان بِكُلِّ جديدٍ ؛ حتى ينتقل بهم الإعجاب به إلى الافتتان بأقواله وأفعاله وحركاته وسكناته ؛ والإغراق فى حُبِّهِ والمُشَايَعَة له وَالسَّيْرِ بعجائبه وغرائبه فى كُلِ صِقْعٍ وَنَادٍ ؛ فيقع ذلك من نُفُوس مُناظريه وحاسديه والمتمردين على عبقريته ونبوغه موقعاً غير جميل ؛ فلا يجدون لهم بُدَّاً من مُقابلة الإغراق فى حُبِّهِ بالإغراق فى بُغْضِهِ على قاعدة المَشَادَة والمُعاندة ؛ وهُنالك تحتَدِم المعركة الهائلة بين أنصاره وخُصومه ؛ فيهاجمه هؤلاء يحاولون استلاب عظمته منه ؛ ويُناضل عنه أولئك يُريدون استبقاءها فى يده ؛ وهو واقفٌ بينهم يُدير أنظاره

فيهم ؛ هانئاً مُغتبطاً لا يحزن ولا يبتئس ؛ لأنه يعلم أن جميع هذه الأصوات الصارخة المُختلطة حوله إنما هى أَبْوَاقُ شُهرته وعظمته.

لا أُريد أن أَقُول : إِنَّ الرَّجُل العظيم مُصِيبٌ فى كُلِّ ما يرى وما يفعل وما ينتهج لنفسه وللناس من سُبُلِ الحياة ؛ فربما كان من هو أضعف منه قُوَّةً وَأَخْمَلُ ذِكْرَاً أَسَدَّ منه رأياً وأصدقَ نظراً ؛ وإنما أُريد أن أَقُول : إِنَّ أحداً من الناس لا يستطيع أن يشغل أقلام الكُتَّاب وَعُقُول المُفكِّرين وألسنة النَّاطقين وَقُلُوب المُحِبِّين والمُبغضين ؛ إِلاَّ الرَّجُل العظيم.

أَحَبَّ عَلِيَّاً قومٌ حتى كفروا بِحُبِّه ؛ وأبغضه آخرون حتى كفروا ببُغضه !! ؛ وسمَّى بعض الناس أبا بكر وعمر شيخى المسلمين ؛ وأنكر بعضهم صُحبتهما وإخلاصهما !! ؛ وعاش مُحيى الدِّين بن العربىّ بين فئةٍ تراه قُطب الأولياء وأُخرى تراه شيخ المُلحدين !! ؛ وَاغْتَبَطَ فريقٌ من المُسلمين بابن رُشْد فَسمُّوه فيلسوف الإسلام وَنقِمَ عليه فريقٌ فملئوا وجهه بُصَاقَاً فى المسجد الجامع!! ؛ وسمَّى قومٌ صاحب كتاب ((الإحياء)) حُجَّة الإسلام ؛ وَمَزَّقَ آخرون كتابه وَنَثَرُوهُ فى مَهَابِّ الرِّيح!! ؛ وعاش المَعرِّى بين رضا الرَّاضين عنه وَنِقْمَة النَّاقمين عليه ؛ يَلْثُمُ الأوَّلُون مَوَاطِئ قدميه ؛ ويسحبه الآخرون على وجهه فى الطُّرقات العامة !! ؛ وَشَرِبَ سُقْرَاط كأسَ السُّمِّ بين أفواهٍ باسمةٍ شماتةً به ؛ وَعُيُونٍ دامعةٍ حُزْنَاً عليه !! ؛ وجرت الأقلام بمدح المُتنبِّى تارةً فإذا هو سَيِّد الشُّعراء ؛ وبذمِّه أُخرى

فإذا هو أكبر المُتكلِّفين !! ؛ ورفع قومٌ شكسبير إلى مرتبة الكمال الإنسانيِّ فقالوا : نابغة الدهر ؛ وهبط به آخرون إلى أدنى منازل الخِسَّة والدَّناءة فقالوا : المُنتحل الكذَّاب !! ؛ وافتتن المفتتنون بنابليون الأوَّل فعلوا به إلى رُتبة الأنبياء ؛ وتنكَّر له خُصُومه وأعداؤه فسلكوه فى سلك الحمقى والمَمْرُورِين !! ؛ وذاق كُلٌّ : من لوثر ؛ وكالفين ؛ وجليلو ؛ وفولتير ؛ ونيتشه ؛ وتولستوى كأسى الحُبِّ والبُغض فى حياته وبعد مماته إلى القطرة الأخيرة منهما ؛ وما انقسم الناس فى هذا البلد فى هذا العصر فى شأن رَجُلٍ من الرِّجَال انقسامهم فى شأن : جمال الدين ؛ ومحمد عبده ؛ وسعد زغلول ؛ ومصطفى كامل ؛ وقاسم أمين.

وما كان واحدٌ من هؤلاء جميعاً بالمنزلة التى يرفعه إليها المُغْرِقُون فى حُبِّهِ ؛ أو ينزل به إليها الغالون فى بُغْضِه ؛ ولكنهم كانوا قوماً عُظماء ؛ فانقسم الناس فى شأنهم وذهبوا فى أمرهم هذه المذاهب البعيدة المُترامية ؛ ولا ينقسم الناس هذا الانقسام العظيم إلا فى شأن الرَّجُل العظيم.

ليس معنى الوجود فى الحياة أن يتخذ المرء لنفسه فيها نَفَقاً يتَّصل أوَّله بباب مَهْدِهِ وآخر بباب لَحَدِهِ ؛ ثم ينزلق فيه انزلاقاً من حيث لا تراه عينٌ ولا تسمع دَبِيبَهُ أُذُنٌ حتى يبلغ نهايته كما تفعل الهَوَامُ والحشرات والزَّاحفات على بُطُونها من بنات الأرض ؛ وإنما الوجُود : قَرْعُ الأسماع ؛ واجتذابُ الأنظار ؛ وتحريكُ أوتار القُلُوب ؛ واستثارةُ الألسنة الصامتة ؛ وتحريكُ الأقلام الرَّاكِدَة ؛ وَتَأْرِيثُ نار الحُبِّ

فى نُفُوسِ الأخيار ؛ وجمرة البُغض فى قُلُوبِ الأشرار ؛ فَعُظماء الرِّجال أطول الناس أعماراً وإن قصُرت حياتهم ؛ وأعظمهم حظّاً فى الوجُود وإن قَلَّت على ظهر الأرض أيَّامهم.

العظمة كالحقيقة ؛ يخدمها أعداؤها وأصدقاؤها ؛ ويحمل أحجار هيكلها على رُءوسهم هادموها وبُناتُها ؛ فحيث ترى سواد الأعداء فهُناك سواد الأصدقاء ؛ وحيث ترى الفريقين مُجتمعين فى صعيدٍ واحدٍ فاعلم أن العظمة ماثلةٌ على عرشها العظيم فوق أعناقهم جميعاً.

العظمة قصرٌ مَشِيدٌ مرفوعٌ على سَارِيَتَيْن منحوتتين من حُبِّ الناس وبغضائهم ؛ فلا يزال ذلك القصر ثابتاً فى مكانه لا يتزعزع ولا يَتَحَلْحَلُ ما بقيتا فى مكانهما ؛ فإذا سقطت إحداهما عجزت الأُخرى عن الاستقلال به فسقطت بجانب أُختها ؛ فسقط هو بسقوطهما.

لا يُعْجِبَنَّكَ أن يتفق الناس جميعاً على حُبِّك ؛ لأنهم لا يتفقون إلا على حُبِّ الرَّجُلِ الضعيفِ المَهِين الذى يتجرَّد لهم من نفسه وعقله ورأيه ومشاعره ؛ ثم يَقْعَى على ذَنَبِهِ تحت أقدامهم إِقْعَاءَ الكلب الذليل يضربونه فيصطبر لهم ؛ ويعبثون به فَيُبَصْبِص بِذَنَبِهِ طلباً لرضاهم ؛ ويهتفون به فيقترب ؛ ويزجرونه فيزدجر.

ولا يُعْجِبَنَّكَ أن يتفقوا على بُغضك ؛ لأنهم لا يتفقون إلا على بُغض الخُبثاء الأشرار الذين لا يُحِبُّون أحداً من الناس ؛ فلا يُحِبُّهم من الناس أحد .

وَلْيُعْجِبَنَّكَ أن يختلفوا فى شأنك وينقسموا فى أمرك ويذهبوا فى النَّظر إليك وتقدير منزلتك كُلَّ مذهبٍ ؛ فتلك آية العظمة ؛ وذلك شأن الرَّجُل العظيم .

كُن القائد الذى تَعْتَرِك الجيوش حوله من بين ذَائِدٍ عنه وَعَادٍ عليه ؛ ولا تكُن الجُندىَّ الذى يُسْفَكُ دَمُهُ ليُسقى به دَوْحَة العظمة التى ينعم فى ظلالها القائد العظيم .

كُن النَّاطق الذى تحمل الرِّيح صوته إلى مشارق الأرض ومغاربها ؛ ولا تكن الرِّيح التى تختلف إلى آذان الناس بأصوات الناطقين من حيث لا يَأْبَهُونَ لها ؛ ولا يعرفون لها يدها عندهم .

كُن النَّبتة النَّضِرَة التى تَعْتَلِج ذَرَّات الأرض فى سبيل نُضرتها ونمائها ؛ ولا تكُن الذَّرَّة التى تطؤها الأقدام ؛ وتدوسها الحَوَافِر وَالأَخْفَاف .

كُن زعيم النَّاس إن استطعت ؛ فإن عجزت فكن زعيم نفسك ؛ ولا تطلب العظمة من طريق التشيُّع للعُظماء والتلصُّق بهم أو مُنَاصَبَتِهِم العداء والوقوف فى وجههم ؛ فإن فعلت كنت التابع الذليل ؛ وكانوا الزُّعماء الأعزَّاء .

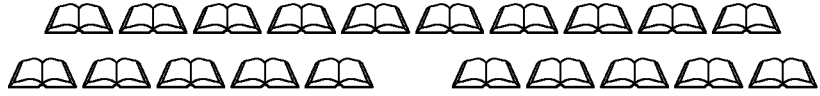

*- حُرِّيَةُ الانْتِقَاد

سألنى بعض الأصدقاء عن رأيى فى الانتقاد ؛ وشروطه ؛ وحدوده ؛ وآدابه ؛ وواجباته ؟ .

ورأيى فيه ألا شروط له ولا حدود ولا آداب ولا واجبات ؛ وَأَنَّ لِكُلِّ كاتبٍ أو قائلٍ الحَقُّ فى نقد ما يشاء من الكلام ؛ مُصيباً كان أم مخطئاً ؛ محُقّاً أم مُبطلاً ؛ صادقاً أم كاذباً ؛ مخُلصاً أم غير مخلص ؛ لأن النقد نوعٌ من أنواع الاستحسان والاستهجان ؛ وهما حالتان طبيعيتان للإنسان لا تَنْفَكّان عنه من صرخة الوضع إلى أَنَّةِ النَّزْع ؛ وَكُلُّ ما هو طبيعىٌّ فهو حَقٌّ لا ريبة فيه ولا مِرَاء ؛ فإن أصاب الناقد فى نقده فقد أحسن إلى نفسه وإلى الناس ؛ وإن أخطأ فسيجد من الناس من يَدُلُّهُ على موضع الخطأ فيه ويُرشده إلى مكان الصواب منه ؛ فلا يزال يتعثَّر بين الصواب والخطأ حتى يستقيم له الصواب كُلُّه .

فإن أَبَيْنَا عليه أن ينتقد إلا إذا كان كُفْؤاً فى علمه ؛ ومخُلصاً فى عمله ؛ كما يشترط عليه ذلك أكثر الناس : فقد أَبَيْنَا عليه أن يخُطَّ سطراً واحداً فى الانتقاد ؛ وقضينا على ذهنه بالجُمُود والموت ؛ لأنَّا لا نعرف لهاتين الصفتين حُدُوداً مُعيَّنةً واضحةً ؛ فَكُلُّ ناقدٍ يزعمهما لنفسه ؛ وَكُلُّ مُنْتَقَدٍ عليه يجُرِّد ناقده منهما ؛ ومتى سمح الدَّهْرُ لعاملٍ من العاملين بالإخلاص المجُرَّد فى عمله فيسمح به لجماعة الناقدين ؟!! .

على أن النَّاقد النَّاقم لا تمنعه نقمته من أن يكون مُصيباً فى بعض ما يقول ؛ لأنه لم يأخذ على نفسه عهداً أن يختلق جميع المآخذ التى يأخذها وألا يكتب إلاَّ الباطل والمُحال ؛ وإنما هو رَجُلٌ عَيَّابٌ بالحقِّ وبالباطل ؛ فهو يُفَتِّش عن السيئات الموجودة حتى يفرغ منها فيلجأ إلى السيئات المُخْتَلَقَة ؛ ولقد كُتِبَ أوَّل نقدٍ فى التاريخ بِمَدَادِ الضغينة والحقد ؛ فقد كانت تُوجد فى عهد اليُونان القديم طائفةٌ من الشُّعراء يجوبون البلاد ؛ ويتغنون بالقصائد الحماسيَّة والأناشيد الوطنيَّة فى الأسواق والمجتمعات ؛ وبين أيدى الأُمراء والعُظماء ؛ فيُكرمهم الناس وَيُجْزِلُونَهُم إجلالاً عظيماً ويجزلون لهم العطايا وَالهِبَات ؛ فَنَفِسَ عليهم مكانتهم هذه جماعةٌ من مُعاصريهم من الذين لا يطوفون فى البلاد طوافهم ؛ ولا يحظون عند المُلوك والعُظماء حُظوتهم ؛ فأخذوا يعيبونهم ويكتبون الكُتُب فى نقد حركاتهم وأصواتهم ومعانى أشعارهم وأساليبها ؛ وكان هذا أوَّل عهد العالم بالنَّقد ؛ والفضل فى ذلك للضغينة والحقد ؛ فلرذيلة الحقد الفضل الأول فى وجود الانتقادِ وَبُزُوغ شمسه المُنيرة .

كذلك لا يمنع الجاهل جهله من أن يكون رأيه فى مثل هذا الموضع رأياً صائباً ؛ لا ؛ بل ربما كان شعوره بحُسْنِ الكلام وَقُبْحِهِ - متى رُزِقَ حظّاً من سلامة الذَّوق واستقامة الفهم - أصح من رأى الأديب المُتَكَلِّف الذى يَتَعَمَّل النَّقد تَعَمُّلاً ؛ ويتعمَّق التعمُّق كُله فى التفتيش عن حسنات الكلام وسيئاته حتى يضل

عنها ؛ وَرُبَّ ابتسامةٍ أو تقطيبةٍ يُمرَّان بوجه السامع العامىِّ عفواً أنفع للأديب حين يراهما وأعون له على معرفة مكان الحسنة والسيئة من كلامه من مُجلَّدٍ ضخمٍ يكتبه عالمٌ مُضطلعٌ بالأدب واللُّغة فى نقد شعره أو نثره ؛ وإذا كان من الواجب على كُلِّ شاعرٍ أو كاتبٍ أن ينظم أو يكتب للأُمَّة جميعها خاصتها وعامتها ؛ فلِمَ لا يكون من حَقِّ كُلِّ فردٍ من أفرادها مُتعلِّماً كان أو جاهلاً أن يُدْلِى برأيه فى استحسان ما يستحسن من كلامه ؛ واستهجان ما يستهجن منه ؟!! .

وهل رفع العُظماء من رجال الأدب إلى مواقف عظمتهم وسجَّل لهم أسماءهم فى صُحُفِ المجد إلا منزلتهم التى نزلوها من نُفُوس السَّواد الأعظم من الأُمَّة ؛ والمكانة التى نالوها بين عامتها وَدَهْمَائِهَا ؟!! .

وبعد ؛ فلا يَتَبَرَّم بالنَّقد ولا يضيق به ذَرْعَاً إلاَّ الغبىُّ الأَبْلَهُ الذى لا يُبالى أن يفهم الناس سيئاته بينهم وبين أنفسهم ؛ ويُزعجه كل الإزعاج أن يتحدَّثوا بها فى مجامعهم ؛ ولا فرق بين فهمهم إيَّاها وحديثهم عنها ؛ أو الجَبَانُ المُسْتَطَارُ الذى يخاف من الوَهْمِ وَيَفْرَقُ من رُؤية الأشباح ؛ ولو رجع إلى أَنَاتِهِ وَرَوِيَّتِهِ ؛ لَعَلِمَ أن النَّقد إن كان صواباً فقد دَلَّهُ على عُيُوب نفسه فاتَّقاها ؛ أو خطأً فلا خوف على سُمعته ومكانته منه ؛ لأن الناس ليسوا عَبِيد الناقدين ولا أسراهم ؛ يأمرونهم بالباطل فَيُذْعِنُون ؛ وَيَدْعُونَهُم إلى المُحال فَيَتَّبِعُون ؛ ولئن استطاع أحدٌ أن يخدع أحداً فى كُلِّ شىءٍ ؛ فإنه لا يستطيع أن يخدعه فى شُعور نفسه بجمال الكلام أو

قُبحه ؛ ولو أن الأَصْمَعِيَّ وأبا عُبَيْدَة وأبا زيد والمُبَرِّد والجاحظ والقَالى وقُدامة وابن قُتيبة والآمدىَّ وأبا هلال والجرجانىَّ بُعِثُوا فى هذا العصر من مراقدهم ؛ وتكلَّفُوا أن يَذُمُّوا قصيدةً يحُبُّها الناس من شعر شوقى مثلاً لما كرهوها ؛ أو يمدحوا مقالةً يستثقلها الناس من نثر ((فُلان)) لما أحبُّوها ؛ فالحقيقةٌ موجودةٌ ثابتةٌ لا سبيل للباطل إليها ؛ فهى تختفي حيناً أو تتنكَّر أو تتراءى فى ثوبٍ غير ثوبها ؛ ولكنها لا تنمحى ولا تزول .

فلتنطلق ألسنةُ الناقدين بما شاءت ؛ ولتتسع لها صُدُور المُنتقدين ما استطاعت ؛ فقد حُرِمْنَا الحُرَّية فى كُلِّ شأنٍ من شُئُون حياتنا ؛ فلا أقل من أن نتمتَّع بحُرِيَّة النَّظر والتفكير !! .

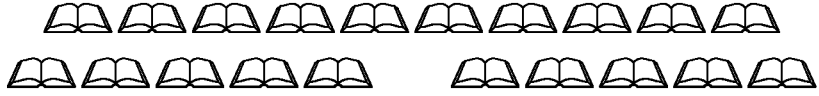

*- المَوْتَى

- مُتَرْجَمَة -

دَقَّت أجراس المساء تنعى اليوم الرَّاحل ؛ وَتَنْدُبُ جماله الزَّائل ؛ وأخذت قُطعان الماشية تعود من مراعيها إلى حظائرها ؛ ومشى وراءها رُعاتها يَهُشُّون عليها بِعصِيِّهم لا يُريدون بها شَرًّا ولا أذىً لأنهم يحِبُّونها وَتُحِبُّهم ؛ بل يخافون عليها الضلال ؛ فهم يهدونها الطريق ؛ وَمَدَّ الظلامُ رُواقَهُ الأسود على جسم الطبيعة المُنبسطة كأنما ظَنَّ أنها تنام كما ينام البشر ؛ فهو يقيها بَرْدَ الليل وَغَائِلَتَه ؛ وساد سُكُونٌ رهيبٌ فى تلك الأنحاء ؛ فلا يُسمع إلا صوت البُلْبُل يشكر للقمر ما أهدى إلى جناحيه من أشعةٍ مُتلألئة ؛ وَنَعِيب البوم يُمِدُّ صوته بالشَّكوى إلى الله تعالى فى سمائه ؛ وما شكاته إلا أن بعض السائحين يَطَئُونَ أرضه وينتهكون حُرمة خرباته المُقدَّسة ؛ وهُنالك تحت ظلال الأشجار الضخمة اليابسة رقد أسلاف سُكَّان تلك المزرعة تحت أعماق الأرض رقدةً طويلةً ؛ بل أكثر من طويلةٍ لأنها لا نهاية لها !! ؛ فلا نسمات الصباح الباردة ؛ ولا تغريد الطُّيُور الصَّادِحَة ؛ ولا صياح الديكة ؛ ولا رنين الأجراس ؛ ولا هُتَاف الرُّعاة : يوقظهم من رقدتهم هذه !! .

أسفى عليهم !! ؛ لقد أمسوا ولا نيران تُوقَد فى أكواخهم ؛ ولا زوجات صالحات يذهبن يجئن فى تهيئة طعام عشائهم ؛ ولا صِبْيَة صغاراً يستقبلونهم عند عودتهم ليُقبِّلُوهم ويستقبلوا قُبُلاتهم ؛ أولئك الرُّقُود الهامدون كانوا بالأمس

أشدَّاء أقوياء ؛ تُمُدُّ السنابل أعناقها خاضعة لمناجلهم ؛ وَيَئِنُّ ظهر الأرض وبطنها تحت وطأة محاريثهم ؛ وترتعد جُذوع الأشجار الضخمة فَرَقَاً من ضربات فُئُوسهم!! .

أولئك الوجُوم الصامتون كانوا بالأمس فرحين مستبشرين يرقصون ويغنُّون ؛ ويجدون السعادة فى كُلِّ شىءٍ يحُيط بهم ؛ فيطربون لوقع حوافر ماشيتهم على الحصباء كأنما يسمعون قيثارة مطربة !! ؛ ويجدون فى ضجعتهم فوق الأعشاب اليابسة الرَّاحة التى يجدها أصحاب الأَسِرَّة فوق مهادهم الوثير !! ؛ ويشعرون فى تناولهم اللقمة الجافة السوداء بعد الجُوع باللذة التى يشعر بها الأغنياء عند تناولهم ألوان الطعام الشَّهِيِّ حول موائدهم !! ؛ ويغترفون بأكُفِّهم الماء من الأنهر والخلجان فيتلذَّذون بِارْتِشَافِهِ كأنما يتناولون صافية الصَّهْبَاءِ فى كُئُوس البلور والذهب !! .

أولئك الخاملون المغمورون الذين لم تُنصب لهم التماثيل ؛ ولم تُرفع فوق قُبُورهم القِبَاب : كانوا فى حياتهم شُرفاء عُظماء ؛ لأنهم كانوا مُتحابِّين مُتآخين ؛ لا يحسد فقيرهم غنيهم ؛ ولا يبغى قويهم على ضعيفهم ؛ ولا يحقدون ؛ ولا يغدرون ؛ ولا يخافون شيئاً حتى الموت ؛ ولا يعبدون إلهاً إلا الله .

كذلك كانوا بالأمس ؛ واليوم طواهم الرَّمْس ؛ فرحمةُ الله عليهم يوم كانوا على ظهر الأرض وبعدما أصبحوا فى بطنها !! .

فَلْيَجْثُ فوق رمال هذه القُبُور المُبعثرة وبين صفائحها المُتهدِّمة المُتساقطة أربابُ المطامع فى الحياة وطُلاَّب المجد والعظمة ؛ خاشعين مُستكينين خافضى رءوسهم إجلالاً وإعظاماً ؛ وليُمسكوا قليلاً عن الإدلال بِعِزِّهِم وجاههم والمُكاثرة بفضتهم وذهبهم ؛ وَلْيُخفُّوا فى أعماق نُفُوسهم ابتسامات الهُزْء والسُّخرية المُترقرقة على شفاههم ؛ وليعلموا أن طريق المجد والعظمة التى يسيرون فيها وإن كانت مُخضرَّة جميلة مفروشة بالأعشاب محفوفة بالأزهار الأَرِيجَة : فإنها تُؤدِّى فى نهايتها إلى هذا المصير الذى صار إليه هؤلاء المَقْبُورُون !!.

أيها النَّاعمون فى عيشهم !! ؛ المُدِلُّون بعزِّهم وجاههم !! ؛ المُفتخرون بقُوَّتهم وجمالهم !! : لا تحتقروا هؤلاء المقبُورين المساكين إن رأيتم أَجْدَاثَهُم مُشَعَّثَة بالية وَقِبَابَهُم مُتَهَدِّمَة خَاوِيَة ؛ ولم تروا أسماءهم منقوشة بأجمل الألوان وأزهاها على صفائح قبورهم ؛ وأصغوا قليلاً تسمعوا آيات مدحهم والثناء عليهم تُردِّدُها الجداول وَالغُدْرَان والحقول والمُرُوج والطُّيُور المُغَرِّدَة فوق أعالى الأشجار ؛ وَالسَّوَائِم الهائمة على ضفاف الأنهار !! ؛ فهم أصحاب اليد التى رَصَّعَت التاج للملك ؛ وصنعت السيف للقائد ؛ ونسجت المُسُوح للرَّاهب ؛ وبنت القُصُور للأُمراء ؛ وصاغت الحُلِىَّ للأميرات ؛ وغرست العُشْبَ للسَّائِمَة ؛ ووضعت الحَبَّ للطائر ؛ وَهَيَّأت للأحياء جميعهم ناطقهم وصامتهم طعامهم وشرابهم ؛ وَدِثَارَهُم وَمِهَادَهُم .

أيُّها القوم العُظماء !! : لا تُخَلِّد التماثيل المنصوبة غير ذكرى ناحتيها ؛ ولا تَطْمِس السُّطور الذهبيَّة المنقوشة فوق صفائح القُبُور سُطُور السيئات التى يخُطُّهَا التاريخ فى صفحاته ؛ ولا تسمع آذان الموت الصَّمَّاء نغمات المَلَق المُتردِّدة فى أناشيد الرِّثاء !! .

رُبَّ يدٍ تحت هذه الأرض لو أُتِيحَ لها الحظ فى حياتها لكانت يد العازف الذى يُشَنِّف الآذان ؛ أو يد البطل الذى يَهُزُّ العُرُوش ويزعزع التيجان ؛ أو يد الشاعر الذى يُثير الأشجان ويبعث إلى القُلُوب السُّرور والأحزان ؛ وَرُبَّ قلبٍ فى هذه الحفائر المُظلمة لو عاش فى جَوٍّ غير هذا الجو ؛ وعالمٍ غير هذا العالم : لكان قلب ملكٍ عظيمٍ مملوءاً بالآمال العظام ؛ والأمانى الجِسَام ؛ أو قلب زعيمٍ جرىءٍ يُحاسب الظالمين على ظُلمهم ؛ وَيَذُود النَّوم عن أجفانهم ؛ أو قلب نائبٍ كبيرٍ يستهوى ببلاغته القُلُوب وَيَسْتَرْعِى الأسماع ؛ فَتُدَوِّى له بالتصفيق قاعة مجلس النُّوَّاب أو قاعة مجلس الشُّيُوخ !! .

كم من لُؤلؤةٍ لم تعثر يدُ الغَوَّاص بها ؛ فظلَّت دفينةً بين صدفتيها !! ؛ وكم من زهرةٍ أَرِيجَةٍ لم تتفتَّح حتَّى هَبَّت عليها رياحُ الصحراء المُحرقة فأذبلتها !! ؛ وكم من مَاسَةٍ وَضَّاءَةٍ عجز المُعَدِّنُون عن استخلاصها من معدنها ؛ فانطفأ نُورها فى منجم الفجم المُظلم !! ؛ وكم من قَرِيحَةٍ وَقَّادَةٍ لم تُصْقِلْهَا العُلُوم

والتجاريب ؛ فعاشت مُغْفَلَة مُهملة حتى انطفأت ؛ ولو أنها صَقَلَتْهَا لغيَّرت وجهَ الكون وبدَّلت الأرض غير الأرض !! .

نعم !! ؛ كان بين هؤلاء القرويين المقبُورين من كان له قلبٌ كقلب ((همبدن)) إلا أن التاريخ لا يعرفه !! ؛ ومن كان له لسانٌ كلسان ((ملتن)) إلا أنه لم يُنصب له تمثال !! ؛ ومن كانت له هِمَّةٌ كَهِمَّة ((كروموبل)) إلا أنه لم يَقُد الجيوش !! ؛ ولكنَّهم عاشوا فى هذه الفَلَوات المُنقطعة عن العِلْمِ والحضارة ؛ فدفن الجهلُ مواهبهم ؛ وأخمد الفقر نار ذكائهم وفهمهم ؛ فمرُّوا بهذه الدُّنيا لم يشعر بهم أحد ؛ ثم ماتوا ولم يذكرهم أحد !! .

هنيئاً لهم جهلهم وَخُمُولَهُم !! ؛ فلو أنهم كانوا عُظماء لقضوا أيَّام حياتهم يسفكون الدِّماء ويُمزِّقون الأشلاء ويغتالون حُقُوق الضُّعفاء ؛ سعياً وراء أغراضهم ومطامعهم ؛ لا !! ؛ بل إنهم كانوا عُظماء ؛ ولكنهم بريئون من آثام العظمة وجرائمها !! .

رحمةُ الله عليهم !! ؛ لقد ذهبوا ولم يبق لهم من بعدهم مما يَدُلُّ عليهم سوى حجرٍ قديمٍ مُلقىً فى طريق مقبرتهم ؛ قد كُتِبَ عليه بخطٍّ سقيمٍ هذا البيت البسيط من الشِّعر :

أَيُّهَا المَارُّ فِى هَذَا المَكَانِ احْتَرِم تُرْبَتَهُ

وَلا تَطَأ بِقَدَمَيْكَ رُفَاتَ المَوْتَى .

هذا كُلُّ ما طَمِعُوا فيه من شُئُونِ الحياة بعد موتهم ؛ لم يطلبوا تمثالاً يُقام لهم ؛ ولا قُبَّةً تُرفع فوق أضرحتهم ؛ ولا صفحةً من صفحات التَّاريخ تُخَلِّد فيها أعمالهم ؛ بل لم يطلبوا طاقة زَهْرٍ تُؤنس مضجعهم ؛ ولا قطرة غَيْثٍ تَبُلُّ ثَرَاهُم ؛ فما كان أقنعهم وأزهدهم !! .

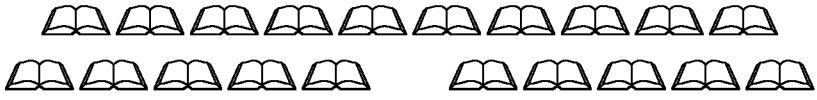

*- الخُطْبَةُ الصَّامِتَة

لَمَّا بلغ أمير المؤمنين عبد الله بن الزُّبَيْر نعىُ أخيه مُصعب بن الزُّبَيْر أمير العراق ؛ صعد المِنْبَر ؛ فجلس عليه ؛ ثُمَّ سكت !! ؛ فجعل لونه يحَمَرُّ مرَّةً ويصفرُّ أُخرى !! ؛ فقال رَجُلٌ من قُريش لآخر بجانبه : ما له لا يتكلم ؛ فوالله إنه للخطيب اللبيب ؟!! ؛ فقال له الرَّجُل : لعله يريد أن يذكر مقتل سيِّد العرب فيشتد ذلك عليه ؛ وغيرُ مَلُومٍ إن جَزِع !! .

ووقف ليلة أمس سعد باشا زغلول فى حفلة تَأْبِينِ أخيه فتحى باشا زغلول وأراد أن يقول كلمةً قصيرةً يشكر فيها القائمين بتلك الحفلة ؛ فاختنق بالبُكاءِ وَاُرْتِجَ عليه وهو الرَّجُلُ الجَلِدُ الشُّجَاعُ الذى ما جَزِعَ فى حياته قط ؛ والخطيب المُفَوَّه الذى ما اُرْتِجَ عليه مرَّةً فى أصعب المواقف وأحرجها وأذهبها بالعُقُول والألباب !! ؛ فما أشبه هذا البطل الباكى بذلك البطل الجازع !! .

وكذلك عُظماء الرِّجَال يَضِنُّون بدموعهم على نكبات الدَّهْرِ وَأَرْزَائِهِ أَنَفَةً وَإِبَاءً ؛ حتَّى إذا نزلت بهم كارثةٌ من الكوارث التى لا أمر فيها إلا لله وحده ؛ لا يستحيون أن يقفوا بين يديه باذلين من شُئُونهم ما كانوا يضنون به من قبل .

على أن البُكاء الذى حَالَ بين سعد باشا وبين كلمته التى أرادها لم يحُل بينه وبين أن يكون أفصح القائلين فى ذلك الموقف وأنطقهم ؛ فقد خطب الخُطباء وأنشد الشُّعراء من قبله ساعتين كاملتين فكان كُلُّ ما كان لكلماتهم من الأثر فى

النُّفُوس أن كان السامعون يتهامسون فيما بينهم بالإعجاب بفصاحة الفصيح أو نباهة المُؤرِّخ أو بلاغة الشاعر أو إبداع المُبْدِع فى معانيه أو إحسان المُحسِنِ فى إلقائه ؛ حتى وقف هو وأرسل من جفنيه تلك الدمعة الحارة ؛ فبكى النَّاسُ جميعاً لبُكائه ؛ كباراً وصغاراً ؛ شُيُوخاً وَشُبَّاناً ؛ وكان مشهداً مُؤثِّراً لم نر مثله فى حفلة تأبينٍ قبل اليوم !! ؛ فكان لتلك الخُطبة القصيرة الصامتة المُتفجِّرة من قلبٍ مَصْدُوعٍ مَكْلُومٍ من الأثر فى النُّفُوس ما لم يكن لتلك الخُطب النَّاطقة الطُّوال !!.

ليس الذى يبكى صديقا كان يأنس بحديثة ؛ أو عالماً كان ينتفع بعلمه ؛ أو كريماً كان يستظلُّ بظلال مروءته وكرمه ؛ كمثل الذى يبكى شَظِيَّةً طارت من شظايا قلبه !! .

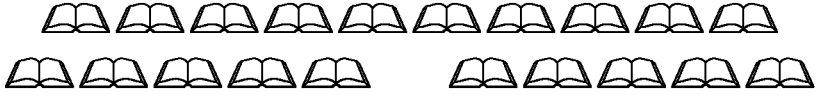

*- اللَّفْظُ وَالمَعْنَى

لم أر فيما رأيتُ من الآراء فى قديم الأدب وحديثه أغرب من رأى أُولئك القوم الذين يُفَرِّقُون فى أحكامهم بين اللفظ والمعنى ؛ ويصفون كُلاًّ منهما بصفةٍ تختلف عن صفة الآخر !! ؛ فيقُولُون : ما أجمل أسلوب هذه القصيدة لولا أن معانيها ساقطةٌ مرذُولةٌ ؛ أو ما أبدع معانى هذه القطعة لولا أن أسلوبها قبيحٌ مُضطربٌ ؛ كأنما يخُيَّل إليهم أن اللفظ وعاء ؛ وأن المعنى سائلٌ من السَّوائل يملأ ذلك الوعاء ؛ فتارةً يكون خمراً ؛ وتارةً يكون خَلاًّ ؛ ويكون حينا صافياً ؛ وأُخرى كَدِرًا ؛ والوعاء باقٍ على صورته لا يتغيَّر ؛ وما علموا أنهما مُتحدان ممتزجان امتزاج الشمس بشُعاعها والخمر بنشوتها !! ؛ فكما لا يجوز أن نقول : ما أجمل الشمس وأقبح شُعاعها ؛ ولا ما أعذب الخمرة وَأَمَرَّ نشوتها ؛ كذلك لا يجوز أن نصف اللفظ بالجمال والمعنى بالقُبح ؛ أو نعكس ذلك !! ؛ فليعلم النَّاشئ المُتأدِّب أنه ليس للفظ كَيَانٌ مُستقلٌّ بنفسه ؛ فجمالهُ جمال معناه وقُبحه قُبحه ؛ وأن القطع الأدبيَّة التى نصف أُسلوبها بالجمال إنما نصف بذلك معانيها وأغراضها ؛ وأن الذين يزعمون من الشُّعراء أو الكُتَّاب أن أساليبهم الغامضة الرَّكيكة المُضطربة تشتمل على معانٍ شريفةٍ عاليةٍ كاذبون فى زعمهم ؛ أو واهمون !! .

لا يضطرب اللفظ إلاَّ لأنَّ معناه مُضطربٌ فى نفس صاحبه ؛ ولا يغمُض إلاَّ لأنَّ معناه غامضٌ فى نفسه ؛ ومُحالٌ أن يعجز الفاهم عن الإفهام ؛ ولا المُتأثِّر عن

التأثير؛ ولا المُقتنع عن الإقناع ؛ وما البيان إلاَّ المرآة التى ترتسم فيها صُورة النَّفْس ؛ فحيث تكون النَّفس جميلةٌ فهو جميل ؛ أو قبيحةٌ فهو قبيح ؛ أو مُضيئةٌ فهو مُضىء ؛ أو مُظلمةٌ فهو مُظلم ؛ فإذا استطعنا أن نتصوَّر مرآةً تكذب فى تمثيل الصُّورة الماثلة أمامها ؛ استطعنا أن نتصوَّر بياناً يختلف

فى وصفه عن وصف نفس صاحبه .

يقول القائلون بمذهب التفريق بين اللفظ والمعنى عن مثل هذه القطعة :

وَلَـمَّا قَضَيْنَا مِن مِنَىً كُلَّ حَاجَةٍ

وَمَسَّحَ بِالأَرْكَانِ مَن هُوَ مَاسِحُ.

وَشُدَّت عَلَى حُدْبِ المَهَارَى رِحَالُنَا

؛ وَلَم يَعْلِمِ الغَادِى الَّذِى هُوَ رَائِحُ.

أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ الأَحَادِيثِ بَيْنَنَا ؛

وَسَالَت بِأَعْنَاقِ المَطِىِّ الأَبَاطِحُ.

إنها جميلة الأسلوب ؛ ولكنها تافهة المعنى مرذولته ؛ لا تشتمل على أكثر من الوصف والتصوير!! ؛ كأنهم لا يعلمون أن التصوير نفسه من أجمل المعاني وأبدعها؟!! ؛ بل هو رأس المعانى وسيِّدُها والغاية الأخيرة منها ؛ وقد رسم الشاعر

فى كلمته هذه صُورةً واضحةً ناطقةً للحجيج فى حِلِّهِم وَمُرْتَحَلِهِم ؛ يسمعها السامع بِأُذُنِهِ وكأنه يراها بعينيه ؛ فقد أتى بأجمل المعانى فى أجمل الأساليب.(١) [٢٤] .

---

[٢٤] (١) ـ قَالَ نِزَار شَاهِين :

هَذِهِ الأَبْيَاتُ قَد قَتَلَهَا النَّاسُ بَحْثًا ؛ لِجَمَالِهَا وَحُسْنِهَا ؛ فَأَنْتَ تَجِدُهَا فِى كُتُبِ الأَدَب ؛ وَتَرَاهَا فِى المُؤَلَّفَاتِ البَلاغِيَّة ؛ وَمِن أَجْلِ هَذَا وَجَبَ أَن تَكُونَ لَنَا أَيْضًا كَلِمَةٌ ؛ وَلَكِنِّى سَأَقْصُرُهَا عَلَى الرِّوَايَةِ وَصَاحِبِهَا ؛ فَأَقُول :

أَوَّلاً ـ النَّصُ الشِّعْرِىُّ : مَا هِىَ رِوَايَتُهُ الصَّحِيحَة ؟

الرِّوَايَةُ فِى ((الشِّعْر وَالشُّعَرَاء)) ؛ (جـ ١/٦٧) :

وَلا يَنْظُرُ الغَادِى الَّذِى هُوَ رَائِحُ.

وَكَذَلِكَ الرِّوَايَةُ فِى : ((عَيَّار الشِّعْر)) ؛ (ص : ١٣٨) ؛ ((البَصَائِر وَالذَّخَائِر)) ؛ (جـ ٦/٢٠١) ؛ ((الحَمَاسَةُ البَصْرِيَّة)) ؛ (جـ٢/١٠٣) .

وَفِى ((نَقْد الشِّعْر)) ؛ (ص : ١٠) :

وَلَم يَنْظُرُ الغَادِى الَّذِى هُوَ رَائِحُ.

وَكَذَلِكَ هُوَ فِى ((الصِّنَاعَتَيْن)) ؛ (ص : ٥٩) ؛ ((أَسْرَار البَلاغَة)) ؛ (ص : ٢١) .

وَالرِّوَايَةُ فِى ((زَهْر الآدَاب)) ؛ (جـ ٢/٤٠٥) :

وَلا يَعْلَمُ الغَادِى الَّذِى هُوَ رَائِحُ.

فَهِىَ كَرِوَايَةِ النَّصِّ المُقَيَّدِ بِالأَصْل ؛ وَدَعْكَ مِن هَذَا الخِلافِ الَّذِى لا يُعْبَأُ بِهِ .

وَالرِّوَايَةُ فِى ((البَدِيع فِى نَقْدِ الشِّعْر)) ؛ (ص : ١٥٤) :

وَلَمَّا قَضَيْنَا مِن مِنَىً كُلَّ حَاجَةٍ

وَمَسَّحَ بِالأَرْكَانِ مَن هُوَ مَاسِحُ.

٢٥ وَإِنَّ وصفاً قصيراً لحركةٍ صغيرةٍ من حركات النَّفس ؛ كقول الشريف :

وَتَلَفَّتَتْ عَيْنِى فَمُذ خَفِيت

عَنِّى الطُّلُولُ تَلَفَّتَ القَلْبُ .

وَفَاضُوا لِيَوْمِ النِّحْرِ مِن كُلِّ وِجْهَةٍ

؛ وَلَـم يَنْظُر الغَادِى الَّذِى هُوَ رَائِحُ.

أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ الأَحَادِيثِ بَيْنَنَا ؛

وَسَالَت بِأَعْنَاقِ المَطِىِّ الأَبَاطِحُ.

قَالَ نِزَار شَاهِين : الرِّوَايَةُ المُعْتَمَدَةُ عِنْدِى :

وَلَـمَّا قَضَيْنَا مِن مِنَىً كُلَّ حَاجَةٍ

وَمَسَّحَ بِالأَرْكَانِ مَن هُوَ مَاسِحُ.

وَشُدَّت عَلَى حُدْبِ المَهَارَى رِحَالُنَا

؛ وَلا يَنْظُر الغَادِى الَّذِى هُوَ رَائِحُ.

أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ الأَحَادِيثِ بَيْنَنَا ؛

وَسَالَت بِأَعْنَاقِ المَطِىِّ الأَبَاطِحُ.

فَهِىَ الَّتِى عَوَّلَ عَلَيْهَا الكَثِيرُون ؛ وَكَأَنَّهَا الأَشْبَه ؛ إِن لَم تَكُن هِىَ الصَّحِيحَة ؛ وَاللهُ أَعْلَم .

ثَانِيَاً ـ القَوْلُ فِى نِسْبَةِ النَّص :

نَسَبَهُ فِى ((زَهْر الآدَاب)) لِكُثَيِّر عَزَّة ؛ وَنَسَبَهُ فِى ((الحَمَاسَة البَصْرِيَّة)) لِعُقْبَة بْنِ كَعْبِ بْنِ زُهَيْر بْنِ أَبِى سُلْمَى .

قُلْتُ : وَالرَّاجِحُ عِنْدِى أَنَّهُ لِكُثَيِّر ؛ فَقَد ذَهَبَ إِلَى القَوْلِ بِنِسْبَتِهِ لَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِن المُتَقَدِّمِينَ وَالمُتَأَخِّرِين ؛ وَهُوَ الأَشْبَهُ بِنَزْعَتِهِ وَأُسْلُوبِهِ .

لخيرٌ ألف مرَّةٍ من قصيدةٍ طويلةٍ مملوءةٍ بالمعانى الغريبة والخواطر المُبتكرة التى لا تُمثِّل الحقيقة ؛ ولا تلتئم مع النَّفس ومِزاجها ؛ كقصيدة المُتنبى التى مطلعها :

أَيَطْمَعُ فِى الخِيمَةِ العَذل

ويقولون أيضاً عن هذا البيت :

أَنَّى يَكُونُ أَبَا البَرِيَّةِ آدَمٌ

وَأَبُوكَ وَالثَّقَلانِ أَنْتَ مُحَمَّدُ .

إنه قبيح اللفظ ولكنه جميل المعنى ؛ وهم واهمون فيما يقولون !! ؛ فإن ذلك المعنى الجميل الذى يتوهمونه ليس معنى هذا البيت ؛ بل المعنى الذى خطر على أذهانهم وانبعث فى أفئدتهم عند سماعه ؛ فألصقوه به إلصاقاً وتوهَّمُوه له تَوهُّماً !! ؛ أما البيت نفسه فلا معنى له مُطلقاً !! ؛ وهذا شأن جميع المعانى التي يتوهَّمُها مُتوهِّمُوها عند سماع بيتٍ مُسْتَغْلَقٍ أو كلمةٍ غامضةٍ ؛ فهى بأن تكون معانى السامعين ؛ أولى من أن تكون معانى القائلين .

إذا سمعت بيتاً من الشِّعر : فأطربك ؛ و أحزنك ؛ أو أقنعك ؛ أو أرضاك ؛ أو هاجك وأنت ساكنٌ ؛ أو هدَّأ رَوْعَكَ وأنت ثائر ؛ أو ترك أىَّ أثرٍ من الآثار فى نفسك كما تترك النغمة الموسيقيَّة أثرها فى نفس سامعها : فاعلم أنه من بُيُوت المعانى ؛ وأن هذا الذى تركه فى نفسك من الأثر هو رُوحه ومعناه ؛ وإن مررت ببيتٍ آخرٍ فَاسْتَغْلَقَ عليك فهمه وَثَقُلَ عليك ظِلُّهُ وشعُرت بجُمُود نفسك

أمامه ؛ وَخُيِّلَ إليك أنك بين يدى جُثَّةٍ هامدةٍ لا رُوح فيها : فاعلم أنه لا معنى له ولا حياة فيه ؛ فإن وجدت صاحبه واقفاً بجانبه يحاول أن يُوَسْوِسَ لك أن وراء هذه الظُّلمة الحَالِكَةِ المُتكاثفة نُوراً مُتوهِّجاً يكمُن فى طِيَّاتِهَا ؛

فكذِّبه ؛ وفر بنفسك وأدبك وذوقك منه فراراً لا عودة لك من بعده .

هذا هو الميزان الذى يجب أن تزن به الكلام ؛ ونصيحتى إليك ألا تُصَدِّق تعريفاً واحداً من تلك التعريفات المُتعدِّدة المُتناقضة التى يضعها واضعوها من الأُدباء لأشعارهم خاصةً لا للشِّعر عامة ؛ واجعل شُعُور نفسك هو الميزان الذى تزن به ما تسمع ؛ فكما أنك لا تعتمد على تعريفٍ من تعريفات الجمال ولا تلجأ إلى قانونٍ من قوانينه عند وقوع نظرك على وجه امرأةٍ لمعرفة درجتها من الحُسْن ؛ كذلك لا تعتمد فى استحسان ما تستحسن من الكلام واستهجان ما تستهجن إلا على شُعُور نفسك ؛ وإلهام حِسِّك .

الشِّعرُ نغمةٌ موسيقيَّةٌ قبل كُلِّ شىءٍ ؛ ثُمَّ يأتى بعد ذلك : جمال الوصف ؛ وَحُسْن التصوير ؛ وتمثيل الحقيقة ؛ واستخراج أسرار الكون ؛ وتحليل مشاعر النفس ؛ وأمثال ذلك من الأغراض والمقاصد : على أن تكون تلك النغمة الموسيقيَّة أساسها والرُّوح السارية ؛ فيها ليتحقَّق الفرق بين الشعر والفلسفة ؛ فالفلسفة غِذاء العقل برزانتها وهدوئها وحُججها وبراهينها ؛ والشِّعر غذاء النَّفس برنَّاته ونغماته وأهازيجه ونبراته .

نظم الشُّعراءُ الشِّعر من عهد الجاهليَّة إلى اليوم ؛ فمات جميع ما نظموا ؛ ولم يبقَ منه إلا البيتُ الموسيقيُّ الرَّنَّان الذى لو لم يُغَنِّه مُغَنِّيه لَغَنَّى وحده ؛ وسيموت شعر جميع الشُّعراء فى هذا العصر ؛ ولا يبقى منه فى المستقبل إلا كما بقىَ من الماضى فى الحاضر .

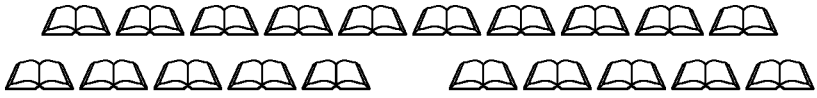

*- الآدَابُ العَامَّة

يتحدَّث كثيرٌ من الناس عن فئةٍ من المصريين المُتعلِّمين قد ظهروا فى هذه الأيَّام واتخذوا لأنفسهم فى حياتهم العامة طريقاً غير الطريق اللائقة بهم وبكرامتهم وبمنزلة العلم وشرفه ؛ فأصبحوا مُتَبَذِّلِين فى شهواتهم ؛ مُستهترين فى مُيولهم ؛ ينتهكون حُرُمات الأعراض ما شاءوا وشاءت لهم نزعاتهم وأهواؤهم ؛ ويعبثون بها فى كُلِّ مكانٍ عَبَثَ الفاتك الجرىء الذى لا يخاف مَغَبَّةً ولا يخشى عاراً !! ؛ وأهول ما يتحدَّثون به عنهم فى هذا الشأن أنهم يُغْرُون الفتيات الطالبات اللواتى لا يزلن يختلفن إلى مدارسهنَّ أو اللواتى انقطعن عنها مُنْذُ عهدٍ قريبٍ إلى منازلهن ؛ وينصبون لَهُنَّ صُنُوف الحبائل وأنواع الأَشْرَاك لاصطيادهنَّ وإسقاطهنَّ فى هُوَّةِ الإثم والعار ؛ وهذا ما أُريد أن أتكلَّم عنه قليلاً .

أصحيحٌ ما يقولون عنكم أيُّها الفتيان التَّعِسُون ؛ أنكم تتخذون صِلَة العلم التى هى أشرف الصِّلات وأكرمها صِلَة فسادٍ بينكم وبين أُولئك الفتيات الضعيفات ؛ وأنَّ الحُبَالَة التى تنصبونها لَهُنَّ لاصطيادهنَّ إنما هى حُبَالَة القلم الذى هو أفضل أداةٍ للخير ؛ وأعظم وسيلةٍ للفضيلة ؛ وخير واسطةٍ للأدب والكمال؟!!.

أصحيحٌ ما يقولون عنكم ؛ أنكم تكتبون إليهنَّ ليكتُبن إليكم ؛ وتُهدون إليهنَّ صُوركم ليُهدين إليكم مثلها ؛ فإذا امتلأت حقائبكم وجيوبكم بصُورهنَّ ورسائلهنَّ أخذتم تنشرونها فى كُلِّ مكان ؛ وتعرضونها فى كُلِّ معرض ؛ وأخذ

بعضكم يُفاخر بعضاً بكثرة ما يملك منها أو جماله أو رونقه كما يفخر المرء بأفضل المزايا وأشرف الخصال ؟!! .

أصحيحٌ أنكم تقفون لَهُنَّ بِكُلِّ طريقٍ وتأخذون عليهنَّ كُلَّ سبيلٍ وتُضايقونهنَّ فى مَغْدَاهِنَّ وَمَرَاحِهِنَّ ؛ وحيث ذهبن إلى عملٍ ؛ أو خرجن لزيارةٍ ؛ أو بَرَزْنَ فى مُجتمعٍ ؛ فإذا عجزتم عنهُنَّ فى الطريق أرسلتم وراءهُنَّ الرُّسُل فى منازلهنَّ يخُادعنهنَّ ويخُاتلنهن ؛ وربما توسلتم إليهنَّ بأخواتكم وبنات أعمامكم لِيَسْفِرْنَ بينكم وبينهنَّ ويداخلنهنَّ مداخلة الأصدقاء حتى يجتذبنهنَّ إلى منازلكم؟!! .

أصحيحٌ أنكم تقضون أكثر لياليكم مُكِبِّين على كتابة رسائل الغرام وتهذيبها وتنقيحها ؛ وأكثر أيَّامكم حوماً حول المنازل تنتظرون خدمها الذين اصطنعتموهم لأنفسكم ليحملوا رسائلكم إلى ساكنيها ؛ أو جُلُوساً على أبوابها بجانب البَّوابين والحُوذِيين ترقبون نوافذها وَكُوَاهَا عَلَّهَا تنفرج لكم عمَّن تحُبُّون ؟!! .

أصحيحٌ أنكم أصبحتم لا تقنعون فى أمر أولئك الفتيات البائسات اللواتى يقعن فى مخالبكم بإفساد أخلاقهنَّ حتى تُسجِّلوا عليهنَّ ذلك الفساد تسجيلاً مُوقَّعاً عليه بتوقيعاتهن ؛ مُسْتَشْهَدَاً عليه بصُورهنَّ وخُطوطهنَّ لتملكوا عليهنَّ أمرهُنَّ بعد ذلك ؛ وَتحَولُوا بينهُنَّ وبين التفلُّت من أيديكم والحياة بعيداً عنكم فى جَوٍّ غير جَوِّكم ؛ وَجِوَارٍ غير جِوَارِكُم ؛ عَذَارَى أو متزوجات ؟!! .

أصحيحٌ أنكم لا تكتفون بإفساد نُفُوسهنَّ وضمائرهنَّ حتى تُفسدوا عليهنَّ عُقُولهنَّ وصحتهنَّ ؛ فتُشركُوهنَّ معكم فى شُرب الخمر وتناول المُخدِّرات سائلها وجامدها ؛ فلا تلبث أن تنتهى حياتهنَّ بما تنتهى به حياة جميع النساء السَّاقطات اللواتى يَلْفِظْنَّ أنفاسهُنَّ الأخيرة فى أَقْبِيَة الحانات ؛ أو بين جُدران المَوَاخِير ؟!! .

أصحيحٌ أنكم فقدتم فى تلك السبيل التى تسلُكُونها خُلُقَ الرُّجُولة والشَّهامة ؛ فأصبحتم تَتَجَمَّلُون للنِّساء بأخلاق النِّساء ؛ وَتَزْدَلِفُونَ إليهنَّ بمثل صفاتهنَّ وَشَمَائِلِهِنَّ ؛ وأصبح الرَّجُل منكم لا هَمَّ له فى حياته إلاَّ أن يَتَجَمَّل فى ملبسه ؛ وَيَتَكَسَّر فى مِشْيَته ؛ وَيُرَقِّق من صوته ؛ وَيُلَوِّن ابتساماته ونظراته بألوان التَّضَعْضُعِ والفُتُور ؛ ويقضى السَّاعات الطُّوال أمام مِرآته مُتَعَهِّداً شعره بالتَّرْجِيل ؛ وبشرته بالتنضير ؛ وثناياه بالصَّقْلِ وَالجَلاء ؛ حتى صار ذلك عادةً من عاداتكم التى لا تَنْفَكُ عنكم ؛ وحتَّى سَرَى التَّأَنُّث من أجسامكم إلى نُفُوسكم فلم يبق فيكم من صفات الرُّجُولة وأخلاقها غير الأسماء والألقاب؟!! .

إن كان حَقّاً ما يقولون كُلُّهُ أو بَعْضُهُ ؛ فرحمةُ الله عليكم أيُّها الفتيان المساكين ؛ وسلامٌ على الفضيلة والشَّرف ؛ سلام من لا يرجو عودة ؛ ولا ينتظر إِيَابَاً !! .

إن هذه الفتاة التى تحتقرُونها اليوم وَتَزْدَرُونَهَا ؛ وتعبثون ما شئتم بنفسها وضميرها : إنما هى فى الغد أُم أولادكم وَعِمَاد منازلكم وَمُسْتَوْدَع أعراضكم ومُروءاتكم ؛ فانظروا كيف يكون شأنكم معها غداً ؛ وكيف يكون مُستقبل أولادكم على يدها ؟!! .

أين تجدون الزَّوجات الصَّالحات فى مُستقبل حياتكم إن أنتم أفسدتم الفتيات اليوم ؟!! ؛ وفى أىِّ جَوٍّ يعيش أولادكم وَيَسْتَنْشِقُون نسمات الحياة الطَّاهرة إن أنتم لَوَّثْتُم الأجواء جميعها وملأتموها سُمُوماً وأكداراً ؟!! .

لا تتكوَّن أخلاق الفتاة تَكُوُّناً صحيحاً فى طُفُولتها أو كُهُولَتِهَا أو شيخوختها ؛ بل فى عهد شبابها ؛ فإذا سَلِمَ لها ذلك العهد ؛ سَلِمَ لها كُلُّ عهدٍ بعد ذلك ؛ فدعوها تَجْتَز هذه المرحلة الوَعِرَة من مراحل حياتها شريفةً طاهرةً ؛ تجدوا فيها بعد قليلٍ من الزَّمَان خير زوجةٍ للزَّوج ؛ وخير أُمٍّ للولد ؛ وخير سيِّدةٍ للمنزل .

لا تَعْجَلُوا عليها !! ؛ وانتظروا بها قليلاً لتستطيعوا أن تجدوها غداً زوجةً طاهرةً شريفةً فى منازلكم ؛ بدلاً من أن تجدوها فتاةً ساقطةً مُزْدَرَاةً مُطَّرَحَةً على أعتاب المَوَاخِيرِ وَالحَانَات !! .

لا تزعموا بعد اليوم أنكم عاجزون عن العُثُور بزوجاتٍ صالحاتٍ شريفاتٍ يحفظن لكم أعراضكم ؛ ويحرُسن سعادتكم وسعادة منازلكم ؛ فتلك جنايةُ

أنفسكم عليكم ؛ وثمرةُ ما غرست أيديكم !! ؛ ولو أنَّكم حفظتم لَهُنَّ ماضيهنَّ لحفظن لكم حاضركم ومُستقبلكم ؛ ولكنَّكم أفسدتُموهُنَّ وقتلتم نُفُوسهُنَّ ؛ ففقدتُموهُنَّ عند حاجتكم إليهن !! .

إننى لا أفزع فى أمركم إلى القائُون ؛ فالقانُون فى هذا البلد مدنىٌّ لا أدبىّ !! ؛ ولا إلى الحُكُومة ؛ فالحكومة مشغولةٌ بشأن نفسها عن شأن غيرها !! ؛ ولا إلى الدِّين ؛ فقد ضَعُفَ شأنه فى نُفُوسكم حتَّى هان أمره عليكم !! ؛ ولا إلى آبائكم وأولياء أُمُوركم ؛ فقد عجزوا عنكم وأصبحوا يبكون مع الباكين عليكم !! ؛ بل أفزع فى أمركم إلى ضمائركم التى هي الأمل الباقى لنا بعد فَقْدِ جميع آمالنا فيكم ؛ فأصغوا إلى صوتها ساعة تسمعوا منها هذا الرَّجاء الذى نرفعه إليكم ؛ وصوت الضمير أقوى من كُلِّ صوتٍ فى العالم .

أصغوا إليه تسمعوه يقول لكم : ((إِنَّ هؤلاء الفتيات اللواتى لا تستحيون أن تُمدُّوا إليهنَّ أعينكم وأيديكم ؛ إنما هُنَّ أخواتكم الحميمات يجمعكم وإيَّاهُنَّ أَبٌ واحدٌ وهو النيل ؛ وَأُمٌّ واحدةٌ وهى البلد ؛ وشرف الأُخُوَّة هو الملجأ الأمين لأعراض الأخوات .)) .

يجب أن لا ينفتح قلب الفتاة لأحدٍ من الناس قبل أن ينفتح لزوجها ؛ لتستطيع أن تعيش معه سعيدةً هانئةً لا يُنَغِّصُهَا ذكرى الماضى ؛ ولا تختلط فى مُخَيَّلَتِهَا الصُّور والألوان ؛ ولا أعرف فتاةً فى هذا البلد بدأت حياتها بغرامٍ قط ؛ فاستطاعت أن تتمتَّع بعده بحُبٍّ شريف .

ولا أزال أذكر حتى اليوم حادثة ذلك الفتى الذى أهدت إليه حبيبته رسمها مُوقَّعَاً عليه بتوقيعها ؛ فلما تزوَّجت وكان لا يُحِبُّ منها ذلك أراد الانتقام منها ؛ فقطع رأس الصُّورة ووضعها على جسمٍ عارٍ بتلك الطريقة الفنيَّة المعروفة ؛ ثم أرسلها مع كتابٍ وِشَايَةً إلى زوجها ليلة عُرْسِهَا ؛ فما لَبِثَت أن خسرت فى لحظةٍ واحدةٍ سُمعتها وسعادتها !!.

وحدَّثنى من أثق به : أن كثيراً من الفتيات الفاسدات لا يتزوجن إلا بعد أن يأخذن على أنفسهنَّ عهداً أمام أصدقائهنَّ على أن يَكُنَّ لهم بعد الزَّواج ؛ أي : بعد أن يُصبحن مُطْلَقَات من قُيُود العُذْرَة وروابطها ؛ وقلَّما تتزوَّج فتاةٌ ذات صلاتٍ فاسدةٍ من رَجُلٍ إلاَّ وردت عليه ليلة البناء بها أو صبيحتها كُتُبُ الوِشَايَة بها وَالسِّعَايَة من الأشخاص الذين أحبَّتهم وأخلصت إليهم ؛ فانتهى أمرها فى حياتها الجديدة بالشَّقاء والعار !! .

نحن فى حاجةٍ إلى أن نُعَلِّم بناتنا ؛ لأننا لا نُريد أن يعشن جاهلات مُتأخِّرات ؛ فَتَنَحُّوا عن طريقهنَّ أيُّها الغُوَاة المُفسدون ليستطعن أن يَخْتَلِفْنَ إلى مدارسهنَّ آمنات مُطمئنات على أنفُسهنَّ وأعراضهن ؛ ولا تُزعجُوهنَّ بِفُضُولِكُم وَإِسْفَافِكُم !! ؛ فإننا لم نبعث بِهِنَّ فى تلك السبيل لِيُفْسِدْنَ شرفهُنَّ وَعِفَّتِهِن !! ؛ بل لِيُضفن إلى فضيلة الأدب والكمال فضيلة العقل والعلم .

افسحوا الطريق لَهُنَّ ؛ وللعاملة الخارجة فى طلب رزقها ؛ والأرملة المُسترزقة لبنيها ؛ والفقيرة العاجزة عن قضاء حاجتها إلاَّ بنفسها ؛ والذاهبة لِصِلَة رحمها ؛ والسَّائرة لزيارة قبر فقيدها ؛ ولا تكُونوا حَجَرَ عَثْرَةٍ فى سبيل حُريَّة المرأة وعملها واضطرابها فى مذاهب الأرض سعياً وراء رزقها وقضاء حُقُوقها ؛ فإن أبيتم عليها ذلك فاعترفوا أنكم أعداؤها الأَلِدَّاءُ المُتوحِّشُون ؛ لأنكم تأبون عليها إلا إحدى الخُطَّتين القاتلتين : إما الجهل الدائم ؛ أو السقوط العظيم!!.

الفضيلة الفضيلة أيُّها القوم !! ؛ فهى العزاء الوحيد لهذه الأُمَّة المسكينة عن جميع آلامها ومصائبها ؛ والأمل الباقى لها إن ضاعت ـ لا قَدَّرَ الله ـ جميع آمالها وأمانيها .

والشَّرف الشَّرف !! ؛ فرُبما جاء يومٌ لا يبقى لنا فيه شىءٌ سواه !! .

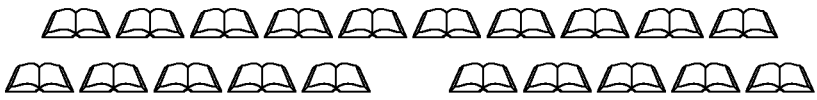

*- فِى أَكْوَاخِ الفُقَرَاء

- مُتَرْجَمَة -

مضى الليلُ إلاَّ قليلاً ؛ والظَّلامُ مخيِّمٌ على الكون بأجمعه ؛ والكواكب مُلْتَفِعَةٌ بِأَرْدِيَةِ السُّحُبِ بما لا يَسْتَشِفُّ منها النَّاظرُ بَصيصاً ولا قَبَساً ؛ والفضاء بحَرٌ خِضَمٌ مُترامى الأرجاء ؛ إلاَّ أنَّه ساكن الصفحة ؛ جامد الحركة ؛ يقصر فيه قاب العين ؛ وَتَضِلُّ فى تِيهِهِ أشعةُ النَّظر حتى عن نفسها ؛ وَالغُيُوثُ مُنْهَلَةٌ مُتواصِلةٌ تَهْمَى بقُوَّةٍ واحدةٍ وَقَوَامٍ واحدٍ ؛ لا تَغْزُرُ ولا تَرِق ؛ ولا تلتف خيوطها ولا تختلف نغمتها ؛ كأنما هى شِبَاكٌ مُمتدَّةٌ بين السَّماء والأرض ؛ وكوخ السَّمَّاك ((فيليب)) جَاثِمٌ فى مَجْثَمِهِ بين الأكواخ المُحيطة به لا يرى فيه الداخل غير مصباحٍ ضئيلٍ تُجاهدُ دُبَالَتُهُ جهاداً شديداً فى تمزيق قِطَعِ الظَّلام المُتكاثفة حولها ؛ وَمِجْمَرَةٍ هامدةٍ قد خَبَت نَارُهَا إلا بقايا جَمَرَاتٍ شَاحِبَاتٍ قد التفَّت بأكفانها البيضاء ؛ وأخذت طريقها فى مَدْرَجَة الفناء ؛ وقد يرى النَّاظر على ضوء ذلك المصباح الضئيل بِضْعَ شِبَاكٍ وَمَذَاوِدٍ مُعلَّقة بالجُدران كأنها الأشباح الماثلة ؛ وَمِنْضَدَة عارية قد نُشِرَت فوقها بضعة أوانٍ نُحاسيَّةٍ تلمع لمعاناً ضعيفاً فى ذلك الحَنْدَسِ كأنها عُيُون الجَنَادِب ؛ فإذا دَارَ الواقف بنظره حوله رأى حَشِيَّةً مُطْرَحَةً على الأرض قد اضطجع فوقها ثلاثةُ أطفالٍ مُتلاصقين آخذٌ بعضهم بأعناق بعض كما تتآخذ الأفراخ فى أعشاشها ؛ وكما يضم الخوف الضُّلوع إلى الضُّلوع ؛ وعلى مَقْرُبَةٍ من

فراشهم امرأة صفراء شَاحِبَة جَاثِيَة على رُكبتيها تُصَلِّى وَتَبْتَهِلُ وتدعو الله تعالى بصوتٍ خَافِتٍ مُتَهَافِتٍ أن يُرَدَّ لها زوجها سالماً ؛ وكان قد خرج كعادته لصيد السَّمك من البحر ؛ فلم يَعُد حتَّى الساعة .

وإنها لكذلك ؛ إذ هَبَّت الزَّوْبَعَةُ هُبُوباً عظيماً ؛ فاهتزَّت لها جوانب الكوخ اهتزازاً شديداً ؛ وَأَنَّ [٢٦](١) لوقعها الأطفال فى لفائف أغطيتهم ؛ فطار قلبها فزعاً ورُعباً ؛ وَخُيِّلَ إليها أن هَدِير الأمواج ؛ وَدَمْدَمَة الرُّعُود ؛ وَزَفِيف الرِّياح ؛ وَقَعْقَعَة السُّقُوف والجُدران إنما هى نُذُرُ السُّوء تُنذرها بمصير زوجها المسكين فى أعماق ذلك الأوقياس العظيم !! ؛ فظلَّت تُردِّد بينها وبين نفسها :

((رَبِّ إنى بائسةٌ مسكينةٌ لا سَنَدَ لى ولا عَضُد !! ؛ وإن هؤلاء الأطفال الصِّغار عاجزون لا يستطيعون أن يَقُوتُوا أنفسهم ؛ ولا أن يعتمدوا على حُوْلِهِم وَحِيلَتِهِم فى شُئُون حياتهم !! ؛ فاحفظ لى ولهم حياة ذلك الرَّجُل المسكين الذى أسلم أمره إليك ؛ وأودع حياته بين يديك ؛ وخرج فى طلب الرِّزق من عندك ليعود به على هذه الأُسرة الفقيرة المُعْدَمَة ؛ فلم يَعُد حتَّى السَّاعة !! ؛ ولا ندرى ما فعلت به يَدُ الأقدار ؟!! .

---

[٢٦] (١) ـ أَنَّ : مِنَ الأَنِين ؛ وَهُوَ بِمَعْنَى الشَّكْوَى .

ما أعظم بؤسنا وشقاءنا نساء الصَّيَّادين وأولادهم !! ؛ إنهم يتركوننا وحدنا فى هذه الأكواخ المُوحشة ويذهبون لطلب العيش فى ذلك التِّيهِ العظيم الذى لا نهاية لِعُمْقِهِ ولا حَدَّ لاتساعه ولا عاصم من مخاطره !! ؛ ويحاولون انتزاع رزقهم من بين مَاضِغِى تلك الأمواج المُتوثِّبة الفَاغِرَة أفواهها كالذِّئاب الجائعة تحاول التهام كل ما يدنو منها !! ؛ ولعل القدر الذى نخشاه عليهم فى هذه الساعة قد نزل بهم فلم تُغْنِ عنهم شيئاً تلك الألواح الخشبيَّة الرَّقيقة التى يُسَمُّونَهَا زَوَارِق ؛ ولعلهم لَبِثُوا ساعات طُوالاً يُصارعون الأمواج وتُصارعهم حتى غلبتهم على أمرهم ؛ فدارُوا بأعينهم من حولهم ليُفتِّشوا عن زَوَارِقِهِم المُنقلبة فلم يروا منها إلا بقاياها المُتطايرة فى أيدى الرِّياح !! ؛ فحاولوا أن يسبحوا إليها فأفلتت من أيديهم ؛ فنال منهم العياء فَهَووا إلى ذلك القاع العميق ليُصبحوا فيه طعاماً للأسماك التى كانوا يظُنُّون مُنْذُ ساعةٍ أنها ستُصبح طعاماً لهم !! ؛ هُنالك يأتينا نَعْيُهُم ؛ فنبكى وَنَنْدُبُ وَنَهْرَعُ إلى الشَّاطئ وَالِهِينَ مُدَلَّهِين !! ؛ ونقف أمام ذلك العالم المجهول الغامض صائحين أن رُدَّ إلينا أيُّها الوحش المُفترس بُعُولَتَنَا وأولادنا وأفلاذ أكبادنا !! ؛ أو تكشف عن نفسك قليلا عَلَّنَا نرى جُثثهم فى قاعك ؛ فلا نسمع مُلَبِّياً ولا مُجِيبَاً !! .)) .

وهُنا هدأت الزَّوبعةُ قليلاً وَخَفَتَت أصوات الرِّياح ؛ فسكن بعض ما بها ونهضت من مكانها فتناولت المصباح ؛ وفتحت باب الكوخ وَقَلَّبَت وجهها فى

أُفُقِ السَّماء لترى كم بقىَ بينها وبين الصَّباح ؛ وكان الظلام لم يزل حَالِكَاً والمطر لم يزل مُتَدَفِّعَاً ؛ فمدَّت يدها بالمصباح أمامها لترى هل من مُقْبِلٍ يتقدَّمُ أو شَبَحٍ يتحرَّك ؛ فلم يقع نُورُهُ إلاَّ على كُوخٍ بعيدٍ مُنْفَرِدٍ لا نُورَ فيه ولاحركة !! ؛ فتذكَّرت حينما وقع عليه نظرها أنه كوخ تلك الأرملة المسكينة ((جانت)) التى مات زوجها غريقاً مُنْذُ بضعة شُهُورٍ وَخَلَّفَ لها أطفالاً صغاراً تُقاسى الآلام الشِّدَاد والأهوال العِظام فى تدبير عيشهم وتقويم أَوْدِهِم !! ؛ فَمَرَّ بخاطرها أن تزورها وتتعرَّف حالها ؛ لأنها كانت تعلم أنها مريضةٌ مُدْنَفَة ؛ وأنها كَابَدَت ليلة أمس من دَائِهَا عَنَاءً عظيماً ؛ وأقرب ما تكون النُّفُوس إلى النُّفُوس إذا جمعتها فى صَعِيدٍ وَاحِدٍ هُمُومُ الحياةِ وآلامُهَا ؛ فأخذت طريقها إلى ذلك الكوخ حتَّى بلغته ؛ فوقفت على بابه وَقَرَعَتْهُ مِرَارَاً كثيرةً فلم يَرُد عليها أحد ؛ فدفعته ؛ فَفُتِح ؛ فدخلت رافعةً مصباحها بيدها ؛ فأنار لها ما حولها ؛ فرأت بين يديها للنَّظرة الأُولى ما أَرْعَدَ فَرَائِصَهَا ؛ واستوقف دَقَّات قلبها ؛ وأمسك الدَّم عن جريانه فى عُرُوقها !! ؛

رأت الكوخ يهتز ويضطرب فى أيدي الرِّياح المُتَنَاوِحَة ؛ ورأت مياه الأمطار تسيل من سقفه الوَاهِى الأَخْرَق فَتُبَلِّل كُلَّ شيءٍ فيه ؛ ورأت فِرَاشَاً قَذِرَاً من القَشِّ قد رقدت فوقه الأرملة ((جانت)) رقدةً ساكنةً جامدةً لا حِسَّ فيها ولا حركة ؛ فَدَنَت منها ؛ فإذا هى مَيِّتَة !! ؛ وإذا قطراتٌ من الماء تنحدر على جبينها ورأسها وغطائها البَالِى المُمَزَّق !! ؛ فوقفت أمام هذا المنظر المُخِيف المُرْعِب

ذَاهِلَةً مَشْدُوهَةً !! ؛ ثُمَّ صاحت :

((هذه نهاية الفُقراء على ظهر الأرض !! ؛ وهذا مصيرهم الذى يصيرون إليه بعد جهادهم فى سبيل الحياة زمناً طويلاً !! ؛ إنهم يعيشون فى هذا العالم مجهولين مَغْمُورِين لا يعرفهم أحد ؛ ثم يخرجون منه مُتَسَلِّلِين مُتَلاوِذِين لا يشعر بخروجهم أحدٌ حتَّى أَهْلُوهُم وذوو أرحامهم !! ؛ ما يُدرينى أن لا يكون مصيرى ومصير أولادى غداً هذا المصير الذى أراه الآن ؛ وقد لا تدخل علينا فى تلك الساعة جارةٌ مثلى ترانا وترثى لحالنا كما أرثى الآن لحال هؤلاء المساكين!!.)) .

ثُمَّ خلعت رداءها ؛ فَأَسْبَلْتُهُ على جُثَّةِ المَيِّتَة ؛ ودارت بمصباحها فى أنحاء الغُرفة ؛ فرأت طفليها الصغيرين نائمين على فراشهما وجهاً لوجهٍ ؛ وعلى ثَغْرِ كُلٍّ منهما ابتسامةٌ صغيرةٌ كأنَّ شَبَحَ الموت الهَائِم حول مَضْجَعِهِمَا لا يُخيفهما ولا يُزعج سُكُونهما !! ؛ ورأت رداء أُمِّهما ـ وكانت تعرفه قبل اليوم ـ مُسْبَلاً على جسمهما ؛ فَخُيِّلَ إليها أنها ترى منظر تلك المرأة المسكينة قبل ساعةٍ أو ساعتين وهى تُعالج فى فِراشها سَكَرَات الموتِ ؛ ثم تلتفت من حينٍ إلى حينٍ إلى طفليها النائمين ؛ والمطر يتساقط عليهما والبرد يعبث بأعضائهما فتُشفق عليهما وترثى لهما !! ؛ حتى ضاقت بها سَاحَة الصَّبر ؛ فخلعت عنها رداءها وهى أحوج ما تكون إليه وألقته عليهما ؛ ثم ألقت بنفسها على فراشها وأسلمت رُوحَهَا !! .

وقفت ((مارى)) أمام هذه المناظر المُؤلمة ؛ والرِّيح تَئِنُّ أَنِينَ الوَالِهِين المُتَسَلِّبِين ؛ والموج يَعُجُّ عَجِيجَ أجراس الموت ؛ وقطرات الماء تنحدر من جبين الميِّتة إلى خدِّيها الشَّاحِبَيْن كأنما هى تَذْرِفُ دُمُوع الحُزن على فراق ولديها !! ؛ وكان الفجر قد أخذ يمسح عن وجهه صِبْغَة الظلام ويُرسل بعض أشعته فى جوانب الكوخ ؛ فأطفأت المصباح الذى بيدها ووضعته جانباً ؛ ثم جَثَت بجانب الميِّتة وَصَلَّت لها ما شاء الله أن تفعل ؛ ثم نهضت ومشت إلى مكان الطفلين وَانْحَنَت عليهما وحملتهما بِرِفْقٍ وَسُكُونٍ ؛ وسارت بهما حتَّى بلغت كُوخها ؛ فوضعتهما بجانب طفليها وَأَسْبَلَت عليهم جميعاً رداءً واحداً ؛ ثم جلست بجانبهم تقول بينها وبين نفسها :

((لا أدرى أَأَصَبْتُ فيما فعلت أم أخطأت ؟!! ؛ وإنما أدرى أن المرأة التى أَوْدَعَ اللهُ قلبها شُعُور الأُمُومَة ورحمتها لا تستطيع أن ترى طفلين طَرِيحَيْن على فراشهما فى كُوخٍ عَارٍ من كُلِّ شىءٍ إلاَّ من جُثَّة أُمِّهِمَا ثم تتركهما وشأنهما دُون أن تعلم ما مصيرهما بعد ذلك !! ؛ إن المنظر الذى رأيته ما كان لا يسمح لى بالتفكير فى نتيجة العمل الذى أعمله !! ؛ فإن تبيَّن لى بعد ذلك أنى مُخطئة ؛ فليس معنى هذا أنى كنت أستطيع تجنُّب الوقوع فى هذا الخطأ ؛ لأن قلبى من لحمٍ ودمٍ لا من فُولاذٍ وَصُوانٍ !! ؛ نعم ؛ إنَّ زوجى فقيرٌ ؛ وإن طفلىَّ مُعْدَمَان لا يكادان يشبعان من الخُبز ؛ وإن عناءنا فى تربية أربعة أطفال سيكون ضعف عنائنا فى تربية طفلين

!! ؛ ولكن لا يجوز لنا ضَنًّاً براحة أنفسنا أن نترك طفلين صغيرين يموتان على مرأىً مِنَّا وَمَسْمَعٍ برداً وجُوعاً !! ؛ ذلك ما سأقُوله لزوجى عند رجوعه ؛ وما أحسبه قاسياً ولا مُتَوَحِّشَاً فَيَنْقِم علىَّ فِعْلَتِى هذه ويأمُرنى بإلقائهما خارج الباب!!.)) .

ثُمَّ وقفت عن الكلام فجأة ؛ لأنها سمعت صَرِيرَ الباب وهو يدور على عَقِبِهِ ؛ فَارْتَعَدَت !! ؛ ثم علمت أنها الرِّيح ؛ فَأَطْرَقَت برأسها ساعةً ذهبت فيها بتصوراتها وأفكارها كُلَّ مذهبٍ! ؛ فبكت وضحكت! ؛ وغضبت ورضيت ! ؛ وأمَّلت ويئست ! ؛ ورحمت وقست ! ؛ وحمدت فعلتها وندمت عليها ! ؛ وأحسنت الظَّنَّ بزوجها وأساءته به ! ؛ وظلَّ فؤادها نَهْبَاً مُقَسِّمَاً فى يد الهُمُوم والأفكار ؛ حتَّى شعُرت بسوادٍ يتقدَّم نحوها ؛ فَاسْتُطِيرَ قلبها خوفاً ورَّعباً !! ؛ وانتبهت ؛ فإذا زوجها داخلٌ يحمل شبكته وأعواده على ظهره والماء يقطر منها ؛ فنهضت إليه وعانقته ؛ ثم ألقت نظرها على وجهه ؛ فأنكرت شُحُوبَهُ وَتَضَعْضُعَهُ كما أنكر ذلك من وجهها حين رآها !! ؛ وسألته : كيف كان حظُّه الليلة ؟ ؛ وماذا كان شأنه مع العاصفة ؟! ؛ فألقى بشِبَاكه وَقَصَبِهِ على الأرض وظلَّ يقول : أمَّا الليلة فكانت مُزعجةٌ جِدًّاً لم أرَ فى حياتى مثلها !! ؛ وأمَّا الصيد فها هى يدي صُفْرٌ منه كما ترين !! ؛ ولولا رحمةُ الله بى وبكم لَهَلَكْت !! ؛ وما أنا بآسفٍ على شىءٍ ما دُمْتُ أراكم بخير ؛ كيف حال

الولدين ؟ ؛ فارتعشت وقالت : هُما بخير ؛ قال : ما لى أراكِ شاحبةً صفراء ؟! ؛ وكيف قضيت ليلتك ؟! ؛ فأطرقت برأسها ؛ وقالت : قضيتها فى خياطة قميصين للولدين ؛ وَكُنْتُ كُلَّما سمعت صوت العاصفة وهدير الأمواج خِفْتُ عليك !! ؛ أمَّا الآن فقد زال كُلُّ شىءٍ والحمد لله !! ؛ ثم نظرت إليه وبين شفتيها كلمة تحاول أن تنطق بها فلا تستطيع !! ؛ ثم استنصرت جَلَدَهَا وقُوَّتها وقالت : وشىءٌ آخرٌ أحزننى جِدًّا !! ؛ قال : وما هو ؟! ؛ قالت : قد علمت الساعة قبل رُجُوعك بقليلٍ أن جارتنا ((جانت)) توفِّيت ؛ وأن ولديها الصغيرين قد أصبحا وحيدين فى هذا العالم ؛ لا عائل لهما !! ؛ فاضطرب عند سماع هذه الكلمة ؛ ونهض من مكانه وتمشَّى قليلاً ؛ ثم ألقى بِقُبَّعَتِهِ المُبَلَّلَة بالماء على سريره وظلَّ يعبث بشعر رأسه فيشُدُّهُ أحياناً ويمسحه أُخرى ؛ وهى تتبعه بنظراتها لتقرأ صورة نفسه على وجهه ؛ ثم جلس على المنضدة الممتدة فى وسط الكُوخ وظلَّ يقول بينه وبين نفسه بصوتٍ ضعيفٍ مُتَهَدِّج :

((رَبِّى !! إنى وإن كُنتُ رَجُلاً جاهلاً فَدِمَاً ؛ وليس فى استطاعتى أن أفهم حكمتك فى حرمان هذين الولدين البائسين من أُمِّهما ؛ إلا أننى لا أستطيع أن أُنكر وجودهما ؛ ولعلَّ الذين يعلمون أكثر مما أعلم يفهمون من شُئُونك وتصرُّفاتك أكثر مما أفهم ؛ نعم ؛ إننى فقيرٌ مسكينٌ ؛ أعيش تحت رحمة المُصادفات

والاتِّفاقات [٢٧](١) ؛ وربما مَرَّ علىَّ وعلى أولادى عِدَّةُ أيَّامٍ لا نجد فيها ما نَأْتَدِمُ به!! ؛ ولكن ماذا أصنع وقلبى يتألَّم لحال هذين اليتيمين الصغيرين أكثر مما يتألَّم من الجُوع وَالسَّغَب؟!!.

ثم التفت إلى زوجته ؛ وقال لها : إننى مُتألِّمٌ جِدًّا يا مدلين !! ؛ ويخُيَّل إلىَّ أن رُوح تلك المرأة المسكينة واقفةٌ الآن أمام هذا الباب تَقْرَعُهُ وَتَضْرَعُ إلينا أن نأخذ ولديها إلينا وَنَكْفُلُهُمَا من بعدها ؛ ولكن كيف العمل يا إلهى؟!!.

فقالت : إنى أكاد أسمع هذا الصوت الذى تسمعه يا فيليب !! ؛ وإن ألمى عظيمٌ كألمك!! .

فصمت هُنَيْهَةً ؛ ثم انتفض انتفاضةً شديدةً ودنا منها ؛ وقال لها : ألم يُمت لنا طفلان فى العامين الماضيين يا مدلين؟!! ؛ قالت : بلى ؛ قال : ماذا كُنَّا نصنع لو أنهما بقيا حيين حتى اليوم؟!! ؛ قالت : لا شىء سوى أننا نفزع إلى الله فى أمرهما ؛ قال : فلنفزع إلى الله فى أمر هذين الطفلين اليتيمين وكأنَّ ولدينا بقيا حيين حتى اليوم ؛ أو كأنهما بُعِثَا من قبرهما بعد موتهما!!.

اذهبى إليهما يا مدلين وأحضريهما ؛ فربما استيقظا بعد هُنَيْهَةٍ من نومهما فرأيا منظر أُمِّهما الميِّتة فى فراشها ؛ فماتا خوفاً ورُعباً!! .

---

[٢٧] (١) ـ يُقَال ـ جَاءَنِى هَذَا المَغْنَمُ اتِّفَاقاً : أى مُصَادَفَةً مِن غَيْرِ قَصْدٍ .

اذهبى إليهما واحمليهما برفقٍ وَهُدُوءٍ دُون أن توقظيهما ؛ وأضجعيهما على فراش ولدينا ؛ فسيكون منظرهم جميعاً غريباً جِدًّا حينما يستيقظون من نومهم وينظر بعضهم فى وجُوه بعضٍ ؛ وحرامٌ علىَّ النَّبيذ واللحم بعد اليوم حتى أستطيع أن أقوم بنفقة هذه الأُسرة الكبيرة التى أصبحتُ سَيِّدُهَا وَعَائِلُهَا ؛ اذهبى يا مادلين وَثِقِى أن الله سيملأ علينا بيتنا خُبزاً وَفَحْمَاً ببركة هؤلاء الأطفال الطاهرين!! .

فَتَهَلَّلَ وجهها بِشْرَاً وَسُرُوراً ؛ ونهضت من مكانه ؛ ومشت إلى مَضْجَعِ الأطفال ؛ فرفعت عنهم الغطاء ؛ ونظرت إلى زوجها صامتةً لا تقول شيئاً ؛ فما وقع نظر ((فيليب)) على هذا المنظر الغريب حتى اسْتُطِيرَ فرحاً وسُروراً ؛ وَهَرَعَ إلى زوجته واحتضنها إلى صدره ؛ وقال لها : ما أشرف قلبك يا مادلين !! .

يا سُكَّان القُصُور!!

ليتكم من سُكَّان الأكواخ ؛ لتستطيعوا أن تكُونوا من المُحسنين!! .

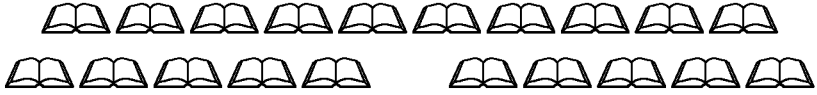

*- الشَّيْخُ مُحَمَّد عَبْدُه بَيْنَ العُلَمَاء

ما قام عظيمٌ من العُظماء فى أُمَّةٍ جاهلةٍ مُتأخِّرةٍ: يحُاول إصلاح ما فسد من أمرها؛ وعلاج ما عَضُلَ من دائها؛ والأخذ بِضُبْعَيْهَا؛ وَالإِنَافَةِ بها على اليَفَاع؛ والنُّهوض بها من أرض الجُمُود والموت إلى سماء الحركة والحياة: إلاَّ انقسم أفرادها فى شأنه قسمين ضرورة انقسامهم إلى أغبياء وأذكياء؛ ففريقٌ - وهو الأكثر عدداً وجهلاً؛ والأقل إدراكاً وفهماً - أطفأ الله نُور عقله؛ وأقام بين بصيرته وبين الحقِّ حِجَاباً كثيفاً من الجهل والجُمُود يعترض نفاذها وَيَسُدُّ سبيلها؛ فلا يزال نائماً فوق قديمه نوم الشَّحيح على ماله كُلَّما سمع نَأْمَةً غريبة وأحسَّ نَبْأَةً لم يعرفها من قبل؛ فَزِعَ قلبه وطار لُبُّهُ وصاح صياح المَمْرُور المُختبل: ((قديمى!! قديمى!!))؛ فلا يزال قديمه هذا قيداً فى رجليه يمنعهما من الحركة والانطلاق!!؛ وَسَدَّاً فى أُذُنَيْه يحجب عنهما نداء الحقِّ!!؛ وَغَشَاوَةً فى عينيه لا يرى من دُونها غير الظلام المُتكاثف!!؛ وسلاحاً فى يديه يحُارب به ذلك المُصلح الذى يُريد به خيراً مما يُريد بنفسه!!؛ وأنَّى له بعد أن نال منه قديمه ما نال أن يرى ويسمع فيعلم ما هذا الذى يُدْعَى إليه؛ أخيرٌ هو أم شَرٌّ؟!!.

وفريقٌ آخرٌ - وهو الأقل عدداً؛ والأوفر ذكاءً وعقلاً - يُدْعَى إلى الحقِّ فيُجيب؛ وَيُقَاد إلى الخير فيتبع؛ لم تُفسده عصبيَّةٌ؛ ولم تَقْعُد به هجميَّةٌ؛ ولم تضق به بصيرته أن يتبيَّن عند بُزُوغ فجر الدَّعوة بياضَ الحقِّ من سواد الباطل؛ أُولئك

هم أعوان المُصلح وأنصاره ؛ لا تزال الحربُ سِجَالاً بينهم وبين أعدائه ؛ حتى يصنع الله لهم ؛ فيقذف بالحقِّ على الباطلِ فَيَدْمَغُهُ ؛ فإذا هو زاهق.

وعظيمُ الأُمَّة الإسلاميَّة ومُصلحها اليوم ؛ هو سيِّد العُلماء ؛ وواحد الأتقياء : الأستاذ الشيخ مُحمَّد عبده مُفتى الدِّيار المصريَّة ؛ وما مَنَّ اللهُ على هذه الأُمَّة فى كثيرٍ من قُرُونها الماضية كما مَنَّ عليها به اليوم ؛ ولا ابْتُلِىَ عظيمٌ من العُظماء فى أُمَّته كما ابْتُلِىَ فى هذه الأُمَّة هذا الرَّجُل العظيم!! ؛

الذى نظر إليها نظر الطبيب الحاذق إلى عليله ؛ فرأى بُعْدَ ما بين سابقها ولاحقها ؛ وانقطاع ما بين حاضرها وماضيها : فَعَلِمَ أن داءها داءٌ دَوِىٌّ وبلاءها بلاءٌ عظيمٌ!! ؛ ورأى أجزاء جسمها تتحلَّل إلى ذرَّات ثم تتلاشى!! ؛ ورأى صُفرة الموت تجول فى وجهها وَأَغْرِبَة الفناء تُحلِّق فوق رأسها وقد أوشكت أن تملأ الفضاء نَعِيبَاً!! ؛ فلم يكد يملك نفسه من البُكاء على أُمَّةٍ ضربها الدَّهرُ بضرباته !! ؛ ورماها وهى مُحلِّقَةٌ فى سماء عِزِّهَا ومجدها بسهمٍ نَفِذَ ما بين جنبيها ؛ فهوت من مدار الأجرام إلى مقر الرَّغَام !! ؛ تشكو فلا تجد مُشتكى!! ؛ وتستغيث فلا ترى مُغيثاً ولا مُعيناً !! ؛ فَرَاعَهُ من أمرها ما رَاعَهُ !! وكاد ينقطع خيط الرَّجاء فى قلبه لولا أن وَهَبَهُ الله نفساً قويَّةً وعزيمةً ثابتةً وَجَنَانَاً لا تحوم حوله الأوهام ؛ ولا تأخذ منه نكبات الأيَّام ؛ وأودع ما بين جنبيه قلباً مَصُوغَاً من الشَّفقة والرَّحمة ؛ فنظر فى حال هذه الأُمَّة البائسة نظر العاقل البصير ؛ وتلمَّس موضع

دائها وسبب سُقوطها: فوجد أن داء أدوائها وَعِلَّة عِلَلِهَا إغفالها أمر دينها الذى عرفه سابقوها وَعَلِقُوا بِحَبْلِهِ؛ فكان سِرَّ ارتقائهم وتقدُّمهم وَعُلُوِّهم فوق علياء الأكاسرة والقياصرة؛ وامتداد فُتُوحاتهم فى قليلٍ من السِّنين إلى ما لم تمتد إليه يدٌ من قبل؛ وأهملته هى فودَّعها مجدها وفارقها عِزُّها؛ ووصلت إلى حيث تُضرب بِذِلَّتها الأمثال !!؛ وحيث أصبحت أكلة الآكلين؛ ونهبة الطامعين !!؛ وَعَلِمَ - حَفِظَهُ الله - أنَّه إن صَلُحَ لها دِينُهَا صَلُحَ لها كُلُّ شىءٍ من آخرتها وأُولاها؛ فأخذ نفسه بالدَّعوة إلى سبيل رَبِّهِ بالحكمة والموعظة الحسنة؛ مُخلصاً لله فى عمله؛ مُستعيناً بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِه؛ مُصدِّقاً وعده فى قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ (١)[٢٨].

وقوله تَعَالَى: ﴿ إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾[٢٩] (١).

هذا هو الشيخ محمد عبده؛ وهذه هىَ مقاصده ومذاهبه؛ فما الذى تَنْقِمُونَ منه أيُّها العُلماء الأعلام كما يُلَقِّبُكُم غَوْغَاؤكُم أو كما تُلَقِّبُون أنفسكم ؟!!؛ وما هذه الضجَّة التى سددتم بها منافذ الفضاء ؟!!؛ وما هذه الثائرة التى طمستم بها وجه السماء ؟!!؛ وما هذه النار التى تتأجَّج فى صُدُوركم من البغضاء؟!!؛ ومتى

---

[٢٨] (١) - [سُورَة العَنْكَبُوت/ الآيَة: ٦٩].

[٢٩] (٢) - [سُورَة مُحَمَّد /الآيَة: ٧].

كان عهدكم بلعن فرعون وهامان فتلعنوا رَجُلاً هو أصدقكم إيماناً ؛ وأثبتكم يقيناً ؛ وأكرمكم خُلُقاً ؛ وأعلاكم هِمَّة ؛ وأشرفكم نَفْساً ؛ وأعفَّكم لساناً ويداً ؛ وخيركم لنفسه وللناس ؟!! ؛ أنسيتم يوم ((هانوتو)) ؛ يوم وقف أمامه وقوف الشُّجاع المُستبسل يَذُودُ عن دينه ودينكم ؛ ويُناضل دُونه حتى قهر قرينه وأطفأ فتنة كادت تحترق فى نار شُبهاتها ألوفٌ من المُسلمين وأنتم صامتون مُستسلمون لا تُحِيرُون جواباً ؟!! ؛ أنسيتم كتابه ((الإسلام والنَّصرانيَّة)) الذى انْتَصَفَ به للإسلام من أعدائه ؛ فرضىَ به الله والمُسلمون ؛ وَخَرِسَت به ألسنة الجاحدين المُتَخَرِّصِين ؟!! ؛ أنسيتم ((رسالة التوحيد)) التى أظهر فيها الدِّينَ الحَنِيفِيَّ جوهراً خالصاً مُحَصَّصاً من شَوَائِبِ البِدَعِ والخُرافات التى شَوَّهْتُم بها وجهه أنتم وأمثالكم ؛ فلمَّا رآها مسيحىٌّ أُوروبىٌّ ؛ قال : ((إن كان الإسلام كما وصفه الشيخ محمد عبده فى رسالته ؛ فأنا مُسلمٌ مُنْذُ اليوم ؛ لولا أنى أخاف أن يكون الرَّجُل قد خدعنا ببلاغته !!)) ؛ فقد عرف المسيحىُّ الأعجمىُّ من شأن الرِّسالة ما لم تعرفوا ؛ وأدرك من فضل صاحبها ما لم تُدركوا ؛ ومن قابل بين هذه القصة وقصة ((رسالة الرَّد على هانوتو)) يوم ذهب ناشرها بِنُسَخٍ منها لِيُقدِّمها إلى مشيخة الأزهر ؛ فأبت قَبُولها بِحُجَّة أن كاتبها قد أَثِمَ باهتمامه بشأن الرَّدِّ على رَجُلٍ من القوم الكافرين : رأى منظراً عجيباً ونادرةً من أغرب النَّوادر ما رأى قبلها الرَّاءون ولا سُجِّلَ مثلها فى تواريخ الماضين ؟!! ؛ أنسيتم مقامه فيكم سنين عِدَّة

يُعلِّمكُم أخلاق العُلماء ؛ وما يجب عليهم فى عِفَّةِ أيديهم ؛ وطهارة أنفسهم ؛ وَالعُلُوِّ بأنفسهم عن مواطن الذُّلِّ والضَّيْم ؛ وَالنُّبُوِّ بها عن مَظَانِّ الشُّبَهِ وَالرِّيَب ؛ ويُرشدكم كيف تُؤدُّون وظيفتكم التى عَهِدَ الله بها إليكم ؛ والتى هى أوسع ميداناً وأفسح مجالاً من جِلستكم جِلسة الذَّليل الضَّارع وراء أعمدتكم الحجريَّة ؛ تختلفون إليها صباح مساء ؛ حتَّى تموتوا فتموت معكم آثاركم وأعمالكم ؛ فلا أنتم فى دُنياكم تُذكرون ؛ ولا أنتم فى أُخراكم تُؤجرون ؛ ولو أراد الله بكم خيراً لوفَّقكم إلى اتِّباع سبيله والاهتداء بِهَدْيِهِ والتأدُّب بآدابه والتخلُّق بأخلاقه ؛ فهى مِلاكُ السَّعادة ؛ وَمَنَاطُ العِزَّة ؛ وَمُلْتَقَى خيرى الدُّنيا والدِّين ؛ ولكنها الأقدار يسعدُ بها أقوامٌ ويشقى بها آخرون ؛ ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾[٣٠](١) .

إنكم والله ما تنقمون منه زَيْغَاً فى عقيدةٍ ؛ ولا سَعْيَاً فى فسادٍ كما تزعمون!! ؛ ولا يَعْنِيكُم حرَّم الرِّبا أم أَحَلَّ !! ؛ ثبتت الشفاعة أم لم تثبُت !! ؛ قام الدِّين أم قَعُد !! ؛ فنحن أدرى منكم بكم !! ؛ وأعلم بمنزلة الدِّين والفضيلة من نُفُوسكم !! ؛ وإنما عَزَّ عليكم أن تروا بجانبكم رَجُلاً نَبَتَ فى تربتكُم ؛ وَدَرَجَ

---

[٣٠] (١) ـ [سُورَة الرَّعْد / الآيَة : ٣٣] ؛ [سُورَة الزُّمَر / الآيَة : ٢٣] ؛ [سُورَة غَافِر / الآيَة : ٣٣] .

من عُشِّكُم ؛ واستقى من وِرْدِكُم الذى منه استقيتم : ثم ما لبثت الأيَّام أن دارت دورتها ؛ فإذا هو شمسٌ تتلألأ فى سماء المجد وَالشَّرَفِ بما وهبه الله من عِلْمٍ واسعٍ وبصيرةٍ نافذةٍ تكاد تخترق حُجب الغيب !! ؛ ونفسٍ سماويَّةٍ محَّصَتْهَا الفضيلة فلم تَعْلَق بها الرَّذائل ؛ ولا طارت حوله المفاسد والأطماع ؛ وِذِكْرٍ بعيدٍ تُردِّدهُ الأقطار وَتَتَهَادَاهُ الأمصار ؛ وجلالٍ تُطأطئ له الهَامَات وَتُغْضِى من مهابته الأبصار ؛ وَحُبٍّ مُبَرِّحٍ تنعقد عليه قُلُوب الملايين من المُسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ؛ وإذا أنتم لا تزالون فى أرض خُمُولكم لاصقين بها لُصُوق الجسد بِصُدُوركم ؛ فثقُل حِوَارُهُ عليكم ؛ وألهب منظره نار الغِلِّ والحقد فى أفئدتكم ؛ حتَّى لوددتم لو افتديتم أنفسكم من جواره بجوار مالكٍ فى الجحيم !! ؛ وقد فعلتم !! .

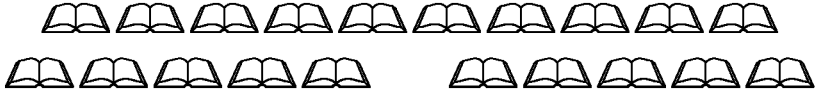

المُقَدِّمَاتُ
الَّتِى أُخِّرَت وَكَانَ مَوْضِعُهَا
فِى أَوَّلِ الكِتَاب

❁ - إِهْدَاء

إِنِّى أَقُولُ لِنَفْسِى وَهِىَ ضَيِّقَةٌ
وَقَد أَنَاخَ عَلَيْهَا الدَّهْرُ بِالعَجَبِ
صَبْرًا عَلَى شِدَّةِ الأَيَّامِ إِنَّ لَهَا
عُقْبَى وَمَا الصَّبْرُ إِلاَّ عِنْدَ ذِى الحَسَبِ
سَيَفْتَحُ اللَّهُ عَن قُرْبٍ بِنَافِعِةٍ ؛
فِيهَا لِمِثْلِكَ رَاحَاتٌ مِنَ التَّعَبِ

....

لا بَأْس !!... ؛ حَقًّا لا بَأْس!!... ؛ كُنْتُ أَظُنُّنِى سَأَحْزَنُ بِتِلْكَ الطَّرِيقَةِ الَّتِى كُنْتُ أَعْرِفُهَا مِن نَفْسِى فِيمَا سَلَفَ مِن عُمُرِى وَحَيَاتِى!!... ؛ لَكِنِّى شَعُرْتُ بِأَنَّ

هَذَا القَلْبَ قَد تَغَيَّرَ كَثِيرَاً !!... ؛ مَا زِلْتُ أَذْكُرُ كَيْفَ كَانَ وجْدَانِى وَكَيْفَ كَانَت مَشَاعِرِى عِنْدَمَا عَلِمْتُ بِأَنَّ أَسْمَاءَ قَد رَحَلَت مِن حَيَاتِى إِلَى النِّهَايَةِ !! .... ؛ كَانَت عُيُونِى كَالجَمْرِ المُلْتَهِب !!... ؛ كَانَت كَعُيُونِ الجِنِّ وَالشَّيَاطِين !!... ؛

فَقَد كُنْتُ أُجَاهِدُ مِن أَجْلِ مَنْعِ ذَلِكَ الثَّائِرِ الغَاضِبِ الَّذِى يُرِيدُ أَن يَخْرُجَ وَيَسِيل ؛ كَى يُنَفِّسَ عَن هَذِهِ الذَّاتِ الشَّقِيَّةِ التَّعِيسَةِ!!... ؛ وَكَانَ فُؤادِى كَبُرْكَانٍ ثَائِرٍ غَاضِبٍ !!... ؛ كُنْتُ أَنْظُرُ إِلَى حَيَاتِى وَإِلَى دُنْيَاى ؛ فَأَشْعُرُ وَكَأَنَّ كُلَّ شَىْءٍ قَد اسْتَحَالَ أَسْوَدَاً مُظْلِمَاً كَئِيبَاً !!... ؛ نَعَم !!... ؛ هَكَذَا كُنْتُ فِى هَذِهِ الأَيَّام !! ... ؛ أَمَّا اليَوْم !!... ؛ فَإِنَّ كُلَّ شَىْءٍ قَد تَغَيَّر!!... ؛ رَغَمَ أَنَّنِى حَزِنْتُ كَثِيرَاً عَلَيْكِ يَا فَتَاةَ عَهْدِىَ الحَاضِر !! ؛ إِلاَّ أَنَّ قَلْبِى مَا اضْطَرَبَ وَمَا تَحَرَّك !!... ؛ وَالدَّمْع!! ... ؛ كَلِمَةٌ مَا عَادَ مُعْجَمُ انْفِعَالاتِى يَعْرِفُهَا كَمَا كَانَ يَعْرِفُهَا فِى المَاضِى عِنْدَمَا تَرْحَلُ حَبِيبَتِى وَتَنْفَجِرُ المَأْسَاة !! .

أَنَا قُلْتُ فِى قَصِيدَةٍ لِى مِن قَبْل ؛ وَأَنَا أُخَاطِبُ فَتَاةً كَانَ لَهَا مَعِى دَوْرٌ عَلَى أَرْضِ رِوَايَتِى البَائِسَة ؛ قُلْتُ لَهَا :

((عُـذْرَاً فَتَاتِى!!... ؛ عُـذْرَاً فَتَاتِى الحَائِرَه !!... ؛ عُـذْرَاً لأَنَّ عُيُـونَكِ الثَّكْلَى بِأَرْضِ رَجَاءِهَا فِى يَوْمِ عِيدٍ قَد تَوَلَّت خَاسِرَه !!... ؛ لا فَرْقَ بَعْدَ وَدَاعِنَا مَن ذَا نَجَا أَو مَن خَسِر!!... ؛ فَالمَرْكَبُ الوَرْدِىُّ عِنْدَ عُبُورِهِ فِى وَسْطِ نَهْرٍ قَد تَهَشَّمَ

وَانْكَسَر!!... ؛ مَا كُنْتِ حُلْمِى!!... ؛ مَا كُنْتِ حُلْمِى وَهَا أَنَا مَا كُنْتُ يَوْمًا بِالحَبِيبِ المُنْتَظَر!!... ؛ عِشْقٌ مُحَال !!... ؛ عِشْقٌ مُحَالٌ أَن يُنَاطَ الحُلْمُ بى وَأَنَا عَلَى بَحْرِ الزَّمَانِ أُرِيدُ عَوْدَ سَفَائِنِى ... ؛ كَى أَبْدَأَ التِّرْحَالَ أُعْلِنُ مِن جَدِيدٍ عَن رَحِيلٍ أَو سَفَر!!... ؛ عُذْرًا !!... ؛ عُذْرًا فَيَوْمُ لِقَاءِنَا وَسْطَ الغُيُومِ بِقَلْبِ أَوْدِيَةِ المَطَر!!. عُذْرًا فَمَا يُجْدِى البُكَاء !!.. ؛ أَنَا دَمْعُ عَيْنِى قَد نَزِف فِى ظِلِّ أَزْمِنَةِ الشَّقَاء !! ... ؛ وَلِذَا فَإِنِّى؟!!... ؛ وَلِذَا فَإِنِّى قَد أَمُرُّ عَلَى الدَّمِ المَسْفُوحِ مِن غَيْرِ امْتِعَاضٍ أَو عَنَاء !!... ؛ هَا أَنْتِ تَرْثِينَ الهَوَى يَوْمَ التَّفَرُّقِ وَالخَسَار!! ... ؛ وَأَنَا بِطُبْشُورٍ كَئِيبٍ !!... ؛ قَد كَتَبْتُ نِهَايَتِى !!... ؛ فِى وَجْهِ أَحْشَاءِ الجِدَار!!... ؛ عُذْرًا فَتَاتِى حَقِيقَةً !!... ؛ عُذْرًا فَتَاتِى فَإِنَّنِى !! ... ؛ أَنَا كُلُّ يَوْمٍ فِى قِطَار !! .)) .

....

حَقًّا أَنَا سَعِيدٌ بِهَذَا!!... ؛ نَعَم ؛ مَا زِلْتُ أُحِبُّ بِطَرِيقَتِى القَدِيمَة ... ؛ مَا أَهْوَى حَبِيبَتِى إِلاَّ بِكُلِّ كَيَانِى وَمَشَاعِرِى ؛ وَلَكِن إِذَا مَا كَانَت النِّهَايَةُ الَّتِى عَوَّدَتْنِيهَا الدُّنْيَا !!... ؛ فَإِنِّى أَمْضِى فِى سُكُونِ الرَّجُلِ الَّذِى قَتَلَ التَّجَارَبَ... ؛ وَصَنَعَتْهُ نِهَايَاتُ حِكَايَاتِهِ الَّتِى خَاضَهَا عَلَى دُرُوبِ هَذَا العُمُر !!... ؛ أَمْضِى وَأَنَا أَقُولُ فِى صَمْتٍ بَاسِمٍ : ((لا بَأْس !!)) .

....

إِلَى ابْنَةِ بَلْدَتِى القَدِيمَة !!
إِلَى قِصَّةٍ مَاتَت وَهِىَ فِى
رَحِمِ تَارِيخِ الهَوَى !!

إِلَى الفَتَاةِ السَّمْرَاء !!... ؛ إِلَى...!! :

هِبَه

أُهْدِي هَذَا الكِتَاب

مُحَمَّد مَحْمُود دَحْرُوج

[مُنْتَصَف مَارِس ٢٠١٢ م]

- بَيْنَ يَدَى الكِتَاب :

بسم الله الرحمن الرحيم

((الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لا يُسْتَفْتَحُ بِأَفْضَلِ مِن اسْمِهِ كَلام ؛ وَلا يُسْتَنْجَحُ بِأَحْسَنِ مِن صُنْعِهِ مَرَام ؛ الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي افْتَتَحَ كَلامَهُ الكَرِيم ؛ وَفُرْقَانَهُ العَظِيم ؛ بِـ : ﴿الحَمْدُ لِلَّه﴾ : الَّذِي هُوَ شِعَارُ أَهْلِ الجَنَّة ؛ كَمَا قَال : ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُم : أَن الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِين ﴾ [٣١](١) .

الحَمْدُ لِلَّهِ المُسْتَحِقِّ الحَمْدَ حَتَّى لا انْقِطَاع ؛ وَمُوجِبِ الشُّكْرَ بِأَقْصَى مَا يُسْتَطَاع ؛ الحَمْدُ لِلَّهِ مَانِحِ الأَعْلاق ؛ وَفَاتِحِ الأَغْلاق ؛ الحَمْدُ للهِ مُعِزِّ الحَقِّ وَنَاصِرِه ؛ وَمُذِلِّ البَاطِلِ وَقَاهِرِه ؛ الحَمْدُ لِلَّهِ مُعِزِّ الدِّينِ وَمُدِيلِهِ ؛ وَمُذِلِّ البَاطِلِ

[٣١] (١) ـ [سُورَة يُونُس / الآية : ١٠] .

وَمُسِيلِهِ ؛ الحَمْدُ لِلَّهِ فِى الحُجَجِ البَوَالِغ ؛ وَالنِّعَمِ السَّوَابِغ ؛ وَالنِّقَمِ الدَّوَامِغ ؛ الحَمْدُ للهِ المُبِينِ أَيْدُهُ ؛ المَتِينِ كَيْدُهُ ؛ جَاعِلِ المُعَاقَبَةِ لِحَرْبِهِ ؛ وَالعَاقِبَةِ لِحِزْبِهِ ؛ الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لا يُدْرَكُ بِالأَبْصَار ؛ وَلا تَحُثُّهُ الأَقْدَار ؛ وَلا تَحْوِيهِ الأَقْطَار ؛ الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَقَلَّ نِعَمِهِ يَسْتَغْرِقُ أَكْثَرَ الشُّكْر ؛ الحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدَاً يَبْلُغُ الحَقَّ وَيَقْضِيه ؛ وَيَمْتَرِى المَزِيدَ وَيَقْتَضِيه .

عَلاَّمُ الغُيُوب ؛ وَمَن بِيَدِهِ أَزِمَّةُ القُلُوب ؛ الخَبِيرُ بِمَا تُحِنُّ الضَّمَائِرُ وَتُكِنُّ السَّرَائِر ؛ سَمِيعٌ لِرَاجِيه ؛ قَرِيبٌ مِمَّن يُنَاجِيه ؛ إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقْضِى مَا يُرِيد ؛ وَإِن رَغِمَ أَنْفُ الشَّيْطَانِ المَرِيد ؛ لِلَّهِ مَعَ كُلِّ لَمْحَةٍ صُنْعٌ حَفِىٌّ ؛ وَلُطْفٌ خَفِىٌّ ؛ صُنْعُ اللهِ لَدَيْنَا لَطِيف ؛ وَفَضْلُهُ بِنَا مُطِيف ؛ لا يَزَالُ اللهُ يَجْزِينَا عَلَى أَحْسَنِ عَادَتِه ؛ وَيَقْسِمُ لَنَا أَفْضَلَ سَعَادَتِه ؛ نِعَمُ اللهِ عَلَى أَحْسَنِ مَا اُعْتِيدَ مِن إِحْسَانِهِ العَتِيد ؛ إِنَّ اللهَ مُنْجِزُ عِدَاتِه ؛ وَحَافِظُ عَادَاتِه ؛ وَمُهْلِكُ عُدَاتِه .

وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ خَيْرِ مَن افْتُتِحَت بِذِكْرِهِ الدَّعَوَات ؛ وَاسْتُنْجِحَت بِهِ الطِّلْبَات (١)[٣٢] ؛ صَلَّى اللهُ عَلَى مِفْتَاحِ الرَّحْمَة ؛ وَمِصْبَاحِ الظُّلْمَة ؛ وَكَاشِفِ الغُمَّةِ

---

[٣٢] (١) ـ الطِّلْبَات : وَاحِدُهَا : طِلْبَةٌ : وَهِىَ الرَّغْبَةُ وَالحَاجَة ؛ يُقَال ـ مَا هِىَ طِلْبَتُك : أَى مَا هِىَ حَاجَتُك .

عَـن الأُمَّة ؛ صَـلَّى اللهُ عَلَـى بَشِـيرِ الرَّحْمَـةِ وَالثَّوَاب ؛ مُحَمَّـدٍ الَّـذِى أَدَّى الرِّسَـالَةَ مُخْلِصَـاً ؛ وَبَلَّغَ الرِّسَـالَةَ مُلَخِّصَاً ؛ صَـلَّى اللهُ عَلَـى مُحَمَّـدٍ أَتَـمِّ بَرِيَّتِـهِ خَيْـرَاً وَفَضْلاً ؛ وَأَطْيَبِهِم فَرْعَاً وَأَصْلاً ؛ صَلَّى اللهُ عَلَى خَيْرِ مَوْلُود : دَعَا إِلَى خَيْرِ مَعْبُود ؛ صَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ خَيْرِ نَبِىٍّ وَمَبْعُوث ؛ وَأَفْضَلِ وَارِثٍ وَمَوْرُوث .

وَعَلَى آلِهِ الَّـذِينَ عَظَّمَهُـم تَـوْقِيرَاً ؛ وَطَهَّرَهُم تَطْهِيرَاً ؛ وَعَلَـى آلِهِ الَّـذِينَ هُـم أَعْـلامُ الإِسْـلام ؛ وَأَيْمَانِ الإِيمَـان ؛ وَعَلَى آلِـهِ الطَّيِّـبِينَ الأَخْيَار ؛ الطَّـاهِرِينَ الأَبْرَار ؛ وَعَلَى آلِهِ الَّذِينَ أَذْهَبَ عَنْهُم الأَرْجَاس ؛ وَطَهَّرَهُم مِنَ الأَدْنَاس ؛ وَجَعَلَ مَوَدَّتَهُم أَجْرَاً لَهُ عَلَى النَّاس ؛ وَعَلَى آلِهِ الَّذِينَ هُم زِينَةُ الحَيَاة ؛ وَسَفِينَةُ النَّجَاة ؛ وَشَجَرَةُ الرُّضْوَان ؛ وَعَشِيرَةُ الإِيمَان .)) . [٣٣](١) .

[٣٣] (١) ـ ((لُبَابُ الآدَاب)) : أَبُو مَنْصُور الثَّعَالِبِيُّ ؛ دَارُ الكُتُبِ العِلْمِيَّة ؛ بَيْرُوت ؛ ط (١) : ١٤١٧ هـ = ١٩٩٧ م ؛ تَحْقِيق : أَحْمَد حَسَن لبج ؛ (صـ : ٢٥ ـ ٢٦) .

أما بعد:

عَادَنَى الهَمُّ وَاعْتَلَجْ !!

كُلُّ هَمٍّ إِلَى فَرَجْ

ثُمَّ:

وَإِنِّى لأَرْجُو اللهَ حَتَّى كَأَنَّنِى

أَرَى بِجَمِيلِ الظَّنِّ مَا اللهُ صَانِعُ

هَكَذَا نَسْعَى فِى هَذِهِ الحَيَاة !!... ؛ قَدَرِى أَن أَمْضِى بِخُطُواتٍ حَائِرَةٍ فِى دُرُوبِ هَذِهِ الدُّنْيَا !!... ؛ حَاوَلْتُ أَن أَحْيَا كَمَا يَحْيَا البَشَر ؛ وَلَكِنَّ أَيَّامِى أَبَت إِلاَّ أَن أَحْيَا كَمَا تَحْيَا النُّجُوم !!... ؛ تُضِىءُ لِغَيْرِهَا ؛ ثُمَّ لا يَدْرِى هَذَا الَّذِى يَسْعَى فِى نُورِهَا ؛ أَنَّهَا تُعَانِى أَشَدَّ المُعَانَاةِ فِى وِحْدَتِهَا وَعُزْلَتِهَا وَانْفِرَادِهَا !!... ؛ كَانَت الدُّنْيَا قَد أَظْلَمَت فِى عَيْنِى ؛ بَعْدَ أَن قَضَيْتُ كُلَّ هَذِهِ السَّنَوَاتِ فِى عِشْقِ أَسْمَاء !! ؛ ثُمَّ ذَهَبَت فِى النِّهَايَةِ لِتَحْيَا مَعَ ابْنِ الثَّرَاءِ وَالغِنَى ؛ وَبَقِيتُ أَنَا فِى آخِرِ الرِّوَايَةِ كَشَبَحٍ ضَالٍّ يَمْشِى بِأَقْدَامٍ حَزِينَةٍ عَلَى طَرِيقِ اليَأْسِ فِى لَيْلِ الصَّمْتِ فِى زَمَنِ الشِّتَاء !!... ؛ نَعَم !! ؛ نَعَم قَد كَتَبْتُ يَوْمَ رَحِيلِهَا قَصِيدَتِى : ((القَلْبُ الخَلِىُّ !!... ؛ مِنَ النُّقُوش)) !! ؛ وَظَنَنْتُ أَنَّنِى أَنْكَرْتُهَا... ؛ وَلَكِنِّى عُدتُ إِلَى نَفْسِى ؛ فَقُلْتُ لَهَا : بَل أَنَا الَّذِى أَضَعْتُهَا !!.

لَعَنْتُهَا فِى شِعْرِى !!... ؛ثُمَّ عَلِمْتُ بَعْدَ التَّأَمُّلِ أَنَّهَا أَبَدًا مَا ظَلَمَت !!... ؛أَنَّهَا أَبَدًا مَا أَخْطَأت فِى حَقِّى !!... ؛أَنَّهَا أَبَدًا مَا أَسَاءَت إِلَى شَخْصِى وَذَاتِى !!... ؛ جُرْمُهَا!!... ؛وَذَنْبُهَا !!... ؛وَجِنَايَتُهَا !!... ؛أَنَّهَا أَرَادَت بَعْدَ اليَأْسِ مِن خُطَّتِى وَمِن أَفْكَارِى اللَّعِينَةِ أَن تَحْيَا كَمَا يَحْيَا النَّاس ؛أَن تَجِدَ الأَمَان ... ؛وَالسُّكُون ... ؛وَرَاحَةَ النَّفْس ... ؛وَأَنَا مَا عِنْدِى هَذِهِ المَعَانِى!!... ؛مَا يَعْرِفُهَا قَامُوسُ وجُودِى !!.

حَيَاتِىَ إِعْصَارٌ عَنِيفٌ وَمِحْنَةٌ

وَعَصْفٌ مِنَ البَلْوَى يُعَكِّرُ أَحْلاَمِى

هُنَا فِى فُؤَادِى آهَةٌ كَم حَبَسْتُهَا

هُنَا فِى طَرِيقِى يُطْبِقُ الهَوْلُ قُدَّامِى !!

ثُمَّ ذَهَبَت فِى النِّهَايَةِ !!... ؛وَكَانَ لاَبُدَّ أَن تَذْهَب !!... ؛يَقُولُون: الإِنْصَافُ عَزِيز ؛وَلَكِنِّى أَقُول: ذَهَبَت إِلَى أَخٍ أَحْسَبُهُ فَاضِلاً ؛فَصَانَهَا ؛وَرَعَاهَا ؛وَأَظَلَّهَا بِظِلِّ الغَنِىِّ الفَطِن ؛فَالحَمْدُ لِلَّه !!... ؛سَكَنَت نَفْسُهَا ؛وَهَدَأَت رُوحُهَا ... ؛وَأَنَا سَعِيدٌ بِهَذَا لَسْتُ أَكْذِب ؛لَسْتُ أَنَا مِن ذَلِكَ الصِّنْفِ البَشِع !!... ؛الَّذِى يَتَمَنَّى فَسَادَ حَيَاةِ حَبِيبَتِهِ حَتَّى وَلَو كَانَ زَوْجُهَا مِنَ النُّبَلاءِ الكِرَام ؛حَتَّى يَجِدَ لِنَفْسِهِ دَوْرًا فِى الرِّوايَةِ مِن جَدِيد !!... ؛لَسْتُ أَنَا !!... ؛مَوْبُؤءُ المَشَاعِرِ مَن يُفَكِّرُ بِهَذِهِ الطَّرِيقَة !!... ؛أَمَّا أَنَا ؛فَدَائِمًا مَا أَدْعُو لِحَسْنَاءِ المَدِينَةِ بِالخَيْرِ وَالصَّلاح ؛أَن تَنْعَمَ مَعَ زَوْجِهَا بِكُلِّ مَا يَسُرُّ النَّفْسَ وَيُسْعِدُ الفُؤاد ؛وَمَا هَذَا لأَنَّنِى نَسِيتُهَا !!

... ؛ كَلاَّ !! ؛ وَلا !! ؛ بَل هَذَا لأَنَّنِى مَا زِلْتُ أُحِبُّهَا .

رَأَيْتُهَا مُنْذُ أَيَّامٍ وَأَنَا سَائِرٌ فِى طَرِيقِى !!... ؛ رَأَيْتُهَا فَسَيْطَرَ الخَجَلُ وَالحَيَاءُ عَلَى كَيَانِى ؛ فَمَا اسْتَطَعْتُ أَن أَنْظُرَ إِلَيْهَا بَعْدَ النَّظْرَةِ الأُولَى !!... ؛ فَأَطْرَقْتُ وَصَوَّبْتُ بَصَرِى نَحْوَ الأَرْضِ ؛ وَسِرْتُ هَكَذَا حَتَّى انْتَهَت تِلْكَ الأَمْتَارُ الَّتِى كَانَت تَفْصِلُ بَيْنِى وَبَيْنَهَا ؛ ثُمَّ تَجَاوَزْتُهَا !! .

أَسْمَاء !!... ؛ إِنَّهُ الوَجْهُ الَّذِى لَن أَنْسَاه !!... ؛ أَسْمَاء ؟!!... ؛ مَن هِىَ ؟!!... ؛

إِنَّهَا الحُبُّ الَّذِى جَاءَ فِى زَمَنِ الأَمَل ... ؛ ثُمَّ تَرَكَنِى وَمَضَى !!... ؛ وَبَقِيتُ وَحْدِى فِى أَرْضِ التِّيهِ وَالضَّيَاع !! .

فِى مَلْحَمَتِى الكُبْرَى : ((مَلْحَمَةُ : المُنْتَحِرُون)) ؛ ذَكَرْتُهَا ؛ وَكَانَت آخِرُ مَن ذَكَرْت ؛ وَأَرَدتُ أَن أَذْكُرَهَا فِى آخِرِ القَصِيدَةِ حَتَّى أَشْعُرَ بِلَذَّةِ الأَلَم !! .

قُلْتُ هُنَاك :

((وَبُعَيْدَهَا ؟!!... ؛ وَبُعَيْدَهَا أَسْمَاءُ كَانَت مَوْطِنِى !!... ؛ كَانَت بِلادِى وَمَسْكَنِى !!... ؛ كَانَت مَلاذِى وَمَوْئِلِى !!... ؛ مَازِلْتُ أَذْكُرُ مُنْذُ أَزْمَانٍ لِقَائِى الأَوَّلِ !!... ؛ كُنَّا بِجَمْعٍ مِن بَشَر !!... ؛ مَا بَيْنَ طَفْلٍ أَو فَتَاةٍ أَو صَبِى !! ... ؛ مَا بَيْنَ أُمٍّ أَو فَتَى أَو مَحْضِ شَيْخٍ قَد تَهَدَّمَ مِن كِبَر !!... ؛ مَازِلْتُ أَذْكُرُ ذَا الصَّبَاح !!... ؛ مَازِلْتُ أَذْكُرُ كَيْفَ لَم نَعْبَا بِبَرْدِ الفَجْرِ أَو عَصْفِ الرِّيَاح !! ... ؛ شُغِلَ

الجَمِيعُ بِشَأْنِهِم !!... ؛ بِطَعَامِهِم وَبِخُبْزِهِم !!... ؛ بَيْنَا العُيُونُ تَكَلَّمَت !!... ؛ وَقَعَ الهَوَى !!... ؛ فَرَأَيْتُهَا صَمَتَت وَمِن بَيْنِ النِّسَاءِ تَبَسَّمَت !! ... ؛ كَانَت كَبَدْرِ الكَوْنِ فِى اللَّيْلِ الحَزِين !!... ؛ كَانَت كَلَحْنٍ سَاحِرٍ يَنْزِع مِنَ الصَّدْرِ المُعَذَّبِ كُلَّ آلامِ السِّنِين !!.

مَازِلْتُ أَذْكُرُ وَجْهَهَا !!... ؛ مَا عَيْنُهَا !! ؛ مَا ثَغْرُهَا وَشِفَاهُهَا !!... ؛ مَا غُصْنُهَا وَقَوَامُهَا وَبَرِيقُهَا !!... ؛ مَازِلْتُ أَذْكُرُ حُسْنَهَا وَجَمَالَهَا !! .

سِرْنَا مَعَا !!... ؛ كَانَت مَلاكُ وَفَوْقَ أَرْضِى قَد نَزَل !!... ؛ جَاءَت بِشَمْسٍ قَد أَبَادَت كُلَّ أَزْمَانِ المَلَل !!... ؛ أَحْيَت مَعِيناً كَانَ فِى قَلْبِى نَضِب !!... ؛ ذَهَبَت رِيَاحُ الحُزْنِ وَالآثَارُ مِن عَهْدِ الغَضَب !!... ؛ كَانَ اللِّقَاءُ هُنَاكَ دَوْمَاً وَسْطَ أَحْشَادِ الجُمُوع !!... ؛ كَانَ النَّهَارُ إِذَا أَتَت يُحْيِى كَوَامِنَ قُوَّتِى وَإِرَادَتِى !! ... ؛ أَمَّا المَسَاءُ وَفِى لَيَالِى غُرْبَتِى ... ؛ عَيْنَاهَا كَانَت لِى شُمُوع !!... ؛ مَازِلْتُ أَذْكُرُ مُنْذُ أَعْوَامٍ تَخَلَّت كَيْفَ كَانَ لِقَاؤنَا عِنْدَ الصَّبَاح !!... ؛ كَيْفَ كُنْتُ بِرُؤيَةِ الوَجْهِ الحَبِيبِ أُمِيتُ مَا قَد كَانَ فِى لَيْلِى مِنَ الأَوْجَاعِ !! ... ؛ أَو صَوْتِ الجِرَاح !! ... ؛ وَبِفَجْأَةٍ !!... ؛ وَبِفَجْأَةٍ غَابَت عُيُونُ حَبِيبَتِى !!... ؛ وَنَظَرْتُ لا أَدْرِى جَوَابَاً لِلسَّبَب ؟!!... ؛ وَبُعَيْدَ تَسْآلِى الحَزِين ؟!!... ؛ أَيْقَنْتُ أَنَّ السِّرَّ هُوَ عُدْمِى وَإِفْلاسِى وَفَقْرِى وَفَاقَتِى !!... ؛ وَلِذَاكَ وَلَّت بَعْدَ يَأْسٍ مِن رَجَاءٍ لَم يَرَ غَيْرَ القُنُوط !!... ؛ وَبَقِيتُ وَحْدِى مِن جَدِيدٍ تَائِهَا !!... ؛ وَبِلَحْظَةٍ ؟!! .. ؛ كَانَ

السُّقُوط !!.. ؛ وَتَرَادَفَت عِنْدِى المَعَانِى كُلُّهَا !!... ؛ كَلِمَاتُ مَجْدٍ !! .. ؛ أو سُكُوت !!.. ؛ العَيْشُ فِى صَرْحِ المَعَالِى أو بِإِحْدَى خَرَائِبِ المَجْهُولِ !! ... ؛ مَطْرُوحٌ يَمُوت !!... ؛ لا فَرْقَ بَيْنَ السُّمِّ مَعْسُولاً وَذِى طَعْمٍ مَرِير !! ... ؛ لا فَرْقَ عِنْدَ البَائِسِ المَحْطُومِ أَن يَبْقَى طَوِيلاً !!... ؛ أو يُعَجَّلَ بِالمَصِير !!.

إِى هَاذِى كُلُّ حِكَايَتِى !!... ؛ مَا بَيْنَ خَاتِمَتِى وَبَيْنَ بِدَايَتِى !!... ؛ كَانُوا وَهَا أَنَا فِى الأَخِيرِ !!... ؛ جَسَدٌ طَرِيح !!... ؛ رُوحٌ تُطَارِدُهَا خَيَالاتُ الرَّدَى !! ... ؛ عَيْنٌ كَلِيلَةٌ لا تَرَى غَيْرَ التَّلاشِى !! ... ؛ وَالنِّهَايَةِ !! ... ؛ وَالمَصِير !!... ؛ هَاذِى رِوَايَةُ قُيِّدَت بِالأَسْطُرِ الحَمْرَاءِ مِن قَلَمِ الزَّمَن !!... ؛ بِالأَمْسِ قَد كَانُوا هُنَا !!... ؛ وَاليَوْمَ أَشْبَاحِى هُنَالِكَ عِنْدَ صَخْرِ الوَهْمِ !!... ؛ فِى وَادِى المِحَن !!. وَبَقِيتُ وَحْدِى !!... ؛ وَبَقِيتُ وَحْدِى حَائِرًا وَسْطَ الدُّرُوب !!... ؛ رُوحِى مَلِيئَةُ ؟!! ... ؛ بِالشَّظَايَا !!... ؛ وَالنُّدُوب !!.))[٣٤](١).

....

ثُمَّ !!:

((اعْلَم أَنَّ العِشْقَ لا يَكُونُ مَعَ الفِسْق ؛ وَمَتَى مَازَجَ العِشْقَ

[٣٤] (١) ـ مِن قَصَائِدِ دِيوَانِى ((عِنْدَمَا نَجْلِس سَوِيًّا)) .

الفِسْقُ !!... ؛ ضَعُفَت قُوَاه ؛ وَانْفَصَمَت عُرَاه .)) .

فِى فِبْرَاير مِن عَام ٢٠١١ م ؛ كَانَت آخِرُ قِصَّةٍ لِى عَلَى ذَلِكَ الدَّرْبِ البَشِعِ اللَّعِين !!... ؛ كَانَت هَذِهِ القِصَّةُ مَعَ فَتَاةٍ مُشَوَّهَةِ الفِكْرِ وَالضَّمِير !!... ؛ عَرِفْتُ مِن خِلالِ تَجْرِبَتِى مَعَهَا نَوْعَاً رَهِيباً مِنَ النِّسَاء !!... ؛ عَلَّمَتْنِى فَنَّاً غَرِيباً مَا كُنْتُ أَعْرِفُهُ وَمَا أَحْبَبْتُ أَبَدَاً أَن أَعْرِفَه !!... ؛ وَلَكِن هَكَذَا كَان !!... ؛ وَالحَمْدُ للهِ أَن عَصَمَنِى ؛ أَبَى اللهُ سُبْحَانَهُ إِلاَّ أَن يَأْتِى عَلَىَّ هَذَا اليَوْمُ الَّذِى أَكْتُبُ فِيهِ هَذِهِ الكَلِمَاتِ ؛ فَأُقْسِمُ صَادِقَاً : أَنَا مَا رَأَيْتُ جَسَدَ امْرَأَةٍ أَبَدَاً .

ثُمَّ !! :

مَضَى حَوْلٌ كَامِلٌ ؛ بِأَيَّامِهِ ؛ وَلَيَالِيهِ ؛ وَشُهُورِهِ ... ؛ مَرَّ عَامٌ مِن حَيَاتِى وَأَنَا مَا أَعْرِفُ غَيْرَ القَلَم !!... ؛ كُنْتُ أُعِدُّ العُدَّةَ لِلخُرُوجِ مِن هَذِهِ المَدِينَةِ المُظْلِمَةِ إِلَى النِّهَايَةِ ... ؛ كُنْتُ أَتَهَيَّأُ للانْتِقَالِ إِلَى العَاصِمَةِ وَمُواصَلَةِ مَسِيرَتِى بِهَا ؛ لاسِيَّمَا بَعْدَ نَجَاحِ أَعْمَالِى الأَخِيرَةِ وَرَغْبَةِ العَدِيدِ مِن أَصْحَابِ المُؤَسَّسَاتِ الثَّقَافِيَّةِ فِى العَمَلِ مَعَهُم... ؛ شَجَّعَنِى هَذَا عَلَى التَّفْكِيرِ الجَدِّىِّ فِى المُغَادَرَةِ وَتَرْكِ هَذِهِ المَدِينَةِ الَّتِى مَا جَنَيْتُ مِن وَرَاءِ العَيْشِ فِيهَا سِوَى التَّعَاسَةِ إِلَى الأَبَد ؛ وَكُنْتُ أَقُولُ لِنَفْسِى : مَا عَادَ هُنَاكَ شَىْءٌ يَدْعُو إِلَى التَّسْوِيفِ فِى هَذَا القَرَار!!

... ؛ مَاتَ أَبِى... ؛ ثُمَّ مَاتَت أُمِّى... ؛ ضَاعَت أَسْمَاء... ؛ مَضَت سَنَوَاتٌ لَيْسَت بِالقَلِيلَةِ مِن عُمُرِى... ؛ قَامَت الخُصُومَةُ الظَّاهِرَةُ وَالخَفِيَّةُ بَيْنِى وَبَيْنَ كُلِّ

أَصْدِقَائِى ؛ وَأَصْبَحْتُ أَدْعُوهُم بِـ: ((الأَصْدِقَاء القُدَامَى)) !!... ؛ صُنِعَت عَدَاءَاتٌ بَيْنِى وَبَيْنَ الكَثِيرِينَ مِنَ النَّاس ؛ وَصَارَ البُغْضُ هُوَ المَعْنَى الوَحِيدُ الَّذِى يَجْمَعُ بَيْنَنَا... ؛ جَاءَت النَّكْبَةُ النَّفْسِيَّةُ وَالوجْدَانِيَّة ؛ تِلْكَ الَّتِى أَعْقَبَت نِهَايَة قِصَّتِى مَعَ فَتَاة فِبْرَاير ٢٠١١ م ... ؛ نُشُوبُ حَرِبِ البَغْضَاءِ بَيْنِى وَبَيْنَ أَبْنَاءِ عَشِيرَتِى !!... ؛ قَضَاءُ الأَيَّامِ وَاللَّيَالِى بَيْنَ انْفِعَالاتِ الضِّيقِ وَالمَلَلِ وَالنُّفُور ؛

ومَشَاعِرِ الحُزْنِ وَالأَلَمِ وَالحَسْرَة !!.

أَلَم يَكُن كُلُّ هَذَا كَافِيَاً ؟!!

كُنْتُ عَلَى وَشَكِ الخُرُوجِ مِن مَدِينَةِ الحِصَار ؛ كُنْتُ أَنْتَظِرُ سَاعَةَ الذَّهَابِ الَّتِى لا رُجُوعَ بَعْدَهَا !! .

....

ثُمَّ !!:

لَقَد طَلَبَت أَن لا أَبُوحَ بِحُبِّهَا

وَلَكِنَّنِى قَد بُحتُ حَتَّى فَشَا أَمْرِى

فَوَاللَّهِ مَا أَدْرِى إِذَا مَا لَقِيتُهَا

وَقَد سَأَلَتْنِى مَا يَكُونُ لَهَا عُذْرِى ؟!!

ظَهَرَت عُيُونُهَا فَجْأَةً فِى سَمَاءِ حَيَاتِى !!... ؛ عُيُونٌ صَافِيةٌ بَرِيئَةٌ !!... ؛ كَانَ اللِّقَاءُ الأَوَّل !!... ؛ أَسَرَتْنِى وَعَلِقْتُهَا !!... ؛ وَلَزِمَتْنِى وَمَلَكْتُهَا !!... ؛ وَصَارَ الأَمْرُ مَعْرُوفاً مَشْهُوراً كَحَالِ حِكَايَاتِى مَعَ العِشْقِ دَائِماً !!... ؛ عِنْدَهَا !!

... ؛ وَبَعْدَ يَأْسٍ مِن هَذَا الَّذِى يُسَمُّونَهُ الحُب !!... ؛ وَقَفَ القَلْبُ وَقَال :

هَاهُنَا يَجِبُ أَن أَتَكَلَّم !!... ؛ عَرِفْتُ لَهُ نَبْضاً كَذَلِكَ الَّذِى كُنْتُ أَعْرِفُهُ فِى الأَمْسِ البَعِيد !!.

ثُمَّ كَانَت كَلِمَةُ القَدَرِ الَّتِى دَائِماً مَا تَأْتِى فِى نِهَايَةِ الحِكَايَات !!... ؛ جَاءَ وَالِدُهَا مِن سَفَرِهِ ؛ وَبَيْنَا هِىَ سَعِيدَةٌ بِشَاعِرِهَا الحَالِم !!... ؛ أَنْزَلَ هُوَ سِتَارَ الرِّوايَةِ رَغْمَ أَنْفِ الجَمِيع !!... ؛ قَالَ فِى صَرَامَةٍ وَوضُوح : لَن أَسْمَحَ لابْنَتِى أَن تَحْيَا مَعَ فَتَىً لا يَعِيشُ إِلاَّ مِن قَلَمِهِ ؛ وَلا يَمْلِكُ سِوَاه !! .

هَذِهِ هِىَ قِصَّتِى !! : ((هِبَه !!... الفَتَاةُ السَّمْرَاء !!... ابْنَةُ بَلْدَتِى القَدِيمَة!!)) ؛ آخِرُ فَتَاةٍ عَشِقَتْهَا رُوحِى!! ... ؛ مَا زِلْتُ أَذْكُرُ آخِرَ مَرَّةٍ رَأَيْتُهَا !!... ؛ كُنْتُ أَمْشِى وَأَنَا مُعْرِضٌ بِوجْهِى عَنْهَا !!... ؛ مَا أَحْبَبْتُ أَن تَرَى حُزْنِى وَأَسَفِى !!... ؛ عَلَى أَنِّى اخْتَلَسْتُ نَظْرَةً إِلَيْهَا !!... ؛ فَرَأَيْتُ فِى عَيْنَيْهَا مَعْنَىً زَادَنِى شَوْقاً وَحُزْناً !! .

مَدَدْتُ إِلى التَّوْدِيعِ كَفّاً ضَعِيفَةً

وَأُخْرَى عَلَى الرَّمْضَاءِ فَوْقَ فُؤادِى

فَلا كَانَ هَذَا العَهْدُ آخِرُ عَهْدِنَا

وَلا كَـانَ ذَا التَّوْدِيـعُ آخِـرُ زَادِى

ثُمَّ !! :

سَقَى اللهُ أَيَّامَ التَّـوَاصُلِ غَيْثَهُ

وَرَدَّ إِلَى الأَوْطَانِ كُلَّ غَرِيبِ

فَلا خَيْرَ فِى دُنْيَا بِغَيْرِ تَوَاصُلٍ

وَلا خَيْرَ فِى عَيْشٍ بِغَيْرِ حَبِيبِ

وَأَعُودُ مِن جَدِيدٍ !!... ؛ فَأَقُول : سَامَحَ اللهُ الزَّمَن !!

سَأَصْبِرُ حُرًّا لَم يَضِق عَنْهُ صَبْرُهُ

وَإِن كَـانَ قَدْ ضَاقَتْ عَلَيْهِ مَذَاهِبُهْ

نَعَم !!... ؛ لَسْتُ أَنَا !!... ؛ لا اليَأْسُ يَعْرِفُنِى وَلا أَعْرِفُ اليَأْسَا !!... ؛ أَنَا مَن قَهَرْتُ الذُّلَّ وَالتُّعْسَا !!... ؛ لا الحُزْنُ يَهْزِمُنِى وَلا ضِيقِى !!... ؛ النَّارُ فِى عَيْنِى وَالسُّمُّ فِى رِيقِى !!... ؛ مَاتَت حِكَايَاتِى وَتَشَعَّبَت طُرُقِى !!... ؛ سَأَعِيشُ سِرِّىَ فِى طُهْرِى وَفِى صِدْقِى !!... ؛ لا الكَوْنُ يَأْسِرُنِى وَلا الأَرْضُ !!... ؛ فَالحُبُّ يَعْرِفُهُ الإِحْسَاسُ وَالنَّبْضُ !!... ؛ أَنَا لا تُحَرِّكُنِى الصُّرُوفُ وَلا الخُطُوب !!... ؛

فَأَبِى بِيَوْمِ حِمَامِهِ قَالَ الرُّجُولَةُ لِلمَآسِى وَالكُرُوب !!... ؛أُمِّى بِيَوْمٍ وَفَاتِهَا قَالَت نِزَارُ ابْنُ الغَرَابَةِ وَالخَيَال !!... ؛سَيَعِيشُ لا يَعْبَأ بِغَيْرِ السَّيْرِ فِى أَرْضِ المُحَال !!... ؛سَأَظَلُّ أَبْسُمُ رَغْمَ أَحْزَانِى أُغَنِّى !!... ؛سَأَمُوتُ يَوْمَاً إِنَّمَا !!... ؛ سَيُخَلِّدُ التَّارِيخُ فَنِّى !!.

وَكُنْتُ إِذَا حُدِّثْتُ يَوْمَاً بِفُرْقَةٍ .

تَغَصَّصْتُ بِالمَاءِ الَّذِى أَنَا شَارِبُه .

فَمَا بَالُنَا أَقْوَى عَلَى البُعْدِ وَالنَّوى .

يُحَارِبُنِى وَسْوَاسُهُ وَأُحَارِبُه ؟!!

اللهُ المُسْتَعَان !!

يَضِيقُ صَدْرِى بِغَمٍّ عِنْدَ حَادِثَةٍ

وَرُبَمَا الخَيْرُ لِى فِى الغَمِّ أَحْيَانَا

وَرُبَّ يَوْمٍ يَكُونُ الغَمُّ أَوَّلُهُ

وَعِنْدَ آخِرِهِ رُوحَاً وَرَيْحَانَا

مَا ضِقْتُ ذَرْعَاً بِغَمٍّ عِنْدَ نَائِبَةٍ

إِلاَّ وَلِى فَرَجٌ قَد حَلَّ أَو حَانَا

اللَّهُمَّ لا سَهْلَ إِلاَّ مَا جَعَلْتَهُ سَهْلاً ... ؛وَأَنْتَ تَجْعَلُ الحَزْنَ إِذَا شِئْتَ سَهْلاً .

....

يَظُنُّ أُنَاسٌ كَثِيرُونَ ؛ أَنَّنِى سَأَحْمِلُ رَايَةَ الهَزِيمَةِ وَالخِذْلانِ عَمَّا قَرِيب !!... ؛ ظَنُّوا ذَلِكَ لأَنَّ عُقُولَهُم المَرِيضَةَ خَيَّلَت لَهُم أَنَّ مَا مَرَّ بِى فِى السَّنَوَاتِ السَّبْعِ العِجَافِ المَاضِيَةِ قَمِينٌ بِكَسْرِ شَوْكَتِى وَتَحْطِيمِ إِرَادَتِى !!... ؛ يَا لَهُ مِن غَبَاء !! ... ؛ وَمَا أَعْظَمَهُ مِن حُمْق !!

وَلا عَجَباً لِلأُسْدِ إِن ظَفِرَت بِهَا

كِلابُ الأَعَادِى مِن فَصِيحٍ وَأَعْجَمِ

فَحَرْبَةُ وَحْشِىٍّ سَقَت حَمْزَةَ الرَّدَى

وَمَوْتُ عَلَىٍّ مَن حُسَامِ ابْنِ مُلْجِمِ

عَلَى أَنِّى أَقُول : إِنَّ الخُطُوبَ وَالتَّجَارِبَ المَرِيرَةَ هِىَ الَّتِى تَصْنَعُ الرِّجَال ... ؛ فَالزَّمَنُ القَادِمُ هُوَ زَمَنِى ... ؛ وَالنَّصْرُ لِى فِى المَعَارِكِ القَادِمَة... ؛ سَأَعِيشُ طُوالَ حَيَاتِى مُكَافِحَاً مُجَاهِدَاً ... ؛ سَيَنْتَهِى كِفَاحِى فِى اليَوْمِ الَّذِى يُعْلَنُ فِيهِ مَوْتِى... ؛ أَنَا العِصَامِىُّ الشَّرِيف ... ؛ أَنَا مَن عَلَّمَ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ ... ؛ أَنَا ابْنُ ذَاتِى ... ؛ مَا رَفَعَنِى جَاهٌ وَلا ثَرَاء ... ؛ وَمَا آزَرَنِى كَاتِبٌ كَبِير ... ؛ وَلا أَيَّدَنِى رَجُلٌ ذُو شَأْنٍ خَطِير ... ؛ أَنَا مَن كَتَبْتُ اسْمِى عَلَى الصَّخْرِ بِأَظَافِرِى ... ؛ حَيَاتِى مَا تَعْرِفُ غَيْرَ شَىْءٍ وَاحِدٍ !!... ؛ اسْمُهُ التَّحَدِّى ... ؛ أَنَا مَن خَرَجْتُ فِى وَسَطِ اللَّيْلِ الحَالِكِ تَحْتَ أَجْبَالِ المَطَر ... ؛ وَاخْتَرَقْتُ الدُّرُوبَ المَجْهُولَةَ غَيْرِ المُعَبَّدَةِ ... ؛ ثُمَّ

جِئْتُ إِلَى قَلْبِ عَاصِمَةِ مِصْر !!... ؛ لأُعْلِنَ عَن نَفْسِى ... ؛ سَتَشْهَدُ الأَيَّامُ الآتِيَة !!... ؛ سُقُوطَ عُرُوشٍ أَدَبِيَّةٍ مَا سَتَسْقُطُ إِلاَّ بِقَلَمِى !!... ؛ وَتَحْطِيمَ حُصُونٍ فِكْرِيَّةٍ مَا سَتُحَطَّمُ إِلاَّ بِيَرَاعِى !!... ؛ وَانْهِيَارَ قِمَمٍ مَا سَتَنْهَارُ إِلاَّ بِكَلِمَاتِى !!

أَنَا الأَشْقَرُ الْمَوْعُوْدُ بِى فِى الْمَلاحِمِ
وَمَـنْ يَـمْـلِكُ الـدُّنْيَا بِـغَيْرِ مُزَاحِمِ
سَـتَبْـلُـغُ أَرْضَ الرُّوْمِ خَيْلَى وَتُنْتَضَى
بِأَقْصَى بِـلادِ الصِّيْنِ بِيَضُ صَـوَارِمِى

وَإِنَّ غَدَاً لِنَاظِرِهِ قَرِيب !!

.

اللَّهُمَّ إِنِّى أَسْأَلُكَ دَوَامَ العِصْمَةِ وَالتَّأْيِيد ؛ وَأَعُوذُ بِكَ مِن الخِزْى وَالخِذْلان ؛ إِنَّكَ أَنْتَ الْمُنْعِمُ القَادِر ؛ وَأَنْتَ العَلِيمُ بِمَا تُكِنُّ الأَنْفُسُ وَمَا تُخْفِى الصُّدُور ؛ سُبْحَانَكَ رَبَّنَا لا إِلَهَ سِوَاك .

قَالَهُ بِلِسَانِهِ ؛ وَقَيَّدَهُ بِبَنَانِهِ

البَاز الأَسْمَر (١)[٣٥]

مُحَمَّد مَحْمُود دَحْرُوج

الشَّهِير بِـ: ((نِزَار شَاهِين المِصْرِى))

ـ أَيَّدَهُ الله ... وَسَدَّدَ خُطَاه ـ

وَكَانَ الفَرَاغُ مِن هَذَا الَّذِى سُطِّرَ ؛ فِى :

ـ [الثَّامِن عَشَر مِن مَارِس : ٢٠١٢ م] ـ

بِمَنْزِلِى ؛ فِى جَوْفِ الحَارَةِ العَتِيقَةِ ؛ بِتَلِّ الكُوم

بِمَدِينَةِ الرِّيَاض ؛ بِشَمَالِ الدِّيَارِ المِصْرِيَّة

[٣٥] (١) ـ البَاز : ضَرْبٌ مِنَ الصُّقُورِ يُسْتَخْدَمُ فِى الصَّيْد .

وَكَانَ الشَّيْخُ الإِمَامُ المُحَدِّثُ : أَبُو عَمْرو عُثْمَانُ بْنُ أَحْمَدَ بنِ عَبْدِ اللهِ بنِ يَزِيد ؛ البَغْدَادِىُّ الدَّقَّاق ؛ المَعْرُوفُ بِابْنِ السَّمَّاك ؛ يَلَقَّبُ بِالبَاز الأَبْيَض .

توفِّىَ فِى رَبِيعٍ الأَوَّلِ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَأَرْبَعِيْنَ وَثَلاَثِ مائَةٍ .

ج

- مَنْهَجِي فِي إِنْشَاءِ هَذَا الكِتَاب:

بسم الله الرحمن الرحيم

مَا تَزَالُ الخُطَّةُ المَرْسُومَةُ تَسْعَى نَحْوَ الغَرَضِ المُرَادِ مِنْهَا؛ أَرَادَت مُؤسَّسَةُ أَطْلَس لِلنَّشْرِ وَالإِنْتَاجِ الإِعْلامِيِّ أَن تَقُومَ بِدَوْرٍ رَائِدٍ فِي مَيْدَانِ خِدْمَةِ عُلُومِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ؛ فَنُدِبَ قَلَمِي لِلقِيَامِ بِهَذَا الدَّوْرِ الشَّرِيف؛ فَمَا كَانَ مِنِّي إِلاَّ أَن أَعْدَدتُ لِلأَمْرِ عُدَّتَه؛ وَتَأَهَّبْتُ عَلَى الوَجْهِ الَّذِي يُرْضِي؛ وَنَزَلْتُ إِلَى سَاحَةِ المَعْرَكَة؛ وَكَانَ يَرَاعِي هُوَ سَيْفِي؛ وَطُرُوسِي هِيَ دُرُوعِي؛ وَمِدَادِي هُوَ السِّهَامُ المَرِيشَةُ النَّافِذَة؛ وَعِلْمُ السَّنَوَاتِ وَخِبْرَةُ التَّجَارِبِ هِيَ حِصْنِي ...؛ وَكُنْتُ أَعْلَمُ مِن قَبْلِ خَوْضِ المَعْرَكَةِ وَنُشُوبِ الحَرْبِ؛ أَنَّهَا مَلْحَمَةٌ مَصِيرِيَّةٌ؛ فَإِمَّا أَن انْتَصِر؛ فَأُصْبِحُ مِن أَصْحَابِ المَمَالِكِ وَالعُرُوش ...؛ وَإِمَّا أَن أُهْزَمَ وَأَسْقُط !! ...؛ وَلَئِن خَسِرْتُ وَهُزِمْتُ؛ فَسَيَسْقُطُ الفَارِسُ عَلَى سَاحَةِ مَيْدَانِ هَذِهِ المَعْرَكَة الرَّهِيبَةِ سُقُوطاً سَتُدَوِّي أَخْبَارُهُ فِي الآفَاق ...؛ وَبِهَذَا تَكُونُ نِهَايَتُهُ !! ...؛ النِّهَايَةُ فِي كُلِّ شَيْءٍ !!...؛ رَاهَنَ عَلَيَّ رِجَالُ هَذِهِ المُؤسَّسَةِ الثَّقَافِيَّة؛ وَهَكَذَا؛ وَبَيْنَ غَمْضَةِ عَيْنٍ وَانْتِبَاهَتِهَا؛ أَصْبَحَ الفَارِسُ المَغْمُور؛ وَالَّذِي كَانَ يُحَارِبُ بِالأَمْسِ كَجُنْدِيٍّ صَغِيرٍ فِي صُفُوفِ كَتَائِبِ دَار الفَضِيلَة؛ ثُمَّ مُؤسَّسَة طَيْبَة؛ ثُمَّ دَار الفَارُوقِ الحَدِيثَة؛ ثُمَّ مَرْكَز الرَّايَة؛ ثُمَّ دَار الكُتُبِ العِلْمِيَّةِ

اللُّبْنَانِيَّة ؛ أَقُول : هَكَذَا ؛ وَبَيْنَ غَمْضَةِ عَيْنٍ وَانْتِبَاهَتِهَا ؛ أَصْبَحَ مَن كَانَ بِالأَمْسِ فَارِسَاً مَغْمُوراً مَجْهُولاً ؛ أَصْبَحَ هُوَ قَائِدُ الجَيْشِ الجَرَّارِ الَّذِى لا تُرَدُّ لَهُ كَلِمَةٌ وَلا يُسَوَّفُ لَهُ تَنْفِيذُ أَمْرٍ !!... ؛ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَار ... ؛ وَلَكِن ؟!! ... ؛ مَا هُوَ السِّرُّ فِى اخْتِيَارِى لِدَوْرِ القِيَادَة ؟!!... ؛ أَجَاءَ الأَمْرُ هَكَذَا مُصَادَفَةً وَاتِّفَاقاً ؟!!... ؛ أَكَانَت هُنَاكَ وَسَاطَةٌ ؟!!... ؛ لا هَذَا وَلا ذَاك ؛ فَالمُصَادَفَاتُ مَا لَعِبَت دَوْراً حَسَنَاً فِى حَيَاتِى أَبَدَاً ؛ وَأَمَّا عَن الوَسَاطَةِ ؛ فَمَن ذَا الَّذِى كَانَ يَتَوَسَّطُ لِلشَّابِّ الرِّيفِىِّ الأَسْمَرِ المَجْهُولِ الَّذِى جَاءَ مِنَ الشَّمَالِ فِى زَمَنِ المَطَر ؟!!... ؛ السِّرُّ الَّذِى يَكْمُنُ وَرَاءَ انْتِدَابِهِ لِلقِيَامِ بِهَذَا الدَّوْر !!... ؛ هُوَ شُهْرَتُهُ الَّتِى طَارَت فِى البِلادِ بَعْدَ انْتِصَارِهِ المَجِيد فِى الغَزْوَةِ المَعْرُوفَةِ بِـ : ﴿ الغَزْوَةُ اللَّيْثِيَّةُ الكُبْرَى ﴾ ؛ فَقَد خَرَجَ فِى شِتَاءِ عَامِ ٢٠٠٩م عَلَى رَأْسِ كَتِيبَةٍ صَغِيرَةٍ لِمُهَاجَمَةِ حِصْنِ الكَاتِبِ الكَبِير الدُّكْتُور يُوسُف عَبْد الرَّحْمَنِ المَرْعَشْلِى ؛ وَظَنَّ الجَمِيعُ أَنَّ غَايَةَ مَا سَيَصْنَعُهُ الفَارِسُ الصَّغِيرُ هُوَ المُنَاوَشَةُ وَإِحْدَاثُ ضَجَّةٍ وَحَسْب... ؛ ثُمَّ كَانَت المُفَاجَأَةُ الَّتِى جَعَلَت العُيُونَ تَنْظُرُ فِى دَهَشٍ وَذُهُولٍ شَدِيدَيْن!!... ؛ لَقَد اقْتَحَمَ الحِصْنَ وَأَسَرَ صَاحِبَه!!... ؛ وَتَفْصِيلُ أَحْدَاثِ هَذِهِ الغَزْوَةِ التَّارِيخِيَّة يَتَمَثَّلُ فِيمَا يَلِى : مُنْذُ سَنَوَاتٍ بَعِيدَةٍ خَلَت ؛ قَامَ المَرْعَشْلِى هَذَا بِتَحْقِيقِ رِسَالَةِ الحَافِظِ أَبِى الفَضْلِ بْنِ حَجَر ((ت سَنَة ٨٥٢ هـ)) ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ـ عَن الإِمَامِ المِصْرِىِّ اللَّيْثِ بْنِ سَعْد ((ت سَنَة ١٧٥ هـ)) ـ طَيَّبَ اللهُ ثَرَاه ـ ؛ فَأَقْبَلَ النَّاسُ عَلَى نَشْرَتِهِ

وَأَعْرَضُوا عَن تِلْكَ النَّشرَاتِ العَتِيقَة ؛ وَظَنُّوا أَنَّهُ لَيْسَ فِى الإِمْكَان؟!!... ؛ أَحْسَن مِمَّا كَان !!... ؛ وَتَمُرُّ السَّنَوَات ... ؛

وَتَمْضِى الأَعْوَام ؛ فَإِذَا بِفَارِسٍ صَغِيرٍ اسْمُهُ : ﴿مُحَمَّد مَحْمُود دَحْرُوج﴾ ؛ وَيُكْنَى بِـ : ﴿ أَبُو نِزَار﴾ ؛ وَشُهْرَتُهُ : ﴿ نِزَار شَاهِين﴾ ؛ وَيُلَقَّبُ بِـ : ((البَاز الأَسْمَر)) : قَد خَرَجَ عَلَى النَّاسِ بِنَشْرَةٍ جَدِيدَةٍ ؛ قَدَّمَ بَيْنَ يَدَيْهَا بِمُقَدِّمَةٍ عَبَّرَ فِيهَا عَن فَلْسَفَتِهِ فِى الحَيَاة ؛ وَرُؤْيَتِهِ لِلعَالَمِ وَالوجُود ؛ وَأَبَانَ فِى وُضُوحٍ عَن سُخْرِيَتِهِ وَاسْتِهْزَائِهِ بِالوَاقِعِ الثَّقَافِىِّ المُعَاصِر ؛ ثُمَّ أَعْلَن عَن قُدُومِهِ وَوقُوفِهِ فِى المَيْدَان ؛ ... ؛ ثُمَّ!!... ؛ جَاءَت نَشْرَتُهُ لِتُظْهِرَ اكْتِشَافَاتٍ جَدِيدَةٍ !!... ؛ مِنْهَا خَطَأ المُحَقِّقِ فِى إِثْبَاتِ صِحَّةِ عُنْوَانِ الكِتَاب ؛ فَقَد وَسَمَهُ بِـ : ((الرَّحْمَة الغَيْثِيَّة بِالتَّرْجَمَةِ اللَّيْثِيَّة)) ؛ بَيْنَمَا الصَّوَابُ فِى عُنْوَانِهِ : ((المَرْحَمَة الغَيْثِيَّة عَن التَّرْجَمَة اللَّيْثِيَّة)) ؛ أَو : ((مَرْحَمَة الغَيْث بِتَرْجَمَةِ اللَّيْث)) ؛ وَالَّذِى أَوْقَعَ يَوسُف هَذَا فِى ذَلِكَ الخَطَأ ؛ أَنَّهُ اعْتَمَدَ فِى تَحْقِيقِ الكِتَابِ عَلَى النُّسْخَةِ الخَطِيَّةِ المَحْفُوظَةِ بِمَعْهَدِ المَخْطُوطَات التَّابِع لِجَامِعَةِ الدُّولِ العَرَبِيَّةِ بِالقَاهِرَة ؛ بَيْنَمَا نِزَار شَاهِين اعْتَمَدَ عَلَى نُسْخَتَيْنِ خَطِيَّتَيْن ؛ ثُمَّ أَيَّدَ ذَلِكَ بِسَائِرِ المَصَادِرِ الَّتِى تَرْجَمَت لِلَيْثِ ابْنِ سَعْد مِن جِهَةٍ ؛ وَالمَصَادِرِ الَّتِى تَرْجَمَت لأَبِى الفَضْلِ بْنِ حَجَر مِن جِهَةٍ أُخْرَى ؛ وَالَّتِى مِن أَهَمِّهَا ذَلِكَ الكِتَابِ الَّذِى أَفْرَدَهُ الحَافِظُ المُؤَرِّخُ شَمْسُ الدِّينِ السَّخَاوِىُّ ((ت سَنَة

٩٠٢ هـ)) ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ـ لِلحَدِيثِ عَن شَيْخِهِ مُصَنِّفِ ((المَرْحَمَة)) ؛ وَهُوَ المُسَمَّى بِـ : ((الجَوَاهِرُ وَالدُّرَر : فِي تَرْجَمَةِ شَيْخِ الإِسْلامِ ابْنِ حَجَر)) .

ثُمَّ !!... ؛ لَمَّا جَاءَ الفَاضِلُ كَي يُتَرْجِمَ لِلحَافِظِ ابْنِ حَجَر ؛ نَظَرَ يَمْنَةً وَيَسْرَةً ؛ فَمَاوَجَدَ سِوَى كِتَاب : ((ذَيْل تَذْكِرَةِ الحُفَّاظ)) لِلجَلالِ السُّيُوطِيِّ ((ت سَنَة ٩١١ هـ)) ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ـ !!... ؛ أَمَّا البَاز الأَسْمَر نِزَار شَاهِين ؛ فَإِنَّهُ جَمَعَ جُلَّ مَا كَتَبَ الأَوَائِلُ عَن أَبِي الفَضْلِ بْنِ حَجَر ؛ ثُمَّ صَنَعَ تَرْجَمَةً لَهُ بِيَرَاعَتِهِ هُوَ ؛ إِذ التَّعْوِيلُ عَلَى تَرْجَمَةٍ وَاحِدَةٍ كَتَبَهَا مُتَقَدِّمٌ ؛ ثُمَّ حَمْلُهَا هَكَذَا وَوَضْعُهَا فِي بَابَةِ تَرْجَمَةِ المُصَنِّف ؛ هُوَ أَمْرٌ يَدُلُّ عَلَى العَجْزِ وَضِيقِ العَطَن ؛ وَلَو كَانَت التَّرْجَمَةُ الَّتِي انْتَقَاهَا وَانْتَخَبَهَا تُوصَفُ بِأَنَّهَا شَافِيَةٌ كَافِيَة ؛ لَقُلْنَا : لا بَأْس ؛ وَلَكِنَّهَا تَرْجَمَةٌ لا تَقْتُلُ ظَمَأً وَلا تُسَكِّنُ جُوعاً !!.

ثُمَّ !!... ؛ وَتِلْكَ الطَّآمَّةُ الكُبْرَى !!... ؛ اكْتِشَافُ سَقْطٍ شَنِيعٍ فِي أَصْلِ نَشْرَتِهِ !! ... ؛ فَتَشَابَهَت نَشْرَتُهُ فِي هَذَا الأَمْرِ مَعَ النَّشَرَاتِ العَتِيقَةِ ؛ فَأَيْنَ الجَدِيدُ الَّذِي قَدَّمَه ؟!!... ؛ فَلا العُنْوَانُ صَحِيح !!... ؛ وَلا التَّرْجَمَةُ لِلمُصَنِّفِ تَلِيقُ بِلَقَب : ((الدُّكْتُور ... ؛ أُسْتَاذُ التَّفْسِيرِ بِالمَعْهَدِ العَالِي لِلدِّرَاسَاتِ الإِسْلامِيَّةِ فِي بَيْرُوت)) !!... ؛ وَأَمَّا النَّصُّ الَّذِي أَخْرَجَهُ ؛ فَغَايَةُ مَا يُقَال : أَنَّهُ حَشَّى عَلَى النَّشَرَاتِ القَدِيمَة !!... ؛ فَالسَّقْطُ عَلَى حَالِهِ مَا عُولِجَ وَمَا شُفِيَ مِن دَائِهِ ؟!!... ؛

وَهَكَذَا ؛ أَبَى اللهُ إِلاَّ أَن يُذْعِنَ الكَآفَّةُ لِنُسْخَةِ نِزَار شَاهِين !!... ؛ فَهَى أَوَّلُ نُسْخَةٍ تَجْمَعُ بَيْنَ صِحَّةِ النَّصِّ وَقُوَّةِ التَّحْقِيق !!... ؛ وَهَكَذَا ؛ عَادَ الفَارِسُ إِلَى قَرْيَتِهِ فِى بِلادِ الشَّمَال ؛ وَعَلَى جَبِينِهِ يَتَلألأُ نُورُ النَّصْر !!... ؛ كَانَ يُعْرَفُ بِاسْمِهِ وَكُنْيَتِهِ وَلَقَبِهِ وَشُهْرَتِهِ ... ؛ فَأَصْبَحَ يُعْرَفُ بِأَنَّهُ : ((فَارِسُ الغَزْوَةِ اللَّيْثِيَّةِ الكُبْرَى)) !!.

وَطَارَ الخَبَرُ وَفِى الشَّرْقِ وَالغَرْبِ انْتَشَر !!... ؛ وَذَاعَ أَمْرُ الفَتَى وَأَضَاءَ وَاشْتَهَر!!.

وَوَصَلَ الكِتَابُ إِلَى القَائِمِ عَلَى أَمْرِ الحِصْنِ الأَطْلَسِىِّ ؛ فَرَأَى مِن خِلالِهِ شَخْصِيَّةَ الكَاتِبِ نِزَار شَاهِين ... ؛ أَدِيبٌ يَمْلُكُ قَلَماً مَا يَمْلُكُهُ أَحَدٌ فِى هَذَا العَصْر !!... ؛ مُحِقٌّ يَدْرِى مَا التَّحْقِيق ؛ وَيَعْلَمُ مَتَى يَكُونُ الإِبْدَاعُ فِى هَذَا العِلْمِ الصَّلْبِ الخَشِن !!... ؛ وَشَابٌّ يَحْمِلُ أَفْكَاراً ثَرِيَّةً جَدِيدَة ؛ يَسْعَى دَائِماً إِلَى الابْتِكَارِ وَالإِتْيَانِ بِالغَرَائِبِ وَالأَعَاجِيب !!... ؛ قَلْبٌ يَمْتَلِىءُ بِالإِرَادَة ؛ وَعَقْلٌ يَعْرِفُ كَيْفَ يَخْتَرِقُ الحُصُون ؛ وَرُوحٌ تَعْشَقُ المُغَامَرَةَ فِى الدُّرُوبِ المَجْهُولَةِ ؛ وَقَلَمٌ لا يَكِفُّ وَلا يَعْرِفُ الكَلالَ وَلا النَّصَب !!.

نَعَم ؛ نَعَم هَذَا هُوَ السِّرُّ فِى وَضْعِهِم شَارَةَ القِيَادَةِ عَلَى المَوْضِعِ الَّذِى يَنْبِضُ خَلْفَهُ قَلْبِى ... ؛ ثُمَّ ؟!!... ؛ لَيْسَ المُهِمُّ هُوَ تَكْلِيفِى بِهَذَا الدَّوْرِ الخَطِيرِ وَالقِيَامِ بِأَعْبَائِهِ ؛ إِنَّمَا المُهِمُّ حَقّاً هُوَ النَّتِيجَةُ الَّتِى سَأَصْنَعُهَا ... ؛ وَمضَت الأَيَّام ... ؛ تَتَابَعَت شُهُورٌ ... ؛ وَالفَتَى فِى عَمَلٍ وَكِفَاحٍ وَنِضَال ... ؛ يَصِلُ اللَّيْلَ بِالنَّهَار ... ؛ يُمْسِكُ القَلَمَ بِيَمِينِهِ ؛ فَإِذَا أَحَسَّ بِالفُتُورِ ؛ وَإِذَا نَالَ مِنْهُ التَّعَبُ وَالنَّصَب ؛

وَضَعَ يُسْرَاهُ عَلَى مَوْضِعِ فُؤادِهِ وَقَالَ لَهُ: اسْكُن !! ؛ فَأَنَا لَن أُنْصِتَ لأَلَمِكَ وَكَرْبِك ؛ إِنَّ أَمَامِى تَارِيخَاً أَصْنَعُه !!... ؛ وَهَكَذَا ؛ سَاعَاتُ النَّهَارِ تَمْضِى فِى التَّصْنِيفِ وَالتَّحْرِير ؛ وَأَوْقَاتُ اللَّيْلِ تَمُرُّ وَأَنَا عَاكِفٌ عَلَى المُرَاجَعَةِ وَالتَّدْقِيق ... ؛ لَقَد بَزُغَت الشَّمْسُ وَطَلَعَت عَلَى الدُّنْيَا أَكْثَرَ مِن مَرَّةٍ ؛ وَأَنَا فِى مَوْضِعِى لَم أَزَل !!... ؛ مَا عَرِفَت عَيْنَاىَ مَعْنَى الكَرَى !!... ؛ مَا كُنْتُ أَعْبَأُ بِهَذَا الجَسَدِ وَلا أَلْتَفِتُ إِلَى نِدَاءَاتِهِ !!... ؛ ثُمَّ خَرَجَت الكُتُبُ وَالأَعْمَالُ تِبَاعَاً : ((النَّحْو المُيَسَّر)) ـ الجُزْءُ الأَوَّل ـ ؛ ((فَنُّ الإِنْشَاء)) ؛ ((فَنُّ الإِمْلاء وَعَلامَات التَّرْقِيم))

((مُعْجَم المَفَاهِيم اللُّغَوِيَّة)) ؛ ((مُعْجَم المُصْطَلَحَات التَّعْبِيرِيَّة)) ؛ ((مُعْجَم المُصْطَلَحَات الإِنْشَائِيَّة)) ؛ ((كَيْفَ تَكْتُبُ بَحْثَاً عِلْمِيَّاً أَو تُحَقِّقُ نَصَّاً تُرَاثِيَّاً خَطِيَّاً)) ... ؛ وَطُبِعَت الكُتُب ؛ وَمَا كَادَت تُطْبَعُ حَتَّى هَجَمَ عَلَيْنَا مَعْرَضُ القَاهِرَةِ لِلكِتَاب عَام ٢٠١٢ م !!... ؛ وَكَانَت سَاعَةُ التَّرَقُّبِ الحَاسِمَة !!... ؛

وَعِشْتُ بَيْنَ الخَوْفِ وَالأَمَل !!... ؛ ثُمَّ سَمِعْتُ نِدَاءً غَرِيباً يَتَرَدَّدُ صَدَاهُ بِشِدَّةٍ فِى سَمَاءِ حَيَاتِى !!.

وَإِذَا العِنَايَةُ لاحَظَتْكَ عُيُونُهَا

نَمْ ؛ فَالمَخَاوفُ كُلُّهُنَّ أَمَانُ !!.

نَفِدَت بَعْضُ هَذِهِ الأَعْمَالِ فِى هَذِهِ الأَيَّامِ القَلِيلَة !!... ؛ وَكَانَ النَّصْرُ حَلِيفِى .

وَعُدْنَا إِلَى حِصْنِنَا ؛ وَرَجَعْنَا إِلَى قَلْعَتِنَا ... ؛ وَكَانَ القَرَارُ الأَعْظَمُ أَهَمِيَّةً فِى تَارِيخِ هَذِهِ المُؤسَّسَة !!... ؛ إِذَا كَانَت جَامِعَةُ القَاهِرَة تُعْرَفُ بِدَارِ العُلُوم ... ؛ فَكَذَلِكَ يَجِبُ أَن تُعْرَف دَار أَطْلَس لِلنَّشْرِ وَالإِنْتَاجِ الإِعْلامِىِّ بِهَذَا الدَّوْرِ الجَدِيد ؟!!... ؛ سَتَأْتِى دَارُ العُلُومِ إِلَيْنَا !!... ؛ وَسَيَقُوم نِزَار شَاهِين بِهَذِهِ المُهِمَّةِ الخَطِيرَة !!... ؛ وَحْدَهُ سَيُؤدِّى هَذَا الدَّوْر ... ؛ وَهُوَ أَهْلٌ لِذَلِك !!.

وَهَكَذَا بَدَأَت المَسِيرَة !!... ؛ هَكَذَا بَدَأَت القِصَّةُ الحَقِيقِيَّةُ لِلكَاتِبِ المُغَامِر ... : نِزَار شَاهِين ... ؛ فَسَجِّل يَا تَارِيخَ الأَدَب ... ؛ وَاشْهَد يَا عَالَمَ الفِكْر ... ؛ وَاكْتُب يَا سِفْرَ الوجُود ... ؛ هَذَا أَنَا !!.

ثُمَّ !!... ؛ لِكُلِّ كَاتِبٍ مَنْهَجٌ ... ؛ وَلِكُلِّ أَدِيبٍ طَرِيقَةٌ ... ؛ وَلِكُلِّ مُبْدِعٍ أُسْلُوبٌ ... ؛ وَمَن يَعْرِفُنِى يَعْلَمُ أَنَّ لِى أَدَوَاتٌ وَاتِّجَاهٌ وَنَزْعَةٌ تُمَيِّزُ قَلَمِى وَتُبْدِى عَن حَقِيقَةِ يَرَاعِى ... ؛ أَنَا لا أَعْرِفُ شَيْئًا اسْمُهُ النَّسْجُ عَلَى مِنْوَالِ فُلانٍ أَو فُلانٍ مَهْمَا كَانَت قَامَتُه ؛ وَمَهْمَا كَانَت شُهْرَتُه !!... ؛ أَنَا لِى كَيَانِى وَلِى حُرِّيَّتِى ... ؛ لَسْتُ أَنَا مَن يَعِيشُ فِى جِلْبَابِ نَاشِرٍ !!... ؛ أَنَا أَصْنَعُ المُؤسَّسَات ... ؛ أَنَا مَن بِقُدْرَتِهِ أَن يَصْنَعَ الصُّرُوحَ الثَّقَافِيَّة ... ؛ لَسْتُ أَنَا مِمَّن تَسْتَعْبِدُهُم المُؤسَّسَات ... ؛ أَنَا أَوَّلُ كَاتِبٍ يُعْلِنُ العِصْيَانَ عَلَى دَارِ الفَضِيلَةِ رَغْمَ مَكَانَتِهَا !!... ؛ أَنَا مَن وَضَعْتُ مَرْكَزَ الرَّايَةِ

تَحْتَ قَدَمِى ثُمَّ مَضَيْتُ فِى طَرِيقِى !!.... ؛أَنَا نِزَار شَاهِين !!... ؛أَنَا مَن قُلْتُ يَوْمَاً فِى بَعْضِ أَعْمَالِى :

﴿ لَو لَم أَعْلَم أَنَّ تَصَانِيفِى تَبْقَى بَعْدِى لِعَشَرَاتِ السِّنِين ... ؛ مَا وَضَعْتُهَا ﴾

ثُمَّ !!... ؛لِلْمُؤلِّفِ أَن يُهْدِى كِتَابَهُ لِمَن يَشَاء ... ؛وَلَهُ أَن يَكْتُبَ كَلِمَاتَ الإِهْدَاءِ بِالأُسْلُوبِ الَّذِى يَرُوقُهُ وَيُعْجِبُهُ ... ؛مِن أَجْلِ هَذَا أَهْدَيْتُ الكِتَاب لِـ: ((هِبَه)) ؛حَبِيبَتِى السَّمْرَاء ... ؛لَسْتُ أَنَا كَمَشَايِخِ دَارِ العُلُوم ... ؛أَنَا شَابٌّ فِى بِدَايَةِ الثَّلاثِين مِن عُمُرِى ... ؛كُنْتُ قَد أَخَذْتُ عَلَى نَفْسِى بَعْدَ تِلْكَ السَّنَوَاتِ الطَّوِيلَةِ الَّتِى قَضَيْتُهَا فِى عَالَمِ العِشْقِ وَالهَوَى ؛ثُمَّ مَا جَنَيْتُ فِى النِّهَايَةِ سِوَى العَجْزِ أَمَامَ رِيَاحِ الخَرِيف ؛وَرَىِّ الظَّمْأَ القَتَّالِ مِنَ المَاءِ المِلْحِ الأُجَاج !!... ؛أَخَذْتُ عَلَى نَفْسِى أَن أَكُونَ رَاهِبَ الأُدَبَاءِ فِى هَذَا الزَّمَن ... ؛وَمِن أَجْلِ سَيْطَرَةِ هَذِهِ الفِكْرَةِ عَلَى عَقْلِى وَمَشَاعِرِى صَنَّفْتُ كِتَابِى ((مَنَارَة الأَبْرَاج ...فِيمَن آثَرَ العِلْمَ عَلَى الزَّوَاج)) ؛وَتَرْجَمْتُ لِنَفْسِى فِى نِهَايَتِهِ ؛ثُمَّ أَتْبَعْتُهُ بِكِتَابٍ آخَر وَسَمْتُهُ بِـ: ((رُهْبَانُ الأُدَبَاء)) ... ؛وَلَكِن هَكَذَا شَاءَت الأَقْدَار !!... ؛جَاءَت ((هِبَه)) !!... ؛وَقُلْتُ لِقَلْبِى : ((لَعَلَّ ! ؛وَعَسَى !))

... ؛وَمِن أَجْلِ هَذَا أَهْدَيْتُ لَهَا كِتَابِى هَذَا .

ثُمَّ ... ؛ التَّصْدِيرُ قَد يُعَبِّرُ عَن الكَاتِبِ نَفْسَهُ ... ؛ يَدُلُّكَ عَلَى كُنْهِ مَشَاعِرِه ؛ أَو عَلَى حَقِيقَةِ حَيَاتِهِ ؛ أَو عَلَى مَاهِيَّةِ العَمَلِ وَطَبِيعَةِ الكِتَاب .

ثُمَّ ... ؛ المَدْخَلُ إِمَّا أَن تُنَاطَ فِكْرَتُهُ بِمَادَّةِ الكِتَاب ؛ أَو أَن تُهَيِىءَ القَارِىءَ لِمَا يُسْتَقْبَلُ مِن كَلِمَاتِ وَأَفْكَارِ المُقَدِّمَة .

ثُمَّ ... ؛ المُقَدِّمَةُ حَقٌّ مُسَلَّمٌ بِهِ لِلكَاتِبِ ؛ لَهُ أَن يُعَبِّرَ فِيهَا عَن ذَاتِهِ وَنَفْسِهِ ؛ عَن حُبِّهِ وَعِشْقِهِ ؛ عَن حُزْنِهِ وَيَأْسِهِ ؛ عَن أَمَلِهِ وَطُمُوحَاتِهِ ؛ عَن فِكْرِهِ وَثَقَافَتِهِ ؛ عَن حَادِثَةٍ خَاصَّةٍ أَو عَامَّةٍ ... ؛ نَعَم ؛ لَهُ أَن يُعَبِّرَ فِيهَا عَن أَىِّ شَىْءٍ يُرِيد .

ثُمَّ ... ؛ التَّمْهِيد ؛ إِنَّمَا جُعِلَ لِلتَّعْرِيفِ بِمَادَّةِ الكِتَابِ وَمُحْتَوَاه .

ثُمَّ ... ؛ التَّوْطِئَة ؛ وَهِيَ تَتَحَدَّثُ عَن مَاهِيَّةِ الفَصَاحَةِ وَالبَلاغَة ؛ وَهِيَ كَلِمَةٌ نَافِعَةٌ كَتَبَهَا الدُّكْتُور عَبْدُ الرَّحْمَن بْنُ حَسَن حَبَنَّكَة المَيْدَانِىُّ الدِّمَشْقِىُّ ((ت سَنَة ١٤٢٥ هـ)) ؛ قَيَّدَهَا بِكِتَابِهِ ((البَلاغَةُ العَرَبِيَّة)) (١)[٣٦] .

ثُمَّ صَنَعْتُ فَصْلاً بِعُنْوَان : ((أَقْوَالٌ فِى البَلاغَة)) .

ثُمَّ مَادَّةُ الكِتَاب ؛ وَقَد تَنَاوَلْتُ فِى هَذَا الجُزْء : ((عِلْم المَعَانِى)) ؛ وَعَرَضْتُهُ عَرْضَاً يَجْمَعُ بَيْنَ القُوَّةِ وَسُهُولَةِ التَّنَاول ؛ فَلا هُوَ بِالضَّعِيفِ المَرِيض ؛ وَلا هُوَ بِالضَّخْمِ

---

[٣٦] (١) ـ مَنْشُورَات : دَار القَلَم ؛ دِمَشْق = الدَّار الشَّامِيَّة ؛ بَيْرُوت / الطَّبْعَةُ الأُولَى : ١٤١٦ هـ = ١٩٩٦ م.

العَرِيض ؛ بَل هُوَ كِتَابٌ عَصْرِيٌّ مَقْبُول ؛ وَظَنِّى أَن سَتَقْبَلُهُ القَرَائِحُ وَتَسْتَجِيدُهُ العُقُول ؛ وَرَبُّنَا المُسْتَعَان ؛ وَإِلَيْهِ التَّفْويضُ وَعَلَيْهِ التَّكْلان.

ثُمَّ لَمَّا انْتَهَيْنَا مِن عَرْضِ المَادَّة ... ؛ جَاءَ دَوْرُ الدِّرَاسَةِ التَّطْبِيقِيَّة ؛ وَمَازِلْتُ أَقُول : إِنَّ البَلاغَةَ لَيْسَت هِيَ القَوَاعِدُ وَالأُصُول!!... ؛ بَل هِيَ الإِمْعَانُ فِى تَأَمُّلِ إِبْدَاعِ الأُدَبَاءِ الفُحُول... ؛ لَوْلا قَضَاءُ السَّنَوَاتِ فِى قِرَاءَةِ كُتُبِ الجَاحِظ وَابْنِ المُقَفَّع وَأَبِى حَيَّان التَّوْحِيدِىِّ وَأَمْثَالِهِم مِن أَهْلِ البَلاغَةِ وَالبَيَانِ مِن المُتَقَدِّمِين... ؛ ثُمَّ الإِقْبَال عَلَى مَا أَبْدَعَتْهُ يَرَاعَةُ مُصْطَفَى لَطْفِى المَنْفَلُوطِى صَاحِب ((العَبَرَات)) و((النَّظَرَات)) ؛ وَمُصْطَفَى صَادِق الرَّافِعِىّ صَاحِب ((رَسَائِل الأَحْزَان)) و((أَوْرَاق الوَرْد)) و((السَّحَاب الأَحْمَر)) و((وَحْى القَلَم)) ؛ وَمَحْمُود مُحَمَّد شَاكِر صَاحِب ((جَمْهَرَة المَقَالات)) ؛ وَأَضْرَابِهِم مِن المُحْدَثِين... ؛ لَوْلا هَذَا الأَمْر!!... ؛ لَمَا قَدِرْنَا عَلَى كِتَابَةِ الرَّسَائِلِ وَالمَقَالاتِ بِهَذَا الأُسْلُوبِ الَّذِى عُرِفْنَا بِهِ ؛ وَلَعَلَّ أُسْلُوبَ كِتَابِى ((كَلِمَاتٌ فِى مَوْسِمِ الخَرِيف)) هُوَ أَعْظَمُ دَلِيلٍ عَلَى صِدْقِ مَقُولَتِى هَذِهِ ؛ وَإِلاَّ فَلَو عَوَّلْتُ عَلَى المَوْهِبَةِ وَحْدَهَا لَمَا قَدِرْتُ عَلَى الذَّهَابِ وَالمَجِىءِ هَكَذَا بِلا خَوْفٍ أَو هَيْبَةٍ... ؛

إِنِّى آسَفُ أَشَدَّ الأَسَفِ مِمَّا أَرَاهُ وَمِمَّا أَسْمَعُهُ!!... ؛ تَجْمَعُنِى جِلْسَةٌ مَا مَعَ فَتَىً فِى الثَّالِثَةِ وَالعِشْرِين ؛ أَو فِى الخَامِسَةِ وَالعِشْرِين ؛ أَو فِى السَّابِعَةِ وَالعِشْرِين ؛ أَو فِى الثَّلاثِين مِثْلِى ؛ وَأَكُون قَد سَمِعْتُ مِن بَعْضِهِم أَنَّهُ يَتَعَاطِى صِنَاعَةَ الأَدَب ؛

فَأَسْأَلُهُ: مَا هِيَ الكُتُبِ الَّتِى تَخَرَّجْتَ عَلَيْهَا؟... ؛ فَإِذَا بِهِ يُجِيب ـ مَثَلاً ـ: قَرَأْتُ أَعْمَال أَنِيس مَنْصُور وَمَا تَرَكْتُ كِتَاباً لِهُ ؛ وَقَرَأْتُ جُلَّ أَعْمَال الكَاتِب رَجَاء النَّقَّاش!!... ؛ يَقُول هَذَا وَهُوَ فَرِحٌ مُغْتَبِط!!... ؛ يَذْكُرُ أَسْمَاءَ مُؤَلَّفَاتِهِم وَهُوَ فَخُورٌ فَخْرَ مَن أَسْقَطَ القُسْطَنْطِينِيَّة وَأَوْقَعَ الرُّعْبَ فِى نُفُوسِ الجَحَافِلِ النَّصْرَانِيَّة!!... ؛ يَا لَلنَّكْبَة!!... ؛ أَنِيس مَنْصُور!!... ؛ رَجَاء النَّقَّاش!!... ؛ أَنَا قَرَأْتُ أَعْظَمَ مَا كَتَبَ أَنِيس مَنْصُور: ((فِى صَالُون العَقَّاد كَانَت لَنَا أَيَّام)) ؛ ((عَاشُوا فِى حَيَاتِى)) ؛ ((يَسْقُط الحَائِط الرَّابِع)) ؛ وَقَرَأْتُ لَهُ غَيْرَ مَا ذَكَرْت كَـ: ((طَلَعَ البَدْرُ عَلَيْنَا)) ؛ ((عَلَى رِقَابِ العِبَاد)) ؛ وكِتَابَهُ عَن الوجُودِيَّة ؛ وَغَيْرَ ذَلِك... ؛

فَمَا هِيَ لُغَتُهُ؟!!... ؛ وَمَا هُوَ أُسْلُوبُهُ؟!!... ؛ نَعَم هُوَ يُسَلِّى فِى أَوْقَاتِ الضِّيق ؛ وَعِنْدَهُ أَشْيَاء تَدْعُو المُؤرِّخَ الأَدَبِىَّ إِلَى العِنَايَةِ بِهَا ؛ وَإِن كَانَ يُكَرِّرُ نَفْسَهُ فِى أَكْثَر مِن كِتَابٍ وَفِى غَيْرِمَا عَمَلٍ ؛ كَحَدِيثِهِ عَن العَقَّاد وَطَه حُسَيْن وَتَوْفِيق الحَكِيم ؛ فَهُوَ أُسْلُوبٌ ضَعِيفٌ يُشْبِهُ أَن يَكُونَ عَامِّيًّا تُجَارِيًّا!!... ؛ وَأَمَّا رَجَاء النَّقَّاش ؛ فَكُتُبُهُ وَصَلَتْنِى هُنَا فِى الرِّيَاض قَبْلَ أَن أَعْمَل فِى مُؤسَّسَة أَطْلَس ـ إِذ هِيَ الَّتِى نَشَرَت أَكْثَرَ أَعْمَالِهِ ـ ؛ وَقَرَأْتُهَا... ؛ فَعَلِمْتُ شَيْئًا وَاحِدًا... ؛ أَنَّ الحَيَاةَ حُظُوظ!!... ؛ عَرْضٌ غَبِىٌّ!!... ؛ وَتَنَاولٌ يَدُلُّ عَلَى ضَعْفِ العَقْل!!... ؛

وَأُسْلُوبٌ لا يَلِيقُ إلاَّ بِصِبْيَانِ الكُتَّاب!!... ؛ التُّرَاثُ الأَدَبِىُّ... ؛ هُوَ سِرُّ النَّزْعَةِ البَيَانِيَّةِ البَلاغِيَّة عِنْدَ فُحُولِ الأُدَبَاءِ الَّذِينَ عَاشُوا فِى القَرْنِ المُنْصَرِم... ؛ وَمَن ظَنَّ أَنَّهُ يَصِيرُ أَدِيباً بَلِيغاً مِن غَيْرِ أَن يُعَايِشَ أَسْفَارَ أُدَبَائِنَا الأَوَائِلِ... ؛ فَقَد ظَنَّ مُحَالاً ؛ وَتَمَنَّى مَا لا يَكُونُ أَبَدَاً!!.

مِن أَجْلِ هَذَا ؛ فَمَا كِدْتُ أَفْرَغُ مِن عَرْضِ مَادَّةِ عِلْمِ المَعَانِى ؛ حَتَّى صَنَعْتُ القِسْمَ التَّطْبِيقِىَّ ؛ وَهُوَ يَتَمَثَّلُ فِى أَجْمَلِ وَأَبْدَعِ وَأَبْلَغِ المَقَالات الَّتِى كَتَبَهَا الشَّيْخُ الأَدِيب مُصْطَفَى لُطْفِى المُنْفَلُوطِىّ وَأَوْدَعَهَا كِتَابَهُ ((النَّظَرَات)) .

وَسَتَكُون هَذِهِ هِىَ طَرِيقَتِى فِى بَقِيَّةِ الأَجْزَاءِ الَّتِى سَأُخْرِجُهَا ـ إن شَاءَ اللهُ تَعَالَى ـ ؛ وَالَّتِى تُنَاطُ بِقِسْم : ((عِلْمُ البَلاغَةِ العَرَبِيَّة)) ؛ فَسَيَتْلُو ذَلِك : المُنْتَخَب مِن رَسَائِلِ الرَّافِعِىِّ ؛ ثُمَّ المُنْتَقَى مِن مَقَالات أَبِى فِهْر مَحْمُود مُحَمَّد شَاكِر ؛ ثُمَّ يَأْتِى بَعْدَ ذَلِكَ عَبَاقِرَةُ البَيَانِ العَرَبِىِّ مِن الأَئِمَّةِ المُتَقَدِّمِين.

قُلْتُ : وَسَيَتْلُو هَذَا الجُزْء ـ بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى ـ :

٢ ـ عِلْمُ البَدِيع.

٣ ـ عِلْمُ البَيَان.

٤ ـ أُصُولُ النَّظَرِيَّةِ البَلاغِيَّة.

٥ ـ فَنُّ الأُسْلُوب.

٦ ـ أُمَرَاءُ البَيَان.

٧ ـ رَسَائِلُ البُلَغَاء.

٨ ـ مَصَادِرُ البَلاغَةِ العَرَبِيَّة.

٩ ـ البَلاغَةُ العَرَبِيَّة: نَشْأَتُهَا وَتَطَوُّرُهَا... ؛ مَدَارِسُهَا وَأَعْلامُهَا.

ثُمَّ... ؛ أَتَيْتُ بَعْدَ المُنْتَخَب مِن مَقَالات مُصْطَفَى لُطْفِى المُنْفَلُوطِىّ بِطَلِيعَةِ كِتَابِى المَوْسُوم بِـ: ((رَسَائِلُ الدَّم)) ؛ وَهِىَ رَسَائِلٌ أَدَبِيَّةٌ تَتَشَابَهُ فِى نَزْعَتِهَا الأُسْلُوبِيَّةِ بِالأَدَاءِ البَيَانِىِّ الَّذِى تَجِدُهُ فِى كِتَابِى ((كَلِمَاتٌ فِى مَوْسِمِ الخَرِيف)) ؛ وَقَد وَضَعْتُ الرَّسَائِل الخَمْسَةِ الأُولَى فِى هَذَا الجُزْء ؛ وَسَتَرَى بَقِيَّةَ الرَّسَائِلِ فِى الأَجْزَاءِ الَّتِى ذَكَرْتُهَا حَسْبَ تَرْتِيبِهَا ؛ وَرُبَّمَا أَجْمَعُهَا فِى عَمَلٍ مُفْرَدٍ بَعْدَ ذَلِكَ إِن شَاءَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ؛ فَهُوَ مِنَ الأَعْمَالِ الَّتِى أَعْتَدُّ بِهَا ؛ إِذ هِىَ إِبْدَاعٌ غَيْرُ مَمْزُوجٍ بِنَقْلٍ أَو انْتِخَاب ؛ وَالأَعْمَالُ الإِبْدَاعِيَّةُ هِىَ الَّتِى تَبْقَى ؛ وَهِىَ الَّتِى تَكْتُبُ الخُلُودَ لِصَاحِبِهَا ؛ وَلأَنِّنِى أَعْلَمُ يَقِينَاً أَنَّ المَوْتَ سَيَهْجُمُ عَلَى سَاحَتِى عَمَّا قَرِيب!!... ؛ فَأَنَا أَرْجُو إِن رَحَلْتُ عَن دُنْيَا النَّاس!!... ؛ أَن تَبْقَى أَشْعَارِى و كَلِمَاتِى .

وبعد:

اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ الَّتِى نَرْجُو!!... ؛ وَرِضَاكَ الَّذِى نُؤمِّل!!... ؛ وَمَغْفِرَتَكَ الَّتِى أُرِيد!!... ؛ اللَّهُمَّ لا نَصِيرَ سِوَاك!!... ؛ وَلا مُعِينَ إِلاَّك!!... ؛ اللَّهُمَّ أَسْتَغِيثُ بِنُورِ وَجْهِكَ أَن تُبَدِّدَ ظُلُمَاتُ حَيَاتِى!!... ؛ وَأَسْأَلُكَ التَّأْيِيدَ فِى خَوْفِى وَثَبَاتِى!!... ؛ اللَّهُمَّ هَوِّن الشَّدَائِدَ وَالخُطُوب!!... ؛ وَفَرِّج البَلايَا وَالكُرُوب!!... ؛ اللَّهُمَّ عَضِّد قُوَّتِى!!... ؛ وَذَلِّل مَا صَعُبَ فِى دُرُوبِ رِحْلَتِى!!... ؛ اللَّهُمَّ وَقَفْتُ عَلَى بَابِك!!... ؛ وَرَغِبْتُ فِى سَكِينَةِ رِحَابِك!!... ؛ اللَّهُمَّ أَنْتَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الوَكِيل!!... ؛ وَأَنْتَ بِكُلِّ جَمِيلٍ كَفِيل!!... ؛ سُبْحَانَكَ رَبَّنَا لا إِلَهَ سِوَاك!!.

قَالَهُ بِلِسَانِهِ ؛ وَقَيَّدَهُ بِبَنَانِهِ

البَاز الأَسْمَر

محمد محمود دحروج

الشَّهِير بِـ: ((نِزَار شَاهِين))

ـ أَيَّدَهُ الله ... وَسَدَّدَ خُطَاه ـ

وَكَانَ الفَرَاغُ مِن هَذَا الَّذِى سُطِّرَ ؛ فِى:

ـ [الثَّامِنُ وَالعِشْرُون مِن مَارِس ـ آذَار ـ: ٢٠١٢م] ـ

بِمْدِينَةِ الرِّيَاض ؛ بِشَمَالِ الدِّيَارِ المِصْرِيَّة

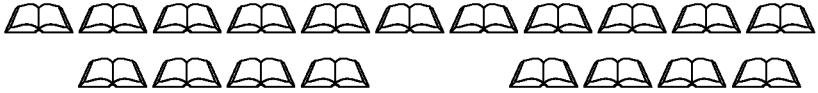

رَسَائِلُ الدَّم

رَسَائِلٌ كُتِبَت بِمِدَادِ الحَسْرَةِ وَالأَلَم !!... ؛ وَزَادَ مِن نِيرَانِ
حُزْنِهَا !!... ؛ أَنَّهَا كُتِبَت عَلَى ذِكْرَى فَتَاةٍ كُنْتُ أُضَحِّي
بِعُمُرِي مِن أَجْلِهَا لَو دَفَعَتْنِي الأَقْدَارُ إِلَى ذَلِك !! ... ؛
رَحَلَت ... ؛ وَمَا زَالَت هَاهُنَا !! ... ؛ تَسْكُنُ فِي فُؤَادِي !!
مَقَالاتٌ فِي فَلْسَفَةِ الحُبِّ وَالجَمَال

مـحَـمـد مَحَـمـود دَحـروج
الشَّهِير بـ: ((نِزَار شَاهِين))

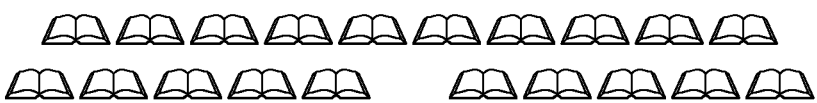

*- بَيْنَ يَدَى هَذِهِ الرَّسَائل :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحُبُّ !!... ؛ النَّفْسُ الشَّاعِرِيَّة !!... ؛ إِذَا مَا اجْتَمَعَا فِى قَلْبٍ وَاحِدٍ !!... ؛ تَخَلَّى الكَوْنُ عَن حَقَائِقِهِ وَمُسَلَّمَاتِهِ !!... ؛ وَأَصْبَحَ صَوْتُ العِشْقِ وَالهَوَى هُوَ النَّامُوسُ الأَكْبَرُ الَّذِى يَحْكُمُ هَذِهِ الحَيَاة !!... ؛ وَصَمَتَ الوُجُودُ كُلُّهُ ؛ فَلا تُسْمَعُ إِلاَّ خَفَقَاتُ قَلْبِهِ ؛ وَأَنَّاتُ رُوحِهِ ؛ وَكَلِمَاتُ ضَمِيرِهِ المُضْطَرِبَةِ البَرِيئَةِ الصَّادِقَةِ!!... ؛ أَيَّامٌ هِىَ فِى عُرْفِ أَهْلِ الصَّبَابَةِ دَهْرٌ !!... ؛ تَتَخَاذَلُ أَمَامَهُ كَآفَّةُ الأَحْقَابِ وَالدُّهُور!!... ؛ وَتَارِيخٌ !!... ؛ يَتَلاشَى عِنْدَهُ تَارِيخُ عَبَاقِرَةِ هَذِهِ الأَرْض!!... ؛ فَالعِشْقُ هُوَ جَوْهَرُ العَبْقَرِيَّةِ... ؛ وَالحُبُّ هُوَ سِرُّ النُّفُوسِ المَلائِكِيَّةِ ... ؛ لا شِعْرُ الشُّعَرَاء ؛ وَلا إِبْدَاعُ الكُتَّابِ وَالأُدَبَاء... ؛ أَدْرَكَ كُنْهَ هَذِهِ العَاطِفَةِ الغَرِيبَةِ الرَّهِيبَة!!... ؛ لا الشُّعَرَاءُ الَّذِينَ مَاتُوا عِشْقَا... ؛ وَلا الأُدَبَاءُ الَّذِينَ قُتِلُوا شَوْقَا... ؛ لا هَؤلاء ؛ وَلا أُولَئِك !!... ؛ كُلُّهُم رَحَلُوا وَهُم يَشْعُرُونَ بِأَنَّهُم عَجَزُوا - رَغَم كَثْرَةِ مَا قَالُوا وَمَا كَتَبُوا - عَن وَصْفِ هَذَا الشَّىْءِ العَجِيبِ الَّذِى اسْتَعْبَدَ القُلُوبَ وَالعُقُول !!... ؛ حَاوَلْتُ كَثِيراً أَن أَضَعَ تَعْرِيفَاً لِهَذِا المُصْطَلَحِ الشَّرِيف... ؛ إِلاَّ أَنَّنِى عَجَزْتُ فِى كُلِّ مَرَّةٍ !!... ؛ لَقَد رُمْتُ تَعْرِيفَ مَالا يُعَرَّف

... ؛ وَجَاهَدتُ مِن أَجْلِ الوُصُولِ إِلَى ذَلِك... ؛ فَإِذَا بى كَمَن يَتَمَنَّى المُحَال!!

... ؛ إِنَّهُ الحَقِيقَةُ المَجْهُولَةُ!!... ؛ نَعْرِفُهُ... ؛ وَلَكِنَّنَا مَا أَدْرَكْنَا ذَاتَهُ ؛ وَمَا اكْتَشَفْنَا مَاهِيَّتَه!!... ؛ سُئِلْتُ كَثِيرًا عَنِ العِشْقِ ؛ وَفِى كُلِّ مَرَّةٍ كُنْتُ أُعَبِّرُ عَنْهُ بِأَلْفَاظٍ مُخْتَلِفَةٍ وَمَعَانٍ مُتَبَايِنَةٍ !!... ؛ قُلْتُ مَرَّةً : هُوَ صَفَاءُ الرُّوح ؛ وَنَقَاءُ السَّرِيرَة ؛ وَطَهَارَةُ الأَفْكَار ؛ وَجَمَالُ الخَيَال !! .

وَقُلْتُ مَرَّةً : هُوَ مَوْتُ الوَاقِع ؛ وَالعَيْشُ فِى عُيُونِ الحَبِيبَة !! .

وَقُلْتُ مَرَّةً : هُوَ اسْتِعْبَادُ العَقْلِ لِلقَلْب ؛ وَخُضُوعُ الفِكْرِ لِلمَشَاعِرِ ؛ وَغِيَابُ الجَسَدِ وَحُضُورُ الرُّوح ؛ فَهُوَ أَسِيرُ العَاطِفَة ؛ تَأْمُرُهُ فَيُطِيع ؛ وَتَنْهَاهُ وَتَزْجُرُهُ فَيَنْتَهِى وَيَزْدَجِر ؛ تَخْتَفِى كُلُّ الكَلِمَات ؛ وَمَا يَبْقَى سِوَى صَدَى هَذِهِ الكَلِمَة ... ؛ الحُب !!.

وَقُلْتُ مَرَّةً : هُوَ الجُنُون !!... ؛ وَالجُنُونُ فُنُون !!... ؛ وَلِكُلِّ فَتىً مَذْهَب ... ؛ وَلِكُلِّ قَلْبٍ شَرِيعَة !!.

وَقُلْتُ مَرَّةً : هُوَ الحُزْنُ الَّذِى تَجَاوَزَ بِقُوَّةِ قَهْرِهِ كَآفَّةَ الأَحْزَان ؛ وَهُوَ الأَلَمُ الَّذِى يُذِيبُ حَقِيقَةَ الإِنْسَان ؛ وَهُوَ الصَّمْتُ الَّذِى يُنَاجِى أَشْبَاحَ الرَّدَى وَالمَوْت !! .

وَقُلْتُ مَرَّةً : مَجْهُولٌ لا يُعْرَف ؛ فَكَيْفَ يُعَبَّرُ عَنْهُ أَو يُعَرَّف؟!!... ؛ مَارَسْنَا طُقُوسَهُ... ؛ وَمَا عَرِفْنَا حَقِيقَتَه !!... ؛ فَهُوَ شَىْءٌ تَعْجَزُ عَنْهُ العُقُولُ وَالأَفْكَار ؛ وَتَتَقَاصَرُ دُونَهُ أَقْلامُ العُظَمَاءُ وَالعَبَاقِرَة ؛ حَتَّى وَلَو كَانَ المِدَادُ مِن نَار !! .

وَسَلَّمْتُ فِى النِّهَايَةِ بِصَوَابِ هَذَا الكَلام ؛ وَخَضَعْتُ بَعْدَ البَحْثِ وَطُولِ التَّجَارِيبِ لِهَذَا القَوْل !!.

﴿ هِبَه !!... ؛ ابْنَةُ بَلْدَتِى القَدِيمَة ﴾

عُيُونٌ أَشْعَلَت نِيرَانَ الحُبِّ فِى قَلْبِى بَعْدَ أَن كُنْتُ ظَنَنْتُهَا قَد انْطَفَأَت إِلَى النِّهَايَة !!... ؛ جَاءَت مِن عَالَمِهَا البَاسِمِ الجَمِيل .... ؛ فَأَنَارَت دُنْيَاىَ المُظْلِمَة !!.... ؛ أَرَادَت وَأَردتُ... ؛ وَلَكِن كَانَ لِعَشِيرَتِهَا الكَلِمَةُ الأَخِيرَة !!... ؛ وَحَزُنَت هِى... ؛ أَمَّا أَنَا !!... ؛ فَقَد تَحَوَّلَ دَمُ قَلْبِى إِلَى دَمٍ أَسْوَدٍ كَئِيب !!.... ؛ قَالُوا بِأَنَّنِى لَن أَرَاهَا بَعْدَ اليَوْم !!.... ؛ وَلَكِنِّى أَقُولُ دَوْمَاً : مَا رَحَلَت وَمَا سَتَرْحَلُ أَبَدَاً !!... ؛ إِنَّهَا هُنَا ... ؛ تَسْكُنُ فِى قَلْبِى ... ؛ إِلَى يَوْمِ خَاتِمَتِى !!

- الرِّسَالَةُ الأُولَى :

*- اللِّقَاءُ الأَوَّل

﴿ مَا تَحَرَّكَ القَلْبُ وَمَا اضْطَرَب ؟!! ﴾

كَم مِن فَتَاةٍ يَرَاهَا المَرْءُ لأَوَّلِ مَرَّةٍ فَمَا يَتَحَرَّكُ قَلْبُهُ وَمَا يَضْطَرِبُ ؛ ثُمَّ يَأْتِى مَوْقِفٌ فَيَرَاهَا ؛ هِيَ هِيَ ؛ مَا تَغَيَّرَ شَىْءٌ ؛ مَا حَدَثَ مَا يَدْعُو لِتَعْظِيمِ الفِكْرِ أو الوجْدَان ؛ مَا مِن جَدِيدٍ فِى أَمْرِهَا ؛ وَلَكِن !!... ؛ وَلَكِن هَا هُنَا شَىْءٌ قَد حَدَثَ هَذِهِ المَرَّة !!... ؛ لِمَاذَا لَم أَشْعُر بِهَذَا فِى المَرَّةِ الأُولَى؟!! ؛ لَسْتُ أَدْرِى !!

... ؛ لَكِنِّى شَعُرْتُ بِأَنَّ قَلْبِى قَد سُرِق !!... ؛ رُوحِى قَد صَارَت عِنْدَهَا !!

... ؛ عَقْلِى مَا عَادَ يُفَكِّرُ فِى شَىْءٍ !!... ؛ مَا عَادَ يَبْحَثُ إِلاَّ عَنْهَا !!... ؛ غَرِيبَةٌ أَنْتِ يَا نَفْسِى !!... ؛ كُنْتُ أَقُولُ لِرِفَاقِى : أَنَا مَا أَحْبَبْتُ فَتَاةً قَط ؛ إِلاَّ وَفِيهَا تِلْكَ الشُّرُوطِ الَّتِى لا أَقْبَلُ سِوَاهَا مِن جِهَةِ الجَمَالِ المَادِىِّ المَرْئِىِّ المَحْسُوس ... ؛ وَهَكَذَا كَانَت ((أَسْمَاء)) ... ؛ وَهَكَذَا كَانَت ((مُنَى)) ... ؛ وَهَكَذَا كَانَت ((هِنْد)) ... ؛ أَمَّا ((هِبَه)) !!... ؛ فَهِىَ سَمْرَاء ؛ وَمَا أَحْبَبْتُ فَتَاةً سَمْرَاءَ اللَّوْنِ أَبَدًا ؛ نَعَم هِىَ تَمْلُكُ القَسَمَاتَ الَّتِى أَهْوَاهَا ؛ وَمَلامِحُ وَجْهِهَا هِىَ تِلْكَ المَلامِحِ الَّتِى تَرُوقُنِى ؛ وَلَكِنَّهَا لَيْسَت فِى دَرَجَةِ جَمَالِ وَاحِدَةٍ مِمَّن ذَكَرْت ؛ حَتَّى ((مَنَال)) كَانَت أَوْسَمُ مِن ((هِبَه)) ؛ إِلاَّ أَنَّهَا كَانَت نَحِيلَةٌ ضَعِيفَةٌ ؛ وَكَانَ هَذَا هُوَ عَيْبُهَا المَادِىُّ الجَسَدِىُّ الوَحِيد ... ؛ إِذَن فِلِمَاذَا ؟!!... ؛ قُلْتُ قَبْلَ ذَلِك :

لَسْتُ أَدْرِى !!... ؛أَلَم أَقُل أَنَّ الحُبَّ لا يَعْرِفُ القَوَاعِدَ وَلا الشُّرُوط ؟!!... ؛ أَلَم أَقُل مِن قَبْل : إِنَّ لِلحُبِّ أَسْرَارٌ سَمَاوِيَّةٌ تَذُوبُ أَمَامَهَا تَجَارِبُ المُغَامِرِين ؛ وَحِكْمَةُ الحُكَمَاء ؛ وَعُقُولُ العُظَمَاء ؟!!... ؛أَلَم أَقُل هَذَا ؟!!... ؛إِذَن !!... ؛ فَلا لَوْمَ وَلا عِتَاب .

- الرِّسَالَةُ الثَّانِيَة :

*- اللِّقَاءُ الثَّانِى

﴿ هَكَذَا كَان !!... ؛ وَلا تَسْأَل عَن السَّبَبِ !! ﴾

رَأَيْتُهَا لأَوَّلِ مَرَّةٍ فِى بَيْتِ صَغِيرَتِى شَيْمَاء(١)[٣٧] ؛ كَانَت تَتَهَيَّأُ لِيَوْمِ زِفَافِهَا القَرِيب ؛ وَكُنْتُ أَتَحَدَّثُ مَعَهَا فِى هَذَا الأَمْر ؛ ثُمَّ عَبَرَت فَتَاةٌ فَجْأَةً وَاتَّجَهَت إِلَى جَوْفِ الدَّار ؛ لَمِحْتُ هَيْئَتَهَا ؛ لَكِنِّى مَا رَأَيْتُ وَجْهَهَا ؛ ثُمَّ عُدتُ إِلَى شَيْمَاء لِمُواصَلَةِ الحَدِيثِ الَّذِى انْقَطَعَ لِلحْظَةٍ ... ؛ وَبُعَيْدَ سُوَيْعَةٍ وَقَفَت الفَتَاةُ عَلَى بَابِ الحُجْرَةِ لِمُحَادَثَةِ الشَّيْمَاء ... ؛ وَنَظَرَت إِلَىَّ وَنَظَرْتُ إِلَيْهَا ؛ ثُمَّ أَشَحْتُ بِوَجْهِى وَأَعْرَضتُ عَنْهَا !!... ؛ مَا رَاقَتْنِى وَمَا أَعْجَبَتْنِى !!... ؛ وَانْصَرَفَت الفَتَاة ... ؛ كُنْتُ أَعْلَمُ مِن نَظْرَتِهَا مَعَ كَوْنِهَا كَانَت نَظْرَةً خَاطِفَةً أَنَّ هُنَاكَ ثَمَّةَ شَىْء !! ... ؛ مَضَت الفَتَاةُ لِحَالِهَا ؛ وَسَأَلَتْنِى الشَّيْمَاء : مَا رَأْيُكَ يَا عَمِّى فِى هَذِهِ ؟... ؛ فَأَجَبْتُهَا : هَذِهِ لَيْسَت فِى العِير ؛ وَلا فِى النَّفِير !!... ؛ لَيْسَت هَذِهِ يَا شَيْمَاء مِن الصِّنْفِ الَّذِى يَأْخُذُنِى لأَوَّلِ وَهْلَةٍ ؛ بَل وَلا بَعْدَ زَمَنٍ طَوِيل ... ؛ ثُمَّ مَضَى يَوْمٌ ... ؛ يَوْمَان ؛ ثُمَّ جَاءَت اللَّيْلَةُ الَّتِى تَسْبِقُ لَيْلَةَ الزِّفَاف ؛ وَهِىَ لَيْلَةُ احْتِفَالٍ ؛

---

[٣٧] (١) - وَهِىَ ابْنَةُ أَخِى مِن جِهةِ العُمُومَةِ ؛ وَهِىَ رَفِيقَةُ هِبَه وَصَدِيقَتُهَا مُنْذُ الصِّغَر ؛ وَهِىَ فِى الثَّالِثَةِ وَالعِشْرِينَ مِن عُمُرِهَا ؛ وَكَذَلِكَ رَفِيقَتُهَا الحَبِيبَة ؛ فَأَنَا أَكْبَرُهُمَا بِستِّ سَنَوَات.

جَاءَت العِشَاء ؛ فَخَرَجْتُ مِن بَلْدَتِى قَاصِدًا بَلْدَتِى القَدِيمَة ؛ وَهِىَ تِلْكَ البَلْدَةُ الَّتِى وُلِدتُ بِهَا ؛ وَالَّتِى بِهَا عَشِيرَتِى ؛ ذَهَبْتُ لِحُضُورِ الحَفْل ... ؛ دَخَلْتُ إِلَى المَكَان ؛ سَلَّمْتُ ثُمَّ جَلَسْت ؛ كَانَت هِبَه تَجْلِسُ بِجِوَارِ الشَّيْمَاء ؛ نَظَرْتُ إِلَيْهَا وَمَا كَانَت تَرَانِى ... ؛ شَعُرْتُ بِشَىْءٍ غَرِيب !!... ؛ إِنَّهَا هِىَ الَّتِى رَأَيْتُهَا مِن قَبْل ... ؛ وَلَكِن ؟!!... ؛ مَا هَذَا الَّذِى أَجِدُهُ فِى قَلْبِى ؟!!... ؛ مَا هُوَ الَّذِى أَخَذَنِى هَذِهِ الأَخْذَة ؟!!... ؛ وَجْهٌ بَرِىء !!... ؛ عُيُونٌ حَالِمَة !!... ؛ رُوحٌ كَأَنِّى أُرِيدُهَا وَأَبْحَثُ عَنْهَا !!... ؛ سُبْحَانَ مُقَلِّبِ القُلُوب !!... ؛ تَرَكْتُ مَكَانِى ؛ وَاتَّجَهْتُ نَحْوَ العَرُوسِ بِحُجَّةِ المُبَارَكَةِ لَهَا ؛ ثُمَّ وَقَفْتُ بِجِوَارِهَا ؛ وَبَيْنَا أَنْظُرُ ؛ الْتَقَت عَيْنَاى بِعَيْنَى هِبَه ... ؛ ابْتَسَمْتُ لَهَا ؛ فَابْتَسَمَت !!... ؛ وَتَكَرَّرُ المَشْهَدُ وَأَخَذَت العُيُونُ تَتَشَابَكُ فِى كُلِّ وَقْتٍ وَحِين ؛ حَتَّى أَنَّنِى كُنْتُ وَإِيَّاهَا كَظَاهِرَةٍ طَرِيفَةٍ بَدِيعَةٍ فِى وَسَطِ هَذَا الحَفْل !!.... ؛ وَعَلِمَ الجَمِيعُ بِحَقِيقَةِ مَا اسْتَقَرَّ فِى قَلْبِ نِزَار ... ؛ وَهِبَه!!... ؛ وَانْصَرَفَ الجَمِيعُ مِنَ الحَفْل ... ؛ خَرَجْتُ وَلَكِن بِغَيْرِ النَّفْسِ الَّتِى دَخَلْتُ بِهَا ... ؛ وَخَرَجَت هِى ؛ وَسَعَادَةُ الفَتَاةِ البَرِيئَةِ فِى عَيْنَيْهَا !!

... ؛ يَا لَهَا مِن أَقْدَار !!... ؛ لَقَد كَانَ عَقْلِى قَد ارْتَبَطَ بِالعَاصِمَةِ وَمَا عَادَ يُفَكِّرُ فِى سِوَى السَّفَرِ وَالرَّحِيل !!... ؛ كَانَ كُلُّ شَىْءٍ فِى حَيَاتِى قَد تَحَوَّلَ إِلَى سَرَاب!!... ؛ النَّصْرُ الوَحِيدُ الَّذِى حَقَّقْتُهُ فِى حَيَاتِى ؛ كَانَ فِى مَيْدَانِ الفِكْرِ وَالثَّقَافَة !!... ؛ أَمَّا حَيَاتِى كَإِنْسَان ؟!!... ؛ حَيَاتِى كَقَلْبٍ عَاشَ مَعَ الحُبِّ وَلَهُ؟!!

... ؛ كُلُّ شَىْءٍ كَانَ قَد رَحَل !!... ؛ خَذَلَتْنِى الدُّنْيَا خِذْلانًا رَهِيبًا لا أَدْرِى سَبَبَهُ وَلا أَعْرِفُ عَلَى أَىِّ شَىْءٍ عَاقَبَتْنِى ؟!!... ؛ لا أَهْل !!.... ؛ لا حُب !!.... ؛ لا مَال !!... ؛ لا وَطَن !!... ؛ فَلِمَاذَا البَقَاءُ بِهَذِهِ الأَرْض !!... ؛ أَأَمْكُثُ فِى بَلْدَةٍ مَالِى فِيهَا سِوَى قَبْرِينِ هُنَاكَ عَلَى أَحَدِ حُدُودِهَا ؟!!... ؛ كُنْتُ قَد تَحَدَّثْتُ مَعَ بَعْضِ رِفَاقِى فِى العَاصِمَةِ حَوْلَ رَغْبَتِى الأَكِيدَةِ فِى إِكْمَالِ مَسِيرَةِ حَيَاتِى بِهَا ... ؛ هُنَاكَ عَمَلِى ؛ وَهُنَاكَ الزِّحَامُ الَّذِى أَغِيبُ بَيْنَ حُشُودِهِ فَأَنْسَى كُلَّ آلامِ المَاضِى !!... ؛ هُنَاكَ الشُّهْرَة ... ؛ وَالمَجْد !!... ؛ فَلِمَاذَا البَقَاء ؟!!... ؛ لِمَاذَا ؟!!

... ؛ عَلَى أَنَّنِى كُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّ الجَحِيمَ يَنْتَظِرُنِى هُنَاك !!... ؛ أَنَا لَن أَتَزَوَّج قَاهِرِيَّةً أَبَدًا !!... ؛ وَمَازِلْتُ أَقُولُ لِرِفَاقِى : فَتَاةٌ عَرْجَاءُ مِن بَلْدَتِى ؛ خَيْرٌ أَلْفَ مَرَّةٍ مِن حَسْنَاءٍ تَرَبَّت وَعَاشَت فِى العَاصِمَة ... ؛ هُنَاكَ الخَنَا ؛ وَالخِيَانَة !!... ؛ هُنَاكَ تَعْشَقُكَ الفَتَاةُ أَلْفَ عَامٍ ... ؛ ثُمَّ تَبِيعُكَ فِى سَاعَةٍ رَخِيصَة !!... ؛ وَلأَنِّى شَابٌّ يَشْعُرُ بِمَا يَشْعُرُ بِهِ الرَّجُلُ إِزَاءَ النِّسَاء ؛ فَقَد كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّنِى قَد أُدَنِّسُ هُنَاكَ طَهَارَتِى الَّتِى عِشْتُ حَيَاتِى مُحَافِظًا عَلَيْهَا !!... ؛ سَأَصْنَعُ المَجْدَ الَّذِى أُرِيد ؛

وَلَكِنِّى سَأَخْسَرُ نَفْسِى وَذَاتِى!!... ؛ وَلَكِن مَا الفَارِق ؟!!... ؛ أَنَا هُنَا مَيِّتٌ بَيْنَ الأَحْيَاء !!... ؛ فَالنَّاسُ تَصِفُنِى بِأَنِّى الكَاتِب ؛ الأَدِيب ؛ الشَّاعِر ... ؛ وَلَكِنِّى أَعْلَمُ أَنَّ ثَقَافَتِى وَفَنِّى وَإِبْدَاعِى !! ... ؛ كُلُّ هَذَا لا يُسَاوِى شَيْئًا !!... ؛ كُلُّ مَا كَسَبْتُهُ

مِن مَالٍ طُوالَ السَّنَواتِ الَّتِى عَمِلْتُ خِلالَهَا بِمُؤسَّسَاتِ النَّشْرِ بِالقَاهِرَة لا يُعَادِلُ قِيمَةَ المَهْرِ الَّذِى قَدَّمَهُ زَوْجُ أَسْمَاء يَوْمَ خِطْبَتِهَا !!... ؛ إِذَن ؟!!

... ؛ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ !!... ؛ لِيَذْهَب كُلُّ شَىْءٍ إِلَى الجَحِيم !!... ؛ حَتَّى أَنَا ... ؛ لَو ذَهَبْتُ إِلَى الجَحِيم ... ؛ فَلا بَأْس !!... ؛ لا قِيمَةَ لِلحَيَاةِ فِى عَيْنِى !!

... ؛ لا مَعْنَى لِلوجُودِ عِنْدِى !!... ؛ الكَاتِبُ الَّذِى ضَحَّى بِشَبَابِهِ وَعُمُرِهِ فِى مَيْدَانِ الفِكْرِ وَالثَّقَافَة ... ؛ هَزَمَهُ الفَلاَّحُ ابْنُ الفَلاَّح !!... ؛ وَحَمَلَ أَسْمَاء إِلَى بَيْتِهِ!!... ؛ دَفَعَ هُوَ آلافَ الجُنَيْهَات !!... ؛ وَأَمَّا أَنَا فَحِيلَتِى الخَيْبَةُ وَالحَسْرَة !!

... ؛ إِذَن !!... ؛ فَلْنَسِر نَحْوَ المَجْهُول !! .

نَعَم !!... ؛ كَانَت هَذِهِ هِىَ حَقِيقَةُ أَفْكَارِى وَمَشَاعِرِى !!... ؛ كَانَت أَسْمَاء قَد تَزَوَّجَت مُنْذُ عَامٍ ؛ وَلَكِن بَقِيت عَقِيدَتِى هَذِهِ عَلَى ثَبَاتِهَا وَرُسُوخِهَا !!... ؛

وَبِحُلُولِ عَام ٢٠١٢ م كَانَت الشُّهْرَةُ النِّسْبِيَّةُ قَد طَرَقَت بَابِى ؛ وَلأَوَّلِ مَرَّةٍ فِى تَارِيخِ قِصَّتِى مَعَ التَّأْلِيفِ وَالنَّشْرِ أُدْعَى لِلعَمَلِ فِى أَكْثَرِ مِن مُؤسَّسَةٍ ... ؛

وَهَكَذَا زَادَت رَغْبَتِى فِى الرَّحِيل ... ؛ وَقَوِيت قَنَاعَتِى بِضَرُورَةِ البَحْثِ عَن حَيَاةٍ جَدِيدَةٍ فِى غَيْرِ هَذِهِ الأَرْض !!... ؛ ثُمَّ ؟!!... ؛ ثُمَّ جَاءَت هِبَه !!... ؛

ظَهَرَت فِى عَالَمِى فَجْأَةً !!... ؛ نَظَرَاتُهَا الحَالِمَةُ الوَدِيعَة !!... ؛ جَعَلَتْنِى أَتَنَاسَى كُلَّ مَا كَانَ يَدُورُ بِعَقْلِى !!... ؛ قِصَّةٌ غَرِيبَةٌ !!... ؛ كُلُّ شَىْءٍ فِيهَا يَدْعُو إِلَى الدَّهَشِ وَالتَّعَجُّبِ !!... ؛ أَسْمَاء !!... ؛ الحُبُّ الأَطْوَلُ زَمَنَاً فِى تَارِيخِى وَالأَشَدُّ

وَجَعاً لِقَلْبِى ... ؛ مَا تَعَلَّقْتُ بِهَا بِهَذِهِ السُّرْعَة ... ؛ حَنَان !!... ؛ عَلِقْتُهَا وَأَنَا فِى التَّاسِعَةِ عَشْرَةَ مِن عُمُرِى ؛ وَكَانَت فِى مِثْلِ سِنِّى ؛ وَكُنْتُ أَرَاهَا وَقْتَمَا أُرِيد ؛ وَكُنْتُ أَتَحَدَّثُ مَعَهَا عَلَى سَجِيَّتِى بِلا خَجَلٍ أَو تَكَلُّفٍ ؛ وَمَا كَانَت تَعْرِفُ بِأَنَّنِى أُحِبُّهَا ... ؛ بَل كَانَت تُوقِنُ بِأَنَّنِى أَعْشَقُهَا !!... ؛ وَمَعَ ذَلِكَ مَا بُحْتُ لِهَا أَبَداً !!... ؛ كُنْتُ أَتَهَيَّأُ لِلجَامِعَة ... ؛ وَكَانَت هِىَ حَسْنَاءُ بَلْدَتِنَا القَدِيمَةِ بِلا مُنَازِعٍ ؛ مَا يَمُرُّ يَوْمٌ إِلاَّ وَيَتَقَدَّمُ لِخِطْبَتِهَا صَاحِبُ مَالٍ وَثَرَاء ؛ أَو مَن يَمْلُكُ أَرْضاً وَخَيْراً ... ؛ كَانَ قَلْبِى يَنْطِقُ بِاسْمِهَا مَعَ كُلِّ نَبْضَةٍ مِن نَبَضَاتِهِ !!... ؛ إِلاَّ أَنَّنِى كُنْتُ أَعْرِفُ كَيْفَ أُسَيْطِرُ عَلَى مَشَاعِرِى ... ؛ فَمَا تَحَرَّكَ اللِّسَان !!... ؛ وَمَا نَطَقَت الشِّفَاه !!.

ثُمَّ ؟!!... ؛ لَمَّا جَاءَت مُنَى إِلَى عَالَمِى ؛ وَكَانَت بَدِيعَةَ الحُسْنِ رَهِيبَةَ النَّظَرَات !! ... ؛ حَاوَلَ الكَثِيرُونَ أَن يَصِلُوا حِبَالَهُم بِحَبْلِهَا ؛ وَلَكِنَّهَا طَرَحَت كُلَّ هَؤلاء ... ؛ وَأَرَادَت الأَدِيبَ الفَقِير !!... ؛ وَرَغْمَ أَنِّى كُنْتُ أَعْلَم ... ؛ إِلاَّ أَنَّ لِسَانِى مَا نَطَقَ لَهَا أَبَداً !!... ؛ وَمَا هَذَا لأَنَّهَا لَم تَكُن قَد وَقَعَت مِنِّى كَمَا وَقَعْتُ مِنْهَا ... ؛ بَل أَنَا كُنْتُ أَهْوَاهَا وَأُرِيدُهَا !!... ؛ كُنَّا نَتَكَلَّم ؛ فَنَقْتَرِب ؛ وَلَكِن لا نَصِل إِلَى بَيْتِ القَصِيد !!... ؛ صَارَحْتُهَا بِحُبِّى وَعِشْقِى لَهَا بِالنَّظَرَاتِ وَحَسْب !!... ؛ وَبَقِىَ هَذَا هُوَ حَالِى مَعَهَا طِيلَةَ عَامٍ كَامِلٍ !!... ؛ وَلَمَّا جَاءَ يَوْمُ البَوْح ؟!!... ؛

أَخْبَرَتْنِى أَنَّهَا مِنَ المُحَالِ أَن تَتْرُكَ زَوْجَهَا !!... ؛ هَذَا رَغْمَ أَنَّهَا كَانَت دَائِمَاً مَا تَلْعَنُهُ !!... ؛ وَتُخْبِرُنِى بِأَنَّهَا تَخْشَى أَن يَسُوقَهَا إِلَى المَهَالِكِ !!... ؛ فَكُنْتُ ازْدَادَ إِشْفَاقَاً وَخَوْفَاً عَلَيْهَا !!... ؛ ثُمَّ أَشَارَت إِلَى أَنَّهَا مَا أَرَادَتْنِى زَوْجَاً ؟!!... ؛ بَل أَرَادَتْنِى أَن أَكُونَ رُبَّانَ سَفِينَتِهَا فِى نَهْرِ الفِرَاش !!... ؛ فَأَخْبَرْتُهَا بِالإِشَارَةِ أَيْضَاً أَنَّنِى لَسْتُ مِن رُوَّادِ الخَنَا وَالخَطِيئَة !!... ؛ مِنَ المُحَالِ أَن أُدَنِّسَ بَرَاءَتِى وَطَهَارَتِى !!... ؛ فَتَرَكَتْنِى وَذَهَبَت !!... ؛ أَذْكُرُ آخِرَ مَرَّةٍ رَأَيْتُهَا !!... ؛ كَانَت تَنْظُرُ إِلَىَّ وَكَأَنَّهَا تَتَّهِمُنِى بِالغَبَاء !!... ؛ سَامَحَهَا الله !!... ؛ مَضَت ... ؛ تَرَكَت مَدِينَتَنَا ؛ وَعَادَت إِلَى بَلْدَتِهَا ... ؛ مَضَت بِلا حَزَنٍ وَلا أَسَفٍ !!... ؛ مَضَت !! ... ؛ وَمَاتَ فِى فَمِّى الكَلام !!... ؛ وَبَقِيتُ وَحْدِى حَائِرَاً !!... ؛ أَمْشِى بِوجْدَانِى المُعَذَّبِ وَسْطَ أَحْشَادِ الزِّحَام !! .

عَلَى كُلِّ حَالٍ ... ؛ فَالَّذِى أَرَدتُ أَن أُؤَكِّدَه ... ؛ أَنَّنِى أُجِيدُ الصَّمْتَ الطَّوِيل ... ؛ أَنَّ مَشَاعِرِى وَإِن كَانَت تَمُورُ بِدَاخِلِى ... ؛ إِلاَّ أَنَّنِى أَعْرِفُ كَيْفَ أَمْنَعُ لِسَانِى ... ؛ أَن أَنْطِق !!... ؛ فِى الوَقْتِ المُنَاسِبِ فَقَط ... ؛ وَلَكِن !!... ؛ كَيْفَ عَشِقْتُ هِبَه بِهَذِهِ السُّرْعَة ؟!!... ؛ كَيْفَ أَظْهَرْتُ مَشَاعِرِى قَبْلَ أَوَانِهَا وَلَم أَتَجَلَّد كَعَادَتِى !!... ؛ كَانَ أَبْنَاءُ عَشِيرَتِى يَصِفُونَهَا بِالطِّيبَةِ ؛ وَبِالأَدَبِ ؛ وَبِأَنَّهَا مَا غَامَرَت مَعَ أَحَدٍ أَبَدَاً ؛ وَبَأَنَّهَا بَرِيئَةُ القَلْبِ وَالخُلُق ... ؛ وَلَكِنَّهُم كَانُوا يَنْصَحُونَنِى وَيُكْثِرُونَ مِن

قَوْلِهِم : لِمَاذَا هَذِهِ السَّمْرَاء ؟!... ؛ أَنْتَ مَا أَحْبَبْتَ مِثْلَ هَذِهِ أَبَدَاً ؟!... ؛ الحَيَاةُ مَا ابْتَسَمَت لَكَ إِلاَّ فِى هَذَا العَام ... ؛ فَتَمَهَّل !!

... ؛ لا تَجْنِى عَلَى نَفْسِكَ بِزَوَاجٍ يُعَوِّقُ مَسِيرَتَك ؟!... ؛ ارْحَل إِلَى القَاهِرَة !!

... ؛ سَتَصْنَع هُنَاكَ الأَمَلَ الَّذِى عِشْتَ مِن أَجْلِهِ ... ؛ وَمَن يَدْرِى ؟!... ؛ قَد لا يَمْضِى كَثِيرُ وَقْتٍ إِلاَّ وَتَجِدُ نَفْسَكَ قَادِرَاً عَلَى الزَّوَاجِ مِنَ الأَجْمَلِ وَالأَرْقَى !!

... ؛ كُنْتُ أَسْمَعُ كَلامَهُم وَنَصَائِحَهُم ... ؛ فَلا أُجِيبُ إِلاَّ بِقَوْلِى :

حَسَنٌ فِى كُلِّ عَيْنٍ مَن تَود

كُنْتُ أَقُولُ لَهُم :

أَنَا مِن قَوْمٍ إِذَا عَشِقُوا

طَلَّقُوا العَقْلَ وَعَاشُوا لِلخَبَل !!

فَكَانُوا إِذَا مَلُّوا ... ؛ صَمَتُوا !!

وَهَكَذَا بَدَأَت الحِكَايَةُ الجَدِيدَة !!... ؛ وَأَلْقَيْتُ نَفْسِى وَمَشَاعِرِى فِى هَذَا العَالَمِ الغَرِيب !!... ؛ بِدَايَتِى مَعَهَا كَبِدَايَتِى مَعَ أَسْمَاء !!... ؛ المَشْهَدُ عَيْنُهُ !!

... ؛ الأَحْدَاثُ ذَاتُهَا !!... ؛ كَذَلِكَ كَانَت البِدَايَة !!... ؛ مَا اخْتَلَفَ شَىْءٌ إِلاَّ أَنَّ أَوَّلَ مَوْقِفٍ فِى الرِّوَايَةِ كَانَ فِى الصَّبَاح ... ؛ وَهُوَ هُنَا فِى اللَّيْل !!... ؛ نِهَايَتِى مَعَ أَسْمَاء مَعْرُوفَةٌ مَشْهُورَةٌ لا تَحْتَاجُ إِلَى مَزِيدِ كَلام [٣٨](١) !!... ؛ وَأَمَّا هِبَه !! ... ؛ فَمَا أَدْرِى ؟!!... ؛ وَلَكِنِّى أَقُولُ دَائِمَاً : لابُدَّ أَن تُشْرِقَ الشَّمْس !!.

[٣٨] (١) ـ انْظُر قِصَّتِى مَعَهَا فِى كِتَابِى ((كَلِمَاتٌ فِى مَوْسِمِ الخَرِيف)) ـ مَنْشُورَات دَار أَطْلَس لِلنَّشْرِ وَالإِنْتَاجِ الإِعْلامِىِّ بِالقَاهِرَة ـ ـ

- الرِّسَالَةُ الثَّالِثَة :

*- اللِّقَاءُ الثَّالِث

﴿ هِيَ مَحْضُ كَلِمَات !!... ؛ وَلَكِنَّهَا كَحَبَّاتِ

المَطَر ... ؛ صَادَفَت قَلْبَاً !!... ؛ أَضْنَاهُ الظَّمَأ !! ﴾

مَلَّ قَلْبِى مِن فَرْطِ السَّأَم !!... ؛ قُلْتُ فِى نَفْسِى : لَعَلَّ رُوحِى لَن تَعْرِفَ الحُزْنَ هَذِهِ المَرَّة !!... ؛ وَمِنَ العَجِيب !!... ؛ أَنَّنِى شَعُرْتُ فِى اليَوْمِ التَّالِى بِقُوَّةٍ تَدْفَعُنِى إِلَى رُؤيَةِ هَذِهِ العُيُونِ البَرِيئَةِ !!... ؛ أَيْنَ الصَّبْر ؟!!... ؛ لَسْتُ أَدْرِى !!... ؛ حَمَلَتْنِى أَقْدَامِى نَحْوَ بَلْدَتِى القَدِيمَة !!... ؛ بَل !!... ؛ إِلَى بَلْدَتِى الحَبِيبَة !!... ؛ ذَهَبْتُ فِى الصَّبَاح ... ؛ وَمَرَرْتُ مِن عِنْدِ بَيْتِهَا ؛ إِذ هُوَ يُؤَدِّى إِلَى بَيْتِ وَالِدِ الشَّيْمَاء ... ؛ وَلَئِن أَضْحَت الشَّيْمَاءُ فِى بَيْتٍ آخَر ؛ وَأَصْبَحَت لَهَا حَيَاتُهَا الجَدِيدَة .. ؛ فَهُنَاكَ شَقِيقَتُهَا أَسْمَاء(١)[٣٩] !!... ؛ وَهِيَ صَدِيقَتِى أَيْضَاً !!... ؛ وَلَكِنَّهَا الصَّدَاقَةُ الَّتِى تُعَذِّبُنِى !!... ؛ كَانَت أَسْمَاء تَتَمَنَّى أَن نُكْمِلَ رِحْلَةَ الحَيَاةِ سَوِيَّاً !! ... ؛ صُورِحْتُ بِهَذَا الأَمْرِ غَيْرَ مَرَّةٍ !!... ؛ وَلَكِنَّ قَلْبِى لَيْسَ بِيَدِى !!... ؛ أَعْلَمُ

---

[٣٩] (١) - لَيْسَت هَذِهِ هِيَ أَسْمَاء الَّتِى أَقُولُ عَنْهَا دَائِمَاً : ((القِصَّةُ الأَطْوَلُ زَمَنَاً فِى تَارِيخِى !! ... ؛ وَالأَشَدُّ وَجَعَاً لِقَلْبِى !!...)) ؛ تِلْكَ الَّتِى ذَكَرْتُهَا فِى كِتَابِى ((كَلِمَاتٌ فِى مَوْسِمِ الخَرِيف)) ؛ أَسْمَاءُ هَذِهِ هِيَ شَقِيقَةُ الشَّيْمَاء ؛ وَالصَّدَاقَةُ بَيْنِى وَبَيْنَهُمَا مِن سِنِين ؛ وَإِنَّ وَالِدَهُمَا هُوَ ابْنُ عَمِّى كَمَا ذَكَرْتُ سَلَفَاً .

أَنَّنِى كُنْتُ لَهَا بِمَثَابَةِ الرَّجَاءِ الوحِيدِ فِى هَذَا العَالَم !!... ؛ حَاوَلْتُ غَيْرَ مَرَّةٍ أَن أَبْحَثَ فِى نَفْسِى عَن شَىْءٍ يَدْعُونِى إِلَيْهَا ... ؛ لَكِنِّى مَا وَجَدتُ هَذَا الشَّىْءَ أَبَدَاً !!... ؛ مَعَ أَنَّنِى كُنْتُ أُوقِنُ بِأَنَّ فُؤادِى لَو أَرَادَهَا لَعِشْتُ مَعَهَا حَيَاةً لَن أَظْفَر بِهَا مَعَ سِوَاهَا ؛ فَهِىَ الأَدَب ؛ وَالخُلُق ؛ وَالصِّدْق ؛ وَالصَّبْر ؛ وَالوَفَاء ؛ وَالإِخْلاص ... ؛ للهِ دَرُّكِ يَا أَسْمَاء !!... ؛ إِنَّ القُلُوبَ بِيَدِ اللهِ يُحَرِّكُهَا كَيْفَ يَشَاء!!.

وَأَعُودُ لِوَصْلِ مَا انْقَطَعَ مِنَ الحَدِيثِ ؛ فَأَقُول : وَمَرَرْتُ مِن عِنْدِ بَيْتِهَا ؛ وَرَأَتْنِى وَأَنَا ذَاهِبٌ إِلَى بَيْتِ أَسْمَاء ... ؛ سَلَّمْت ؛ وَجَلَسْت ... ؛ فَإِذَا بِطَارِقٍ يَطْرُقُ عَلَى البَاب ... ؛ إِنَّهَا هِى !!... ؛ لا بَأْسَ مِن مَجِيئِهَا فِى كُلِّ وَقْتٍ وَحِين ... ؛ فَهِىَ الصَّدِيقَةُ الوَحِيدَةُ لِلشَّيْمَاء ؛ وَكَذَلِكَ فَإِنَّ هِبَه مَا صَادَقَت سِوَاهَا مُنْذُ عَهْدِ الطُّفُولَةِ ؛ بَل لَو قُلْتُ : إِنَّ هِبَه تَرَبَّت فِى هَذَا البَيْت ؛ لَمَا أَبْعَدتُ ... ؛ وَلَئِن أَصْبَحَت الشَّيْمَاءُ فِى بَيْتٍ جَدِيدٍ ؛ فَهَذَا لا يُغَيِّرُ مِنَ الأَمْرِ شَيْئَاً ؛ فَالبَيْتُ بَيْتُهَا ... ؛ وَلَكِنِّى كُنْتُ أَعْلَمُ سَبَبَ المَجِىءِ هَذِهِ المَرَّة !!... ؛ دَخَلَت ؛ فَجَلَسَت بِجِوَارِ أُمِّ الشَّيْمَاء !!... ؛ فَقَطَعْتُ كَلامِى ... ؛ وَأَخَذَت صَاحِبَةُ البَيْتِ تُحَادِثُهَا ؛ فَشَارَكَتْهَا الحَدِيث ... ؛ أَخَذْتُ أُنْصِت ... ؛ وَكَانَ العَجَب !!... ؛ صَوْتٌ هَادِئٌ وَدِيع !!... ؛ نَبَرَاتٌ جَمِيلَةٌ شَجِيَّة !!... ؛ أَمَّا أَنَا !!... ؛ فَكُنْتُ أُصَوِّبُ نَظَرَاتَ عَيْنِى إِلَى وَجْهِهَا !!... ؛ إِلَى عَيْنَيْهَا !!... ؛ مَا الغَرِيبُ فِى هَذَا ؟!!... ؛ إِنَّمَا القَصْدُ

هُوَ الإِنْصَاتُ لِمَن تَتَحَدَّث !!... ؛لَيْسَ حَتْمَاً أَن تَكُونَ الدِّلالَةُ دَائِمَاً هِيَ اللَّهْفَةُ وَقُوَّةُ التَّعَلُّقِ... ؛وَهَذَا هُوَ مَا فَهِمَتْهُ السَّيِّدَةُ الجَالِسَة !!... ؛تَكَلَّمَت بِكَلِمَاتٍ قَلِيلَةٍ !!... ؛ثُمَّ مَا أَدْرِى لَعَلَّهَا خَجِلَت ... ؛فَاسْتَأْذَنَت وَانْصَرَفَت ... ؛وَلَوْلا طَبِيعَةُ المَوْقِفِ لَمَا تَرَكْتُهَا تَنْصَرِفُ هَكَذَا !!... ؛ذَهَبَت ... ؛وَبَقِيتُ أَجْتَرُّ فِى سَعَادَةٍ تَلْكَ الكَلِمَاتِ الَّتِى نَطَقَت بِهَا شِفَاهُهَا !!... ؛مَا أَدْكُرُ نَصَّ الأَلْفَاظ ... ؛إِنَّمَا أَدْكُرُ رَنَّاتَ الكَلامِ وَهِيَ تَخْرُجُ مِن تِلْكَ الشِّفَاه !!... ؛مَا أَجْمَلَهَا !!... ؛مَا أَعْذَبَهَا !!... ؛مَا أَبْدَعَهَا !!... ؛لَيْتَهَا تَكَلَّمَت إِلَى يَوْمِ نِهَايَةِ العَالَم !!.

أَعْطِنِى النَّاىَ وَغَنِّ

؛فَالغِنَا سِرُّ الخُلُود

وَأَنِينُ النَّايِ يَبْقَى

عِنْدَمَا يَفْنَى الوُجُود

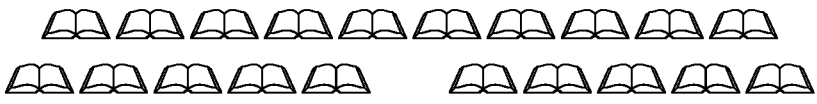

- الرِّسَالَةُ الرَّابِعَة :

*- اللِّقَاءُ الرَّابِع

﴿ هَكَذَا كَانَ كَلامِى !!... ؛ وَكَذَا صَارَ لِسَانِى !! ﴾

إِلَى أَيْنَ يَمْضِى الأَسَد ؟!!... ؛ فَابْتَسَمَت فِى دَهَش !!... ؛ هَكَذَا مَازَحْتُهَا يَوْمَاً قَبْلَ حُدُوثِ مَا قَد كَان !!... ؛ أَمَّا الآن !!... ؛ فَمَا عُدتُ أَتَكَلَّم !!... ؛ أَصْبَحَت لَذَّتِى هِىَ النَّظَرُ إِلَيْهَا فِى سُكُونٍ وَتَأَمُّلٍ !!... ؛ إِنَّ شَأْنَ الحُبِّ لَعَجِيب !!... ؛ كُنْتُ بِالأَمْسِ أَضْحَكُ وَأُدَاعِبُ وَأَمْزَح ؛ وَأُسْمِعُ الرِّفَاقَ أَشْعَارِى ... ؛ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهَا تَتَحَادَثُ مَعَ الشَّيْمَاء فِى الحُجْرَةِ المُجَاوِرَة ... ؛ مَا كُنْتُ أَعْبَأُ ... ؛ كَانَت بِالنِّسْبَةِ إِلَىَّ مَحْضُ أُنْثَى ... ؛ وَأَنَا كَرِهْتُ كَآفَّةَ أَصْنَافِ النِّسَاء !!

... ؛ إِذَن فَلا حَرَجَ وَلا خَجَل ... ؛ أَمَّا اليَوْم !!... ؛ فَقَد تَغَيَّرَ كُلُّ شَىْء !!

... ؛ حَتَّى هِى !!... ؛ مَا عَادَت مَرِحَةً طَلْقَةَ اللِّسَانِ كَأَوَّلِ عَهْدِى بِهَا !!

... ؛ حِرْتُ فِى السَّبَب ؟!!... ؛ كَانَ مِنَ المَظْنُونِ بُعَيْدَ أَن اضْطَرَبَت القُلُوب ... ؛ أَنَّ الحَوَاجِزَ سَتَسْقُط ... ؛ وَأَنَّ السُّدُودَ سَتَنْهَار ... ؛ فَطَبِيعَتُهَا كَطَبِيعَتِى ... ؛ انْفِعَالاتُهَا كَانْفِعَالاتِى ... ؛ طَرِيقَتُهَا كَطَرِيقَتِى ... ؛ وَكُلُّ هَذَا يَشِى بِكَثِيرٍ مِن أَوْجُهِ التَّشَابُهِ ... ؛ إِذَن ... ؛ فَلِمَاذَا !!... ؛ صَمَتُّ أَنَا ؟!!... ؛ وَصَمَتَت هِىَ أَيْضَاً ؟!!... ؛ وَحِرْتُ فِى تَعْلِيلِ هَذَا الأَمْر ؟!!... ؛ وَلَكِنِّى قُلْتُ فِى النِّهَايَة : الطَّبِيعَةُ وَاحِدَة !!... ؛ أَنَا لا أُرِيدُ البَدْءَ كَعَادَتِى ... ؛ وَهِىَ أَيْضَاً كَذَلِك !! .

تَكَرَّرَت زِيَارَاتِى لِلبَلْدَةِ ... ؛ اعْتَادَت أَقْدَامِى عَلَى الذَّهَابِ إِلَى بَيْتِ أَسْمَاء ... ؛ وَمَا أَذْهَبُ إِلاَّ مِنَ الطَّرِيقِ الَّذِى بِهِ بَيْتُ الشَّمْسِ السَّمْرَاء !!... ؛ وَصَارَ المَشْهَدُ مَأْلُوفاً لا يَتَغَيَّرُ وَلا يَتَبَدَّل !!... ؛ مَا إِن أَدْخُلُ إِلَى البَيْت !!... ؛ إِلاَّ وَيَدْخُلُ بُعَيْدَ لَحَظَاتٍ الزَّائِرُ الآخَر !!... ؛ إِلاَّ أَنَّ المَوْقِفَ عَلَى حَالِهِ !!... ؛ صَاحِبَةُ البَيْتِ جَالِسَةٌ مَعِى ... ؛ وَإِذَا جَاءَت هِبَه ؛ فَلابُدَّ مِن أَنَّهَا جَاءَت لِرُؤيَةِ أَسْمَاء ... ؛ فَأَنَا أُحَادِثُ الأُم ... ؛ وَهِىَ تُحَادِثُ الابْنَة ... ؛ وَمَا هَذَا المُبْتَغَى مِن وَرَاءِ زِيَارَتِى أَو زِيَارَتِهَا !!... ؛ وَلَكِن كَيْفَ العَمَل ؟!!... ؛ هَذَا هُوَ المَكَانُ الوَحِيدُ الَّذِى لا شُهْرَةَ فِيهِ وَلا تَسْمِيع ؟!!... ؛ إِذَن !!... ؛ فَاللِّقَاءُ العَابِر !!... ؛ وَالنَّظَرَاتُ الصَّامِتَة !!... ؛ وَالشُّعُورُ بِالتَّجَاور !!... ؛ كُلُّ هَذَا ؟!!... ؛ يَكْفِى !! ... ؛ وَلَكِن ؟!!... ؛ إِلَى حِين !!.

- الرِّسَالَةُ الخَامِسَة :

*- اللِّقَاءُ الخَامِس

﴿ مَا يَعِيشُ إلاَّ مِن قَلَمِه ؟!!... ؛ مُحَال !! ﴾

تَكَاثَرَت المَقُولات !!... ؛ كَأَنَّ الدُّنْيَا قَد خَلَت !!... ؛ وَبَقِيتُ وَحْدِى حَدِيثَ البَلْدَةِ !!... ؛ حَتَّى أَبْنَاءُ عَشِيرَتِى كَانُوا يَهْمِسُونَ إِلَىَّ فِى بَعْضِ الأَحَايين : أَنْتَ تَرُومُ مِنْهَا مَا لا يَسُر؟!!... ؛ فَكُنْتُ أَضْحَك!!... ؛ وَكُنْتُ أَعْجَب !!... ؛ ثُمَّ أَصْمُت!!... ؛ غَرِيبَةٌ هِىَ طَرَائِقُنَا وَعَادَاتُنَا !!... ؛ الفُحْشُ وَالخَنَا يُمَرَّرُ وَيُسْتَر!!... ؛ أَمَّا الحُب!!... ؛ فَكُلُّ امْرِىءٍ بِالحِكَايَةِ يَبُوحُ وَيَجْهَر!!... ؛ وَيفَجْأَةٍ!! ... ؛ أَصْبَحْتُ وَإِيَّاهَا حَدِيثَ الحَىِّ!!... ؛ عَلَى أَيْش؟!!... ؛ لَسْتُ أَدْرِى!! ... ؛ وَلَمَّا مَلَلْتُ !!... ؛ كَانَت كَلِمَتِى :

((قَالُوا هَوَاهَا مُحَمَّدٌ !!... ؛ هَذَا النِّزَارِىُّ الغَرِيب !!... ؛ أُتَرَاهُ يَعْشَقُ أَم يُدَاعِبُ أَم يَرُومُ البَحْثَ عَن أَمْرٍ مَعِيب ؟!!... ؛ وَأَطَالُوا فِى عَبَثِ الحَدِيثِ لأَنَّهُم ؟!! ... ؛ مُلِئَت قَلُوبُهُمُ بِجَهْلِ الحَبِّ مَا عَلِمُوا بِأَسْرَارِ الصَّبَابَةِ وَالهَوَى !!... ؛ كُلُّ الحَيَاةِ بِعُرْفِهِم ؟!!... ؛ عَقْلٌ تَفَاحَشَ أَو تَمَاجَنَ أَو غَوَى !!... ؛ أَمَّا البَرَاءَةُ وَالوَفَا أَو مَا احْتَوَتْهُ هُنَاكَ أَسْرَارُ القُلُوب !!... ؛ لُغْزٌ عَجِيبٌ عِنْدَهُم !!... ؛ هُم مَا دَرُوا غَيْرَ الخَطَايَا وَالرَّزَايَا وَالذُّنُوب !!... ؛ وَأَقُولُ لا أَعْبَأُ بِأَنِّى عَشِقْتُهَا وَالقَلْبُ قَد

أَعْلَن هُنَاكَ بِأن أَحب !!... ؛ وَأَقُولُ غَيْرَ مُخَجَّلٍ !!... : هَل فِى الهَوَى وَالعِشْقِ ذَنْب ؟!!... ؛ الحُبُّ هُوْ سِرُّ الحَيَاةِ بِأَرْضِنَا !!... ؛ الحُبُّ مَلْحَمَةٌ تُغَنِّى فِى تَأَمُّلِ صَمْتِنَا !!... ؛ قُولُوا فَإِنِّى !!... ؛ قُولُوا فَإِنِّى لَن أُغَادِرَ مِن هُنَا !!

... ؛ قُولُوا فَقَد أَضْحَت حَيَاتِى إِى وَرَبِّى هِىَ الأَمَانِى وَالمُنَى !!... : ذَهَبَت خُطُوبُ الدَّهْرِ آلامُ الحَيَاةِ المُرْهِبَه !!... ؛ بَقِيت هُنَاكَ مَقُولَتِى !!... ؛ وَأَقُولُ فِى صِدْقٍ أَنَا !!... : أَنَا قَد عَشِقْتُكِ يَا هِبَه !! .)) . [٤٠](١) .

....

... ؛ وَمَضَت أَيَّام... ؛ نَهَارٌ وَلَيْل !!... ؛ صَبَاحٌ وَمَسَاء !!... ؛ أَرَاهَا وَتَرَانِى ... ؛ أَذْهَبُ وَتَأْتِى... ؛ أَمْضِى وَتَجِىء... ؛ الهَوَى يَزْدَاد !!... ؛ وَالعِشْقُ فِى اشْتِعَال !!... ؛ وَيفَجْأَةٍ !!... ؛ وَيفَجْأَةٍ أَظْلَمَت فِى عَيْنِى الدُّرُوب؟!!... ؛ مَا ظَنَنْتُ أَنَّ الأَيَّامَ سَتَبْدَأُ فِى مُحَارَبَتِى وَعِنَادِى بِهَذِهِ السُّرْعَةِ الرَّهِيبَة !!... ؛ عَلِمَ وَالِدُهَا !!... ؛ طَرَقَ الخَبَرُ سَمْعَهُ !!... ؛ فَقَالَ لَهَا فِى وُضُوحٍ غَاضِب!!... :

﴿ لَن أَسْمَحَ لابْنَتِى أَن تَحْيَا مَعَ شَابٍّ لا يَعِيشُ

إِلاَّ مِن قَلَمِهِ !!... ؛ وَلا يَمْلِكُ سِوَاه !! . ﴾ .

....

[٤٠] (١) ـ مِن قَصَائِدِ دِيوَانِى : ((عِنْدَمَا نَجْلِس سَوِيًّا)) .

... ؛ كَانَت رُؤْيَتُهَا فِى الصَّبَاحِ تُخْبِرُنِى بِأَنَّ هُنَاكَ شَىْءٌ غَرِيبٌ؟!!... ؛ ذَهَبَتُ إِلَى بَيْتِ أَسْمَاء... ؛ وَرَأَتْنِى هِبَه... ؛ فَجَاءَت... ؛ كُنْتُ أَقِفُ بِجِوَارِ أَسْمَاء وَأُمِّهَا... ؛ ثُمَّ سَمِعْنَا صَوْتَ فَتَاةٍ تُنَادِى... ؛ الْتَفَتُّ... ؛ فَإِذَا هِى !!... ؛ نَظَرْتُ إِلَيْهَا!!... ؛ فَأَطْرَقَت بِحُزْنٍ !!... ؛ آلَمَتْنِى رُؤْيَتُهَا فِى هَذَا الْمَشْهَدِ!!... ؛ حِرْتُ فِى عِلَّةِ حُزْنِهَا!!... ؛ نَظَرْتُ إِلَيْهَا ثَانِيَةً!!... ؛ فَنَظَرَت!!... ؛ ثُمَّ أَطْرَقَت فِى أَسَىً كَالْمَرَّةِ الأُولَى!!... ؛ كِدتُ أَنْفَجِر!!... ؛ مَا هُوَ السَّبَب؟!!... ؛ حَتَّى وَلَو حَزِينَةً لأَجْلِ أَمْرٍ مَا... ؛ فَلِمَاذَا لَم تَدْخُل كَعَادَتِهَا؟!!... ؛ غَرِيبٌ هُوَ ذَلِكَ الأَمْر!! .

وَمَضَت هِبَه ؛ وَعَادَت إِلَى بَيْتِهَا... ؛ وَبَقِيتُ فِى حِيرَتِى!!... ؛ وَعِنْدَ الظَّهِيرَة !! ..... ؛ خُبِّرْتُ بِالأَمْر!!..... ؛ زَالَت حِيرَتِى!!..... ؛ وَهَجَمَ الْحُزْنُ عَلَى نَفْسِى وَسَاحَتِى !!... ؛ مَضَى كُلُّ شَىْءٍ !!... ؛ وَبَقِيت حَسْرَتِى !! .

....

وَمَضَيْتُ !!... ؛ مَضَيْتُ كَى أَعُود!!... ؛ حَانَ مَوْعِدُ الإِيَابِ وَالرُّجُوع!!... ؛ كَانَ مِنَ الْخَطَأِ أَن أُغَامِرَ ثَانِيَةً بَعْدَ كُلِّ هَذَا الَّذِى كَان !!... ؛ وَبَيْنَا خُطُواتِى تَتَّجِهُ إِلَى مَوْطِنَهَا الَّذِى مَا عَرِفَت سِوَاه!!... ؛ إِلَى أَرْضِ اليَأْس!!... ؛ إِلَى دُرُوبِ التَّلاشِى وَالضَّيَاع!!... ؛ بَيْنَا أَمْضِى فِى طَرِيقِى؟!!... ؛ رَأَيْتُهَا وَاقِفَة!!... ؛ رَأَتْنِى

... ؛ فَنَظَرْتُ إِلَيْهَا!!... ؛ فَإِذَا بِحُزْنِ الكَوْنِ قَد هَبَطَ عَلَى عَيْنَيْهَا!!... ؛ نَظَرَت إِلَيَّ فِى سُكُونٍ وَصَمْت!!... ؛ كَأَنَّهَا أَرَادَت أَن تَقُول : لا بَأْسَ يَا مُحَمَّد !!... ؛ لَقَد غَابَت الشَّمْسُ سَرِيعًا!!... ؛ سَامَحَ اللهُ هَذِهِ الحَيَاة !!... ؛ نَظَرْتُ إِلَيْهَا !!... ؛ فَرَأَيْتُ آيَاتَ الكَآبَةِ تَسْتَحْوِذُ عَلَى مَلامِحِهَا وَقَسَمَاتِهَا!!... ؛ اهْتَزَّ وجْدَانِى لِرُؤْيَتِهَا هَكَذَا!!... ؛ زُلْزِلَ كَيَانِى!!... ؛ شَعُرْتُ أَنَّ قَلْبِى يُرِيدُ أَن يَقْذِفَ بِدَمِهِ الكَئِيب!!... ؛ كَرِهْتُ وُجُودِى!!... ؛ تَهَاوَى الكَوْن!!... ؛ أَضْحَت الدُّنْيَا فِى عَيْنِى كَوَجْهِ مَسْخٍ مُشَوَّهٍ لَعِين!!... ؛ وَمَضَيْتُ وَحْدِى مِن جَدِيدٍ فِى طَرِيقِى!! ... ؛ أُغَنِّى أُغْنِيَتِى الحَزِينَة!!... ؛ وَأَنَا جَالِسٌ فَوْقَ عَرْشِ مَوَاجِعِى!! .

((مَا بَيْنَ بَدْئِى وَالخِتَام؟!!... ؛ أَقَاصِيصٌ... ؛ رِوَايَاتٌ... ؛ حِكَايَاتُ... ؛ فَهُنَاكَ مَن ذَهَبُوا!! ... ؛ وَمَن فُقِدُوا!! ... ؛ وَمَن مَاتُوا !!... ؛ وَبَقِيتُ وَحْدِى فِى الأَخِير!! ... ؛ رُوحٌ تَجُوبُ هُنَاكَ فِى التِّيهِ الكَبِير!! ... ؛ أَمَلٌ تَحَوَّلَ يَا صَدِيقِى إِلَى رَمَاد!! ... ؛ مَا عُدْتُ أَعْرِفُ يَا أَخِى !! ... ؛ مَعْنَى السَّفَاهَةِ وَالرَّشَاد؟!! ... ؛ أَشْلاءُ أَحْلام!! ... ؛ أَشْلاءُ أَحْلامٍ أُمِيتَت فِى الخَرِيف !!... ؛ لا فَرْقَ بَعْدَ اليَوْمِ!! ... ؛ مَن غَصَبَ الهُدَى (١)[٤١] !!... ؛ وَمَنِ العَفِيف !!... ؛ لا فَرْقَ بَيْنَ

---

[٤١] (١) - فُلانٌ يَمْضِى عَلَى هُدَى : أَى عَلَى بَصِيرَةٍ .

الشَّيْخ عَرْبَدَ فِى المَقَابِحِ وَالمَثَالِبِ لا يَثُوبُ[٤٢](٢) وَلا يَفِيق!! ... ؛أَو بَيْنَ طِفْلٍ بَاسِمٍ فِى وَسْطِ لَيْلٍ قَد تَهَشَّمَ رَأْسُهُ فَوْقَ الطَّرِيق !! ... ؛يَا سَيِّدِى !! ... ؛كُلُّ الحَقَائِقِ قَد هَوَت!!... ؛كُلُّ العُقُولِ هُنَاكَ فِى زَمَنِ الرَّذَائِلِ وَالمَخَازِى قَد غَوَت !!... ؛وَلِذَاكَ دَعْنِى فَإِنَّنِى!!... ؛ وَلِذَاكَ دَعْنِى فَإِنَّنِى سَأَسِيرُ وَحْدِى فِى المَدَائِنِ وَالدُّرُوب !!.. ؛أَقْتَاتُ مَعْنَى الحُزْنِ فِى لَيْلِ المَآسِى!!... ؛وَالخُطُوب !! ... ؛أَمْضِى كَمَلاَّحٍ !!... ؛أَمْضِى كَمَلاَّحٍ تُطَارِدُهُ رِيَاحُ القَهْرِ فِى بَحْرِ الضَّيَاع !!... ؛أَمْضِى كَعَبْدٍ مِلْكَ نَخَّاسٍ يَعِيشُ مَصِيرُهُ أَن يُشْتَرَى أَو أَن يُبَاع !!... ؛أَنَا قَد كَفَرْتُ بِكُلِّ أَعْرَافِ الحَيَاه !!... ؛لا فَرْقَ بَعْدَ اليَوْمِ عِنْدِى بَيْنَ أَفْئِدَةِ المَلائِكِ وَالطُّغَاه !!... ؛عُلِّمْتُ فِى يَوْمِى اللَّعِينِ حَقِيقَةً؟!!... ؛الحَقُّ عِنْدَ النَّاسِ شَىْءٌ لا يُرَى إِلاَّ سِوَاه ؟!!... ؛دَعْ أَمْرَ قَلْبٍ أَو عُقُولٍ إِنَّهَا وَهْمٌ هُنَا !! ... ؛إِنَّ الشَّرِيعَةَ فِى زَمَانِى تَقِيسُ كُلٌّ حَسْبَ مَا مَلَكَت يَدَاه !!... ؛وَلِذَا فَدَعْنِى لا تُمَهِّل إِى وَلا تَقُل انْتَظِر !!... ؛سَأَعُودُ ثَانِيَةً لأَنْسَى الحُزْنَ فِى تِيهِ السِّفَر !! ... ؛سَيَقُولُ قَوْمِى ظَلَّ يَجْتَازُ الدُّرُوبَ لِكُلِّ أَزْمِنَةِ الحَيَاةِ وَلِلمُحَالِ قَد اخْتَرَق !!... ؛ضَاعَت رُؤَاهُ فَعَاشَ فِى وَهْمِ السَّرَابِ !!... ؛هُنَاكَ فِى قَلْبِ الجَحِيمِ !!... ؛قَد احْتَرق ... ؛هَذَا أَنَا !!... ؛هَذَا أَنَا !!... ؛وَسْطَ الرِّيَاح!!

---

[٤٢] (٢) – ثَابَ فُلانٌ إِلَى رَشَدِهِ: أَى عَادَ وَرَجِع.

... ؛رُوحٌ مَلِيئَةُ !!... ؛ بِالمَوَاجِعِ !!... ؛وَالجِرَاحِ!! .))[1][43] .

وَلِلرَّسَائِلِ تَتِمَّة

(١) – مِن قَصَائِدِ دِيوَانِى : ((عِنْدَمَا نَجْلِس سَوِيًّا)) .